

الموتى يحكمون

بيثنتى بلاسكو إيبانييث

- ♦ المؤلف: بيثنتى بلاسكو إيبانييث
- ♦ العنوان: الموتى يحكمون
- ♦ ترجمة: شيرين عصمت
- ♦ الطبعة: الأولى 2024
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٣ / ١٦٢٠٢

الترقيم الدولي: ISBN :

978 - 977 - 765 - 388 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

بيثنتي بلاسكو إيبانييث

الموتى يحكمون

ترجمة

شيرين عصمت

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

Los Muertos Mandan

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

Los Muertos Mandan

هذا العمل نُشر بمنحة من

وزارة التعليم، الثقافة والرياضة الإسبانية

 GOBIERNO DE ESPAÑA	MINISTERIO DE EDUCACIÓN, CULTURA Y DEPORTE	"Esta obra ha sido publicada con una subvención del Ministerio de Educación, Cultura y Deporte de España"
--	--	--

إلى القارئ^(١)

في الفترة التي قضيتها ناشطاً سياسياً، دعاني في عام ١٩٠٢ جمهورية مايوركا إلى اجتماع سياسي يدعو لمذاهبنا، أُقيم في ميدان توروس دي پالما^(٢).

بعد هذا التجمع الشعبي، عاد النواب الجمهوريون الآخرون الذين تحدثوا فيه إلى شبه الجزيرة. واعتبرتُ -بمجرد أن أُلقيت خطابي- أن نشاطي السياسي قد انتهى؛ من أجل التجول كمسافر بسيط في الجزيرة الجميلة، التي شهدت في العصور الوسطى النزعات التأملية للعظيم ريموندو لوليو الفيلسوف ورجل العمل والروائي، والتي كانت -في الثلث الأول من القرن التاسع عشر- بمثابة المكان المناسب لعلاقات الحب الرومانسية والناضجة إلى حدٍّ ما لجورج ساند وتشوبان.

جذب انتباهي -أكثر من الكهوف الشهيرة وأشجار الزيتون القديمة وسواحل مايوركا الزرقاء الأبدية- الأشخاص الشرفاء الذين يسكنونها، وتقسيمهم إلى طبقات لا تزال قائمة؛ بسبب عزلة الجزيرة بلا

(١) الكلمات المائلة كتبها المؤلف في الرواية باللهجة المايوركية والإنجليزية.

(٢) پالما: هي جزيرة مايوركا نفسها، فهي تُسمَّى پالما دى مايوركا.

شك، ومقاومة النزوع إلى المساواة مع إسبان اليباسة. لقد رأيت في حياة يهود مايوركا المتحولين -أو من يسمون بالتشويتا^(٣)- رواية مستقبلية. بعد ذلك، عند العودة إلى شبه الجزيرة، توقفت في إبيزا، وشعرت بالاهتمام نفسه بالعادات التقليدية لهؤلاء القوم من البحارة والمزارعين، بالكفاح المستمر خلال ١٥٠٠ عام مع جميع قراصنة البحر الأبيض المتوسط. وفكرت في توحيد حياة الجزيرتين المختلفتين للغاية، وفي الوقت نفسه الأصليتين بعمق، في رواية واحدة.

مرت ست سنوات دون أن أستطع تحقيق أمنيّتي.

كنت بحاجة إلى العودة إلى مايوركا وإبيزا لدراسة الأنواع والمناظر الطبيعية لعملي بشكل أكثر تفصيلاً، ولم أجد أبداً فرصة مناسبة لمثل هذه الرحلة. وأخيراً -في عام ١٩٠٨- عندما كنت أستعد لرحلتي الأولى إلى أمريكا، تمكنت من الهروب من مدريد لبضعة أسابيع، حيث عشت حياة تجول في كلتا الجزيرتين. زرت الجزء الأكبر من مايوركا، وكنت أنام ليالي عديدة في قرى صغيرة حيث سمحت لي عائلات الفلاحين بالإقامة مع كرم ضيافة ونزاهة ورعة. تجولت عبر جبال إبيزا، وأبحرت على طول سواحلها الحمراء والخضراء في قوارب قديمة مقدّمة في البحر، حيث يذهبون في بضعة أشهر من العام للصيد، وفي بضعة أشهر أخرى للتهرب.

(٣) التشويتا: أو الجوثتا، هم مجموعة اجتماعية دينية في جزيرة مايوركا، وهم أحفاد اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية طوعاً أو قسراً بعد طرد اليهود من إسبانيا والبرتغال في عام ١٤٩٢ وفي ١٤٩٧. وكانت الجماعة كاثوليكية اسمًا حتى القرن السابع عشر ومارست الشعائر اليهودية سرّاً، ومنذ القرن السابع عشر اندمجت الجماعة في التيار الكاثوليكي، ومزجوا تقاليدهم اليهودية مع الديانة المسيحية الكاثوليكية، والتي انبثق منها تيار مسيحية الجوثتا.

عندما عدت إلى مدريد -بوجهي الأسود بسبب الشمس، ويدي الصلبة بسبب المجذاف- بدأت في كتابة (الموتى يحكمون)، وكانت ملاحظاتي حاضرة جدًا وفي الوقت نفسه غزيرة جدًا، لدرجة أنني أنتجت الرواية دفعة واحدة -دون أدنى ضعف في ذاكرتي كروائي- في غضون شهرين أو ثلاثة.

كان هذا آخر عمل في الفترة الأولى من حياتي الأدبية. بمجرد نشره غادرت لإلقاء محاضرات في جمهوريتي الأرجنتين وتشيلي. تحول المحاضر -دون أن يعرف كيف- إلى مستعمر للصحراء، فارس لسهل باتاجونيا. لقد نسيت القلم مثل شيء تافه وعديم الفائدة؛ من أجل المعركة الشرسة مع وعورة أرض غير مزروعة منذ بداية الكوكب ومع مكر الرجال وجهلهم.

أمضيت ست سنوات دون كتابة رواية. رغبتُ في خلقها واقعياً. كنت روائياً للحقائق وليس للكلمات.

لكن الحياة تعود دائماً إلى قنواتها القديمة، وبعد هذه السنوات الست من التصلب الأدبي، وفي عام ١٩١٤، قبل بضعة أشهر من الحرب الكبرى، استأنفت في باريس عملي كروائي بالقلم والورق، وأنا أكتب (بحارو الأرجو).

ب. ب. أ.

١٩٢٣

الجزء الأول

استيقظ خايمي فيرر في التاسعة صباحًا. كانت مادو^(٤) أنطونيا -خادمة محترمة من زمن أمجاد العائلة، والتي حضرت ولادته- تتحرك من الساعة الثامنة صباحًا في الغرفة لإيقاظه. فتحت الألواح الخشبية المسوسة، الخالية من الزجاج، مُظهرةً له الضوء الضئيل الذي يخترق قائمة نافذة كبيرة عريضة. ثم رفعت الستائر الحمراء الدمشقية المزينة بشرائط من الذهب، والتي تغطي السرير المهيّب الواسع مثل خيمة، حيث وُلدت عدة أجيال من فيرر وتناسلت وماتت.

في الليلة السابقة، عندما عاد من الكازينو، أمرها خايمي وهو يصبر بشدة على إيقاظه مبكرًا. كان مدعوًا لتناول طعام الغداء في بايديموسا^(٥). «انهض!». كان صباحٌ من أفضل أيام الربيع؛ تزقزق الطيور في حديقة المنزل في جوقة على الأغصان المزهرة، التي يهزها النسيم الذي يرسله البحر المجاور من فوق السور.

(٤) مادو: تُستخدم في مايوركا قبل اسم النساء المتزوجات أو الأرامل ذوات الوضع الاقتصادي المتواضع.

(٥) بايديموسا: هي منطقة وبلدية إسبانية تقع في الجزء الغربي من جزيرة مايوركا، إحدى جزر البليار.

انصرفت الخادمة إلى المطبخ، عندما رأت السيد يقرر أخيراً النهوض من السرير. سار خايمي فيرر عارياً تقريباً عبر الغرفة، أمام النافذة المفتوحة، المنقسمة بعمود رقيق جداً. لم يكن خائفاً من أن يروه. كان المنزل المقابل قصيراً قديماً قدم منزله؛ منزل كبير به عدد قليل من التجويفات. يمتد أمام نافذته جدار ذو لون غير محدد، به قشور عميقة وبقايا لوحات قديمة، ولكنه قريب جداً بسبب ضيق الشارع، بحيث بدا أنه قادر على لمس يده.

لقد نام متأخراً، وهو قلق ومتوتر بسبب أهمية الفعل الذي على وشك القيام به في صباح اليوم التالي، وجعله دوار النوم القصير وغير الفعال يبحث شغولاً عن مداعبة الماء البارد المنعشة. أوماً فيرر -وهو يغتسل في حوض صغير وضيق وفقير - إيماءة حزينة: «آه! يا للبؤس!». كان يفتقر إلى أكثر وسائل الراحة بدائية في ذلك المنزل ذي الرفاهية الفخمة العتيقة التي لا يستطيع الأثرياء الحديثون ارتجالها. ويظهر الفقر أمام خطوته -بكل مضايقاته- في هذه القاعات التي تذكره بالديكورات الرائعة لبعض المسارح التي شاهدها في رحلاته عبر أوروبا.

كما لو كان غريباً يدخل غرفة نومه لأول مرة، يُعجب فيرر بهذه الغرفة الفخمة ذات السقف العالي. كان أجداده الأقوياء يبنون لعمالة. كل غرفة في القصر شاسعة مثل منزل حديث. تفتقر النافذة الكبيرة إلى الزجاج، مثل التجويفات الأخرى في المبنى، ويجب في الشتاء الحفاظ عليها جميعاً وألواحها مغلقة، مع عدم وجود ضوء أكثر مما يدخل من خلال القوائم، مغطاة بالزجاج المتصدع والمعتم بمرور الوقت. كشف

نقص السجاد عن بلاط من حجر رملي ناعم من مايوركا، مقطوع إلى مستطيلات دقيقة، كأنه خشب. لا تزال الأسقف تعرض الروعة القديمة للسقوف المبطنة بالخشب، بعضها داكن ذو سماكة اصطناعية، وبعضها الآخر بذهبٍ غير لامع قديم جعل أرباع شعار النبالة^(٦) الملون يبرز. اختفت الجدران العالية جدًا في بعض الغرف، المطلية ببساطة بالجير، تحت صفوف من اللوحات القديمة، وفي غرف أخرى خلف ستائر فخمة ألوانها زاهية لم يستطع الزمن إطفاءها. غرفة النوم مزينة بثمانى قطع قماش نُجود^(٧) كبيرة لها لون الورق الأخضر الجاف، تُصور حدائق وطرقًا واسعة ذات أشجار الخريف مع ساحة صغيرة أخيرة تمرح فيها الأيائل أو تنقط النوافير المعزولة في أحواض ثلاثية. عُلقَت فوق الأبواب صور إيطالية قديمة لها نعومة حلوة: أطفال أجسادهم كهربائية اللون يلعبون مع حملان مجمعة. وللإطار الذي يفصل غرفة النوم الفعلية عن بقية الحجرة لمحة مجيدة، مع أعمدة موجة تدعم قوسًا نصف دائري من أوراق الشجر المنحوتة، كلها ذهبية شاحبة وغير واضحة، كأنها مذبح. على طاولة من القرن الثامن عشر كانت هناك صورة متعددة الألوان للقديس خورخي وهو يدوس المغاربة تحت حصانه؛ وأبعد منه كان السرير، السرير المهيّب، نصب العائلة الموقر. بعض الكراسي القديمة - ذات الأذرع المنحنية واللون الأحمر المخملي - جرداء ومتهاكة، حتى أن بياض النسيج ظاهر، ممزوجة

(٦) شعار النبالة: يقصد هنا شعار علم إسبانيا المقسم إلى أربعة أرباع؛ كلٌّ منها يرمز إلى مملكة؛ زهرتا الرمان والزنبق، ودعامتان أو ذراعان.

(٧) قماش النُجود: قماش يُعلق على الجدران للزينة، عليه رسوم وصور.

بكراسيٍّ من القش وحوض الاغتسال الفقير. فكر الابن البكر مرةً أخرى: «آه! يا للبؤس!». بدا له بيت عائلة فيرر الكبير -بنوافذه الكبيرة الخالية من الزجاج، وقاعاته المليئة بقماش النُجود ومن دون سجاد، وأثاثه الفاخر الممزوج بأحقر الأمتعة- كأنه أمير مُفلس متباهٍ لا يزال يرتدي عباءةً براقّةً وتاجًا مجيدًا، ولكنه حافي القدمين ومن دون ثياب بيضاء.

كان مثل هذا القصر، عبارة عن صدفة مهية وفارغة، تضم مجد أجداده وثروتهم فيما مضى. كان بعضهم تجّارًا، وآخرون جنودًا، وجميعهم بحّارةً.

تترف شعارات عائلة فيرر على رايات صغيرة وأعلام لأكثر من خمسين سفينة ذات أشعة علوية -أفضل ما في البحرية المايوركية- حيث يذهبون -بعد تلقي الطلبات في ميناء بي- لبيع زيت الجزيرة في الإسكندرية، وشحن توابل الشرق وحريه وعطوره إلى موانئ آسيا الصغرى، ويتاجرون في البندقية وبيزا وجنوة، أو يغوصون في ضباب بحر الشمال، وهم يعبرون أعمدة هرقل؛ ليحملوا إلى فلاندر وجمهوريات التحالف التجاري فُخارَ موريسكيّ بلنسية، الذي يُسميه الأجانب مايوليكا؛ بسبب أصله المايوركي.

حوّل هذا الإبحار -المستمر عبر بحار تغزوها القراصنة- عائلة التجار الأثرياء إلى قبيلة من الجنود البواسل. كانت عائلة فيرر تقاتل أو تقيم تحالفات مع قراصنة أترك ويونانيين وجزائريين، ويرافقون أساطيلهم عبر البحار الشمالية لمواجهة القراصنة الإنجليز، حتى

أنه ذات مرة -عند مدخل مضيق البوسفور- اقتربت قوادسهم^(٨) من قوادس من جنوة الذين يحتكرون تجارة بيزنطة. ثم قامت سلالة جنود البحر هذه، عندما تقاعدت من الملاحة التجارية، بدفع جزية دموية من أجل أمن الممالك المسيحية والإيمان الكاثوليكي عن طريق دخول جزء من أبنائهم إلى الميليشيا المقدسة لفرسان مالطا.

ارتدى الأبناء الثانويون لبيت فيرر -في الوقت نفسه الذي يتلقون فيه ماء المعمودية- صليباً أبيض له ثمانية أطراف مُخَيَّطاً على حفازاتهم، رمز التطويبات^(٩) الثمانية، وعندما أصبحوا رجالاً قادوا قوادس الأخوية القتالية، وانتهت أيامهم كقادة مالطا الأثرياء، يسردون مآثرهم لأبناء بنات أخواتهم، ويقومون برعاية عيالتهم وجروحهم بسبب العبيد غير المخلصين الذين عاشوا معهم، على الرغم من نُذر العفة. يخرج الملوك المشهورون -الذين يمرون عبر مايوركا- من قصر أَلْمودينا^(١٠) لزيارة عائلة فيرر في قصرهم. كان بعضهم أميرات في أساطيل الملك؛ وآخرون حكام الأراضي البعيدة؛ وينام بعضهم النوم الأبدي في كاتدرائية لا فاليت مع مايوركيين آخرين مشهورين، وقد تأمل خايمي مقابرهم في إحدى زيارته إلى مالطا.

كان لا لونخا دي پالما^(١١) -وهو مبنى قوطي أنيق بجوار البحر-

(٨) قوادس: جمع قادس، وهي السفينة الشراعية الحربية ذات المجاديف. وتُسمَّى أيضاً بقرقور.

(٩) التطويبات: هي ثماني عبارات قالها يسوع في فاتحة عظة الجبل، وكل منها تبدأ بكلمة «طوبى» التي تعني «هنيئاً له».

(١٠) أَلْمودينا: القصر الملكي في مايوركا.

(١١) لا لونخا دي پالما: المقر الرئيس لنقابة التجار.

إقطاعية يملكها أسلافه لعدة قرون. بالنسبة إلى عائلة فيرر، كان كل شيء ترمي به القوادس عالية القلاع، والكوج^(١٢) ثقيلة الهيكل، وقوارب الاستكشاف الخفيفة، والساييتا^(١٣)، والبانفيل^(١٤)، والقوارب الصغيرة ذات المجاديف، والقوارب المسطحة لنقل الخيول، وغيرها من السفن في ذلك الوقت على الرصيف المجاور، وفي القاعة الضخمة ذات أعمدة لا لونخا، بجانب قواعد الأعمدة المتعرجة التي ضاعت في كآبة الأقبية، استقبل أجدادهم ملاحى الشرق كملوك، والذين يرتدون سراويل عريضة وقبعات قرمزية، رعاة من جنوة وبروفنس، مع معافطهم القصيرة التي تنتهي بأغطية رأس رهبانية، وقباطنة الجزيرة الشجعان بقلنسوات كتالونية حمراء. يرسل تجار البندقية إلى أصدقائهم في مايوركا أثنائاً من خشب الأبنوس مع تطعيمات دقيقة من العاج واللازورد، أو مرايات كبيرة ذات زجاج ضارب إلى الزرقة وإطار بلوري. ويجلب البحارة العائدون من إفريقيا جزءاً من ريش النعام وأنياباً من العاج، وكانت هذه الكنوز وغيرها تزين قاعات المنزل، التي تفوح منها روائح غامضة، هدية من المبعوثين الآسيويين.

كانت عائلة فيرر وسطاء بين الشرق والغرب لعدة قرون، يحولون مايوركا إلى مستودع للمنتجات الغربية، حيث انتشرت سفنهم لاحقاً في

(١٢) سفينة مبنية من الألواح الخشبية، بها صارية واحدة، ومزودة بشراع مربع الشكل، وقد ظهرت في القرن العاشر.

(١٣) الساييتا: قارب شرعي، أستخدم بشكل أساسي للقرصنة ونقل البضائع.

(١٤) البانفيل: قارب تجديد مخصص للتجارة، لا توجد به قلاع في الأمام أو المؤخرة، مجهز بحوالي مائة مجداف.

جميع أنحاء إسبانيا وفرنسا وهولندا. وتدفقت الثروات بشكلٍ رائعٍ إلى المنزل. في بعض المناسبات، قدمت عائلة فيرر قروضًا إلى الملوك.. لكن كل هذا لم يمنع خايمي -آخر أفراد العائلة- بعد أن فقد كل شيء كان يملكه في الكازينو في الليلة السابقة -بضع مئات من البيزيتا- من أن يقبل المال من توني كلابس المهرب، وهو رجل وقح بعقلٍ يقظ، وأكثر إخلاصًا ونزاهةً من أصدقائه؛ ليتمكن من الذهاب إلى بايديموسا في صباح اليوم التالي.

وبينما يمشط خايمي شعره، تأمل نفسه في مرآةٍ قديمة متصدعة وزجاجها ضبابيٍّ. ستة وثلاثون عامًا: لم يستطع الشكوى من مظهره. كان قبيحًا، بشاعته «عظيمة»، كما قالت امرأة كان لها بعض التأثير على حياته.

هذا القبح أعطاه بعض الإشباع الغرامي. قابلته ذات صيف في فندق في ميونيخ الأنسة ماري جوردون، الشقراء المثالية، ابنة حاكم أرخبيل إنجليزي في أوقيانوسيا، والتي تسافر عبر أوروبا بدون صحبة أخرى غير صحبة خادمة، وقامت منبهةً بأخذ الخطوات الأولى. كان الإسباني -حسب الأنسة- صورة حية من فاجنر عندما كان شابًا. وكان فيرر يتأمل -مبتسمًا بسبب الذكرى السارة- جبهته المحدبة، التي يبدو أنها تظلم بحزنها عينيه المتعجرفتين الصغيرتين الساخرتين، المظللتين بحاجبين كثيفين. كان الأنف حادًا ومعقوفًا، أنف جميع أفراد عائلة فيرر، الطيور الجارحة الشجاعة في عزلة البحر؛ الفم مُزدرٍ وغائر؛ والذقن بارزة مغطاة بشعر لحيته وشاربه الدقيق، غير الكثيف والناعم.

«آه، ماري الرائعة!» استمرت الغربية المبهجة عبر أوربًا ما يقرب من عام. أرادت هي - بسبب شدة حبها له لتشابهه مع المعلم - الزواج منه، وكانت تحدثه عن ملايين المُحافظ، وهي تمزج حماسهما الرومانسي مع اهتمامات عرقهما العملية. لكن انتهى فبرر إلى الفرار، قبل أن تتركه الإنجليزية بدورها من أجل قائد فرقة موسيقية يشبه معبودها.

«آه، يا للنساء!...» ورفع خايمي جسده كرجل قوي، منحنيًا قليلًا بسبب قامته الطويلة. لقد كَفَ منذ فترةٍ طويلة عن الاهتمام بهن. وكان يكشف الشيب الخفيف في لحيته والتجاعيدات الخفيفة في جلد زوايا عينيه عن إرهاق حياته التي عاشها - كما كان يقول - «بكل قوة». لكن حتى مع ذلك، كن يبحث عنه، وكان الحب هو الذي سيخرجه من وضعه المحزن.

عندما انتهى من إصلاح هندامه، خرج من غرفة النوم. اجتاز قاعة واسعة تُضيئها أشعة الشمس، التي تمر عبر قوائم ثلاثة نوافذ كبيرة مغلقة. كانت الأرضية في الظل، بينما تلمع الجدران مثل حديقة من الألوان الزاهية، مغطاة بمفروشات لا نهاية لها من صور ضعف الحجم الطبيعي. كانت مشاهد أسطورية وتوراتية؛ سيدات رائعات الجمال بأجسادٍ ضخمة ذات لونٍ وردي يظهرن أمام محاربين لونهن أحمر أو أخضر؛ أروقة ضخمة؛ قصور بها أكاليل زهور؛ سيوف عريضة مرفوعة، رؤوس على الأرض، حشود منالخيول ذات بطون بساقٍ مرفوعة: عالم كامل من الأساطير القديمة، لكن بحبرٍ نضر على الرغم من القرون، وبين شرائط زينة من التفاح وأوراق الخريف.

نظر فيرر وهو يمر بعينيه الساخرتين على هذه الثروات الموروثة عن أسلافه. لا شيء كان يخصه. لقد مر أكثر من عام منذ أن كانت هذه المفروشات والأشياء الموجودة في غرفة النوم وكل ما في المنزل ينتمي إلى بعض المرابين من بالما، الذين تركوها معلقة في المكان نفسه. كانوا ينتظرون وصول هاو ثري، سيدفع لهم بسخاء أكثر عندما يتخيل أنه سيحصل عليها مباشرة من مالكةها. لم يكن خايمي أكثر من مؤتمن، مهدد بالسجن في حالة خيانة ما في عهده.

عندما وصل إلى وسط الغرفة أخذ منعطفًا صغيرًا، بدافع العادة، لكنه ضحك وهو يرى أنه لا يوجد شيء يقطع طريقه. قبل شهر كانت لا تزال هناك طاولة إيطالية مصنوعة من رخام ثمين أحضرها القائد الشهير دون بريامو فيرر من إحدى بعثاته في القرصنة. أبعد من ذلك، لم يكن هناك أيضًا ما يصادفه. حَوْلَ فيرر مَجْمَرَةً ضَخْمَةً -من الفضة المنقوشة مثبتة على منصة من المعدن نفسه، مع صف دائري من الأقزام التي تدعم هذا النصب التذكاري- إلى نقود وباعها بالوزن. وذكرته المَجْمَرَة بسلسلة ذهبية، هدية من الإمبراطور كارلوس الخامس إلى أحد أسلافه، والتي بيعت قبل سنوات في مدريد أيضًا بالوزن، مع إضافة أوقيتين من الذهب بسبب العمل الفني والقَدَم. ثم وصله بشكل غامض نبأ بيع السلسلة في باريس مقابل مئة ألف فرنك. «آه، يا للبؤس!» لم يعد بإمكان الفرسان العيش في هذه الأوقات.

صادف بصره بهاء بعض الخزانات الضخمة المصنوعة في البندقية مثبتة فوق طاولات عتيقة تستند على أسود. بدت كأنها مصنوعة لعمالة،

مع عدد لا يُحصى من الأدراج العميقة، كانت أسطحهم الخارجية ذات طلاء متعدد الألوان تصور مشاهد أسطورية. كانت أربع قطع متحف رائعة: ذكرى روعة المنزل القديمة. لم تكن له أيضًا. لقد لقيت مصير المفروشات نفسه، وهناك كانت تنتظر مشتريًا. لم يكن فيرر أكثر من حاجب لمنزله. كما كانت الرسوم الإيطالية والإسبانية التي تزين جدران خزانيتين متجاورتين ملكًا للدائنين؛ والأثاث القديم ذو التحرير المحلوق أو الممزق، ولكن له نقوش جميلة؛ كل شيء، باختصار ما كان يحتفظ ببعض القيمة بين بقايا الميراث القديم.

خرج إلى غرفة الاستقبال، وهي غرفة واسعة في وسط المبنى، باردة وذات سقف عالٍ للغاية يتصل بالسلم. اكتسبت الجدران البيضاء لونًا عاجيًا ضاربًا إلى الصفرة بمرور السنين. كان يستلزم الأمر الميل بالرأس للخلف للوصول بالنظر إلى السقف ذي البطانة الخشبية السوداء. ساعدت النوافذ المفتوحة على طول الإفريز النوافذ الكبيرة الموجودة بالأسفل في إلقاء الضوء في هذه الغرفة الشاسعة والمتقشفة. أثاث قليل وبسيط: كراسي واسعة بذراعين، بمقاعد وظهر من جلد العجل مزينة بالمسامير؛ طاولات من البلوط بأرجل ملتوية؛ صناديق داكنة، ذات زخارف حديدية صدئة على خلفيات من الجوخ الأخضر الذي أكله العث. كان البياض المائل إلى الصفرة مرئيًا فقط، مثل خطوط شبكة، بين صفوف اللوحات القماشية، وعدة منها دون إطار.

وهناك مئات اللوحات، كلها سيئة ومثيرة للاهتمام في الوقت نفسه؛ رسومات مكلفة بتخليد أمجاد العائلة، رسمها فنانون إيطاليون

وإسبانيون قدامى عند مرورهم عبر مايوركا. بدا أن السحر التقليدي ينبعث من هذه اللوحات القماشية. لقد كان تاريخ البحر الأبيض المتوسط مكتوبًا بفُرُشٍ غير بارعة وساذجة: مواجهات القوادس، الهجمات على الحصون، والمعارك البحرية العظيمة التي يلفها الدخان، والتي تطفو فوق نُدفها رايات السفن وأبراج المؤخرة العالية، التي تتجعد على قممها الأعلام بصليب مالطا أو الهلال. كان الرجال يحاربون على أسطح السفن أو في الزوارق التي تطفو بجانبهم؛ كان البحر -الذي حمّرتَه الدماء أو نيران السفن- مرقطاً بمئات الرؤوس الصغيرة من الغرقى، الذين يكافحون بدورهم فوق الأمواج. اصطدمت مجموعة من الخوذات والقبعات على سفينتين راسيتين بأخرى من العمائم البيضاء والحمراء، وفوقها ارتفعت سيوف كبيرة ورماح وسيوف محدبة وفؤوس. وينقطع إطلاق النار من المدافع والمجانيق بألسنة دخان القتال الحمراء. في لوحاتٍ أخرى لا تقل قتامة، يمكن رؤية القلاع تلقي النيران عبر كُواتها، وأسفلها محاربون بصليب أبيض له ثمانية رؤوس على دروعهم، كبير تقريبًا بحجم الأبراج، ويضعون سلالهم عليها للتسلق من أجل الهجوم.

على أحد الجوانب، كانت اللوحات تحتوي على ملصقات بيضاء مع النهايات المطوية لشعار النبالة نفسه، وعليها قصة الحدث مكتوبة بأحرفٍ كبيرة معيوبة: مواجهات مظفرة بقوادس التركي العظيم أو مع قراصنة بيزا، جنوة وبيشكايا؛ الحروب في سردينيا؛ اعتداءات بجاية وتيدليز؛ وفي كل هذه المغامرات كان هناك فِبر الذي يقود المقاتلين أو

يتميز ببطولته، وبرز خاصةً القائد دون بريامو، البطل الشيطاني، الساخر قليل الورع، الذي كان مجد المنزل وعاره.

بالتناوب مع هذه المشاهد الحربية توجد صور عائلية. كانت في الجزء العلوي يلاصق صفًا من اللوحات القماشية القديمة للإنجيليين والشهداء، والتي كانت تشكل إفريزًا، تعرض تاريخ عائلة فيرر الأقدم، تجارًا وقورين من مايوركا مرسومين بعد عدة قرون من وفاتهم، رجالًا جادين ذوي أنوف يهودية وأعين حادة، مع مجوهرات على الصدر وقبعات عالية ذات مظهر شرقي. بعد ذلك يأتي رجال السلاح، وملاحون بالسيوف، بشعر قصير ومظهر جانبي لطائر جارح، كلهم يرتدون دروعًا من الفولاذ الأسود، وبعضهم يحمل صليب مالطا الأبيض. من صورة إلى صورة، أصبحت الوجوه أكثر دقة، دون أن تفقد الجبهة المحدبة والأنف المتعجرفة للعائلة. ترتفع ياقة القميص العريضة والفضفاضة ذات القماش الخشن، مع نموج مُنشى لكشكشة مجمعة؛ يتحول الدرع إلى سترة بلا أكمام من المخمل أو الحرير؛ اللحي السميكة الخشنة على طريقة الإمبراطور، إلى لحي قصيرة وشوارب منتصبة بمثابة إطار من خصلات الشعر الطويلة الناعمة.

من بين رجال الحرب القساة والسادة الأنيقين، تبرز الثياب السوداء لبعض رجال الدين ذوي الشوارب والذقون، يعرضون قلنسوات عالية ذات شرابة. بعضهم من كبار الشخصيات الكنسية في مالطا؛ بناءً على الشارات البيضاء التي تُزين صدورهم؛ وآخرون قضاة ديوان التفتيش الموقرون في مايوركا، وفقًا للأسطورة التي تُثني على حماسهم لأجل

الإيمان. بعد كل هؤلاء السادة السود ذوي الوجوه المهيبة والأعين الحادة، جاء عرض الشعر المستعار الأبيض لوجوه طفولية بسبب حلاقتها، وسترات طويلة بديعة من الحرير والذهب مزينة بشرائط وزخارف. كانوا أعضاء مجلس البلدية الدائمين لمدينة بالما؛ مراكيزيون فقدت عائلاتهم ألقابها مع روابط الزواج، ستندمج ألقابهم مع ألقاب أخرى لنبلأ شبه الجزيرة؛ حكام ومارشالات ونواب الملك في أمريكا ودول المحيطات، الذين تُثير أسماؤهم خيالاً لثروات رائعة؛ أنصار فيليب الخامس المتحمسون، الذين اضطروا إلى الفرار من مايوركا، آخر دعم لها بسبورغ^(١٥)، وقد كانوا يتفاخرون بلقب النبلاء الأسمى الشريف الذي أطلقه الأوباش المعادون.

وانتهاءً للعرض المجيد الذي كان بمستوى الأثاث تقريباً، كان آخر أفراد عائلة فيرر في بدايات القرن التاسع عشر ضباطاً في الأسطول البحري، مع سواف قصيرة، وتجميعات الشعر على جباههم، وياقات عالية مع مراسٍ ذهبية وربطات عنق صغيرة سوداء، الذين قاتلوا في رأس سان بيثنت وفي طرف الغار؛ وخلفهم والد جد خايمي، رجل عجوز بعينين حادتين وفم مزدري، والذي أبحر -عندما عاد فرناندو السابع من أسره في فرنسا- ليسجد عند قدميه في بلنسية، طالباً مع السادة العظماء الآخرين أن يُعيد العادات القديمة ويقضي على وباء الليبرالية الوليدة. لقد كان بطريقاً كثير النسل، بذر دمه في مناطق مختلفة من الجزيرة

(١٥) هابسبورغ: سلالة حكمت إسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ووصلت إسبانيا وقتها لذروة نفوذها وقوتها.

وهو يطارد الفلاحات، دون أن يفقد أهميته، وعندما قَبِلَ يده بعض الأبناء الشرعيين الذين يعيشون في بيته ويحملون لقبه، قال بصوتٍ مهيب: «جعلك الله قاضي ديوان تفتيش جيداً!».

من بين هذه الصور لأفراد عائلة فيرر البارزين كانت هناك بعض النساء. كن سيدات يرتدين هياكل متفخخة لحمل الفساتين، يملأن اللوحة القماشية بأكملها، تماماً مثل السيدات اللواتي رسمهن بيلاثكث. واحدة يخرج الجزء العلوي من جسدها الضعيف من غطاء المخمل المزهر لتنانيرها، مع وجه شاحب ومدبب وعقدة باهتة في شعرها القصير المجعد، كانت الأنثى البارزة في العائلة التي لقبوها «لا جريكا» بالحروف اليونانية بسبب حكمتها. كان عمه -الأخ^(١٦) إسبيريدون فيرر- رئيس دير القديس دومينجو، نابغة عظيمة في ذلك العصر، كان معلمها، وكان بإمكان لا جريكا الكتابة إلى مبعوثي الشرق بلغتهم الذين كانوا يحتفظوا بتجارة ضعيفة مع مايوركا.

صادف خايمي بنظره بضع لوحات قماشية أبعد -مسافة كانت تمثل مرور قرن- صورة أخرى لأنثى مشهورة في العائلة. كانت صبية ذات شعر أبيض مستعار، ترتدي زي امرأة، وتنورة ذات ثنيات منفوشة وفضفاضة لسيدات القرن الثامن عشر. كانت بجوار طاولة، بجانب إناء زهور، وفي يدها اليمنى الميته تحمل زهرة بحجم حبة طماطم، وهي تنظر أمامها بعيني دمية صغيرتين جامدتين. أطلقوا عليها «لا لاتينا». كانت بطاقة الصورة تتحدث -بأسلوب العصر المُبهرج- عن فطنتها

(١٦) الأخ: لقب للرهبان.

وعلمها، وينتهي بالحزن على وفاتها في عمر الحادية عشرة. كانت الإناث مثل براعم جافة على الجذع القوي لعائلة فيبر، مشاكسات ومفعمات بالحيوية. سرعان ما ذبلت الحكمة في هذه العائلة المكونة من البحارة والمحاربين، مثل نبات ينبت عن طريق الخطأ في مناخ معادٍ. قلقًا بشأن أفكاره في الليلة السابقة وبسبب رحلته القريبة إلى بايدموسا، توقف خايمي في غرفة الاستقبال يتأمل صور أسلافه. يا له من مجد! ويا له من غبار! ربما مر عشرون عامًا منذ أن صعدت قطعة قماش لطيفة على طول العائلة اللامعة لتنظيفها قليلًا. وغطت خيوط العنكبوت الأجداد الأكثر بُعدًا والمعارك الشهيرة. وفكر أن المقرضين لن يرغبوا في اقتناء متحف الأمجاد هذا، بحجة أنها لوحات رديئة! ولم يستطع نقل هذه الذكريات إلى بعض الأثرياء التواقين لخلق أصل شريف لأنفسهم!

عبر خايمي قاعة الاستقبال، ودخل غرف الجناح المقابل. كانت غرفًا ذات سقف أكثر انخفاضًا؛ ففوقها يوجد طابق ثانٍ، كان يشغله فيما مضى جد فيبر؛ غرف حديثة نسبيًا، مع أثاث قديم على الطراز الإمبراطوري، وعلى الجدران مطبوعات مزخرفة من الفترة الرومانسية تصور مغامرات أتالا وغراميات ماتيلدا ومآثر إرنان كورتيس. يمكن رؤية قديسين متعددي الألوان والصلبان العاجية على البطون المستريحة، بين أزهار القماش المغبرة، وتحت أجراس زجاجية. كانت تذكّر مجموعة من الأقواس الفولاذية، السهام والسكاكين بفرد من عائلة فيبر، قائد بارجة الملك، قام برحلة حول العالم في نهاية القرن الثامن عشر. كانت

الأصداف الأرجوانية، ومحارات البحر الضخمة، أحشاؤها من عرق اللؤلؤ، تزين الطاولات.

تبع ممرًا في طريقه إلى المطبخ، كان على جانب مُصَلَّى والذي كان مغلقًا لسنواتٍ عديدة، وفي الجانب الآخر باب الأرشيف، غرفة واسعة تطل نوافذها على الحديقة، يمر خايمي بها في طريق عودته من أسفاره، أمسيات كثيرة، ينبش في الملفات المحفوظة خلف الشبكة السلكية للأرفف القديمة. أطل على المطبخ، وهو عبارة عن ملحق ضخم حيث أُعدت في الماضي مآدب عائلة فيبر الشهيرة، المحاطة بالطيفيين، والمعطاة مع جميع الأصدقاء الذين جاءوا إلى الجزيرة. تبدو مادو أنطونيا أصغر حجمًا في هذه الغرفة الفسيحة، بجوار مدخنة الموقد الكبيرة، والتي يمكن أن تستوعب كومة هائلة من جذوع الأشجار، لتحمص عدة قطع في الوقت نفسه. يمكن أن تخدم مقاعد الموقد جماعة بأكملها. أظهرت النظافة السخيفة لهذا القسم عدم استخدامه. على الجدران، كانت المسامير المعقوفة الكبيرة تشي بغياب الأواني النحاسية التي كانت فيما مضى مجد هذا المطبخ المنعزل. كانت الخادمة العجوز تطبخ على موقد صغير بجوار المعجن الذي تعجن فيه الخبز.

صرخ خايمي في مادو أنطونيا لينبها بوجوده، ودخل إلى غرفة مجاورة، غرفة الطعام الصغيرة التي استخدمها أواخر أفراد عائلة فيبر، الذين قلَّت ثرواتهم، فهربوا من القاعة الكبرى حيث كانت تُقام الولائم القديمة.

هنا أيضًا كان أثر البؤس ملحوظًا. توجد الطاولة الطويلة مغطاة بقماش مشمع متصدع ذي بياض محير. الخزائن فارغة تقريبًا. وعندما تنكسر الأواني الخزفية القديمة، تُستبدل ببعضٍ من الأطباق والأباريق المصنوعة بشكلٍ فظٍّ. تبرز نافذتان مفتوحتان في الخلفية أجزاء من البحر الأزرق المضطرب، المختلج تحت نار الشمس. تتمايل ببطء فروع بعض أشجار النخيل في مستطيلاتها. أبعد.. برزت في الأفق الأجنحة البيضاء لمركب شراعي قادمًا ببطء نحو پالما، مثل طائر نورس متعب.

دخلت مادو أنطونيا، تاركةً على الطاولة فجنًا كبيرًا من القهوة باللبن ينبعث منه الدخان وشريحة كبيرة من الخبز مغطاة بالزبدة. هاجم خايمي فطوره بشرهة، وبينما يمضغ الخبز أبدى إيماءة استياء. أو مأت مادو بحركة من رأسها، وبدأت تتحدث بلغتها المايوركية.

- ناشف جدًا، أليس كذلك؟

لا يمكن مقارنة ذلك الخبز بلقائف الخبز التي كان يأكلها السيد في الكازينو؛ ولكنه ليس ذنبها. فكرت أنها عجنت العجين في اليوم السابق، لكن لم يكن لديها دقيق، وكانت تنتظر فلاح أرض فيرر ليحضر الضريبة. يا للناس الناكرة للجميل والنساء!

أصرت الخادمة العجوز على ازدرائها المزارع الفلاح لأرض فيرر، قطعة الأرض التي شكلت الثروة الأخيرة للمنزل. يدين الريفي بكل شيء لإحسان الأسرة، والآن -في اللحظات الصعبة- نسي أسياده الطيبين.

واصل خايمي المضغ، وأفكاره تدور حول أرض فيرر. لم تكن تلك ملكه أيضًا، على الرغم من إدراجه كمالك. كانت قطعة الأرض التي تقع في وسط الجزيرة -أفضل مزرعة ورثها عن والده، والتي تحمل اسم العائلة- مرهونة، وسيفقدها بين لحظةٍ وأخرى. يُستخدم الإيراد الزهيد القليل -حسب العادات المتبعة- لدفع جزء صغير من الفائدة على القروض فقط، والباقي يُضاف إلى مبلغ الدَّين. تبقى الفوائد الإضافية، المدفوعات العينية التي كان على الفلاح أن يدفعها له، تبعًا للعادات الموروثة، وبها كان هو ومادو أنطونيا يعولان نفسيهما، ضائعين في البيت الكبير الهائل الذي بُني لإيواء قبيلة. في عيد الميلاد وعيد الفصح يستقبل حقلين برفقة عشرات من طيور الفناء؛ في الخريف يستقبل خنزيرين مُسمنين جيدًا من أجل الذبح، وكل شهر يستقبل بيضًا وكمية من الطحين، إضافةً إلى فاكهة الموسم. مع هذه الفوائد الإضافية -التي يُستهلك بعضها في المنزل وبعضها الآخر يبيعه الخادمة- يتمكن خايمي وأنطونيا من إعالة نفسيهما في وحدة القصر، معزولين عن فضول العامة، مثل غريقين مفقودين في جزيرة صغيرة. كانت تتأخر العروض العينية في كل مرة أكثر. ويلعب الفلاح -مع تلك الأنانية الريفية النازعة إلى الهروب من المشكلة- دور الكسول، متجنبًا الوفاء بالتزاماته. كان يعلم أن الابن البكر لم يعد السيد الحقيقي للملكية فيرر، وفي كثير من الأحيان عندما يصل إلى المدينة بهدايا، كان ينعطف في طريقه، ويودعها في منازل الدائنين، والشخصيات المخيفة، وهو يتمنى أن تكون مناسبة لهم.

نظر خايمي حزيناً إلى الخادمة التي لا تزال منتصبه أمامه. إنها فلاحه عجوز لا تزال ترتدي لباس شعبها: صدرية داكنة، مع صف مزدوج من الأزرار على الأكمام؛ تنورة خفيفة ومشجرة، ويغطي رأسها حجاب أبيض اللون متصل بالرقبة والصدر، والذي أفلتت من أسفله الضفيرة السمكية - المستعارة شديدة السواد - تنتهي بشرائط طويلة من المخمل.

قال السيد باللغة نفسها:

- البؤس، مادو أنطونيا! الجميع يهرب من الفقراء، وفي أفضل يوم، إذا لم يجلب هذا المكار ما يدين لنا به، فسنضطر إلى أكل بعضنا، كما لو كنا غرقى.

ابتسمت المرأة العجوز: «السيد دائماً مبتهج». في هذا كان صورة حية من جده دون أوراثيو، الجاد إلى الأبد، بوجهٍ مخيف، لكنه يقول أشياء قليلة!

تابع خايمي متجاهلاً ابتهاج الخادمة:

- يجب أن ينتهي هذا. سينتهي هذا اليوم؛ قررت... اعرفى ذلك يا مادو، قبل أن ينتشر الخبر: سأتزوج.

شبكت الخادمة يديها بإخلاص للتعبير عن دهشتها، وحدقت في السقف. مسيح الدم المقدس^(١٧)! لقد حان الوقت.. كان يجب أن يفعل ذلك أولاً، ثم تأتي حالة المنزل. أثار فضولها، وسألت بلهفة فلاحه:

(١٧) مسيح الدم المقدس: هو نحت يمثل المسيح مصلوباً في كنيسة البشارة للسيدة العذراء، المعروفة باسم كنيسة الدم، في مدينة بالما دي مايوركا.

- هل هي ثرية؟

لم تفاجئها إيماء السيد الإيجابية. كان عليها أن تكون غنية. فقط امرأة تمتلك ثروة كبيرة يمكنها أن تطمح إلى الارتباط بآخر فرد من عائلة فيبر، الذين كانوا أبرز الرجال في الجزيرة.. وربما في العالم بأسره.

فكرت مادو المسكينة في مطبخها، وهي تملؤه في الحال في خيالها بأواني نحاسية لامعة مثل الذهب، وترى جميع المواقف مشتعلة، والفتيات بأكمام مطوية، وطرحاتهن خلفهن، وجدائلهن تطفو، وهي في المنتصف تجلس على كرسي بذراعين، وتصدر الأوامر مستنشقة رائحة القدور اللذيذة.

قالت المرأة العجوز، للحصول على مزيد من الأخبار من سيدها:

- يجب أن تكون شابة!

- نعم شابة؛ أصغر مني بكثير؛ صغيرة جدًا: حوالي اثنين وعشرين عامًا. ينقصني قليل لأكون والدها.

قامت مادو بإيماء احتجاج. كان دون خايمي أكثر الرجال وسامة في الجزيرة. قالت هي ذلك، لقد أعجبت به منذ الأيام التي كان يرتدي فيها السراويل القصيرة، وكانت تأخذه من يده في نزهة بين أشجار الصنوبر قريبًا من قلعة بيبر. كان من عائلة فيبر، من عائلة السادة المتغربين، وبهذا قيل كل شيء.

واستمرت في السؤال لانتزاع إيجاز من سيدها:

- وهل هي من بيت جيد؟ عائلة من السادة بلا شك؛ أفضل من في

الجزيرة... لكن لا: الآن أؤمن. ربما تكون من مدريد. أحد العلاقات
الغرامية وقتما كنتَ تعيش هناك.

ظل خايمي مترددًا للحظات شاحبًا، ثم قال بوقاحة لإخفاء إحراجة:
- لا، يا مادو... إنها تشويتا.

ضمت أنطونيا يديها، كما حدث قبل لحظات، تتضرع مرةً أخرى
لمسيح الدم المبجل في بالما؛ ولكن فجأةً اتسعت التجاعيد على وجهها
الأسمر، وانفجرت في الضحك... يا له من رجل مرح! مثل جده.
يقول أكثر الأشياء روعةً وخياليةً بجدية تخدع الناس. وهي -الحمقاء
المسكينة- تصدق مثل هذه الدعابات! ربما حتى الزفاف كان كذبة!

- لا. يا مادو. سأنزوج من تشويتا.. سأنزوج ابنة دون بنيتو بايس.
لذلك سأذهب إلى بايديموسا اليوم.

صوت خايمي المكتوم، وعينه المنخفضتان، واللهجة الخجولة
التي همس بها بهذه الكلمات، أزال كل شك لدى الخادمة. وظل فمها
مفتوحًا، وذراعاها خائرتان، دون أن تقوى على رفع يديها أو عينيها.

- سيدي! سيدي! سيدي!

كان من المستحيل قول مزيد. تعتقد أن الرعد قد هز المنزل القديم؛
وأن سحبًا كثيفًا مر للتو أمام الشمس وحجبها؛ حتى البحر أصبح
رصاصيًا، يتقدم في موجات هائجة مقابل السور. ثم رأت أن كل شيء
على حاله، وأنها -فقط- التي تأثرت بهذه الأخبار الهائلة، التي تستحق
الإخلال بالنظام الحالي.

- سيدي! سيدي! سيدي!

ركضت ممسكة الفنجان الكبير الفارغ وبقايا الخبز؛ راغبة في اللجوء إلى المطبخ في أسرع وقت ممكن. فبعد سماع مثل هذه الفظائع، أوحى إليها المنزل بالخوف. يجب أن يكون هناك شخص ما يسير في القاعات الموقرة على الجانب الآخر من المبنى؛ شخص ما لم تكن تعرف من هو، لكنه بالتأكيد استيقظ للتو من نوم قرون. هذا القصر تسكنه روح. عندما تظل المرأة العجوز وحيدة فيه، يصر الأثاث كأنه يتحدث مع بعضه، ويختلج القماش المعلق على الجدران بسبب وجهه الخفي، وتهتز في إحدى الزوايا القيثارة الذهبية لجدة دون خايمي، ولم تشعر أبدًا بالخوف؛ لأن عائلة فيرر أناس طيبون، بسطاء ولطفاء مع خدامهم. لكن الآن وبعد سماع مثل هذه الأمور.. تفكر بشيء من القلق في الصور التي تزين غرفة الاستقبال. كيف سيكون وجه هؤلاء السادة، لو وصل إليهم كلام ذريتهم؟!

هدأت مادو أنطونيا أخيرًا، وهي تشرب بقايا القهوة المعدة للسيد. لم تعد خائفة، لكنها شعرت بحزن عميق على مصير دون خايمي، كأنها رآته في خطرٍ مميت. يقضي على منزل عائلة فيرر بهذه الطريقة! وهل يمكن أن يتسامح الله مع مثل هذه الأشياء؟ تغلب بعض الاحتقار ناحية السيد على المودة القديمة للحظات. في النهاية، نسي العريد الدين والعادات الجيدة، حيث أهدر ما تبقى من ثروة منزله. ماذا سيقول أقاربه العظماء؟ كم كانت ستخجل خالته السيدة خوانا، تلك السيدة النبيلة -أقدس وأشرف من في الجزيرة- التي أطلقوا عليها -بعضهم بدافع

الاستهزاء، وبعضهم الآخر بدافع التبجيل المفرط - اسم «لا بابيسا»^(١٨)!
- وداعًا مادو. سأعود في الليل.

حيّت المرأة العجوز خايمي -الذي أطل برأسه ليودعها- بتذمر.
وعندما رأت نفسها وحدها، رفعت ذراعيها، تستغيث بمسيح الدم،
وبعداء لوقا، وشفيعة الجزيرة، وبالقدّيس بيثنتِ فرر الخارق، الذي
قام بعدة معجزات في أثناء وعظه في مايوركا. شخص آخر، قدّيس
خارق، لتجنب الأمر الفظيع الذي اعتزمه سيدها! يسقط حجر ضخّم من
الجبّال، ويعترض طريق بايديموسا إلى الأبد؛ فتقلب العربة، ويجلبون
دون خايمي يحمله أربعة رجال... كل ذلك قبل هذا العار!

عبر فيرر قاعة الاستقبال، فتح باب الدَّرَج، ونزل على الدرجات
الناعمة. بنى أجداده -مثل جميع النبلاء في الجزيرة- بعظمة. كان يحتل
السلم ومدخل البيت ثلث الطابق الأرضي من المنزل. نوع من الرواق
الخارجي على الطريقة الإيطالية، بخمسة أقواس تستند على أعمدة
رفيعة، ممتدة إلى أعلى الدرج، ينفّتح في نهايتها البابان اللذان يتيحان
الوصول إلى الجناحين العلويين للمبنى. في وسط درابزينها، الموجود
فوق بداية الدَّرَج، أمام باب الشارع، كان شعار النبالة الحجري لعائلة
فيرر، مع فانوس من الحديد المطاوع.

ينزل خايمي ناقرًا عصاه على درجات الحجر الرملي، أو يلمس
الجرار الكبيرة المطلية بالورنيش التي تزين صحن الدَّرَج، فتُعِيد الضربة

(١٨) لا بابيسا: مشتقة من البابا (المنصب الكنسي)، وهي امرأة تولت البابوية في الأساطير.

بجمهورية جرسًا. يهتز الدرايزين الحديدي المتأكسد بفعل السنين والمفتت إلى قشور صدئة تقريبًا من تجويفه مع صوت وقع الأقدام.

توقف فبرر عند وصوله إلى مدخل البيت. القرار المتطرف الذي تبناه، والذي سيؤثر إلى الأبد على مصير اسمه، جعله ينظر بفضول إلى الأماكن نفسها التي عبرها سابقًا بلا مبالاة.

لم يكن الازدهار القديم ملحوظًا في أي مكان في المبنى كما هو الحال هنا. مدخل البيت ضخم مثل ميدان، يمكن أن يستوعب أكثر من دزينة عربات وسرب كامل من الفرسان.

اثنا عشر عمودًا مستديرًا إلى حدٍّ ما من رخام الجزيرة بندقي اللون، تدعم الأقواس الحجرية المقطوعة إلى قطع، دون أي طلاء، والممتد فوقها سقف من العوارض السوداء. كان الرصيف مصنوعًا من الحصى، ونما الطحلب بينهما بسبب الرطوبة. انتشرت برودة الخراب عبر هذا المدخل الهائل والمهجور. عبرت قطعة مدخل البيت، وخرجت من الفتحة الموجودة في باب الإسطبلات القديمة المتآكل؛ لتختفي في السرايب المهجورة التي تحتفظ بالمحاصيل في الماضي. من جهة، هناك بئر من الفترة نفسها التي تم فيها بناء القصر، حفرة محفورة في الصخر، مع حافة حجرية متآكلة بفعل الزمن، وبرج أجراس من الحديد يعمل كمطرقة. ينمو اللبلاب في مجموعات نضرة بين حواف الحجر المصقول. عندما كان خايمي طفلًا، كثيرًا ما أطل ليتأمل نفسه هناك في الأسفل، في الحديقة الدائرية والمضيئة من مياه الهادئة.

كان الشارع مقفّرًا. وهناك في نهايته -بجانب الحوائط الترابية

لحديقة عائلة فيرر - سور المدينة، وقد فُتحت في هذا السور بوابة ذات قضبان خشبية في قوسها، تشبه أسنان فم سمكة ضخمة. تهتز -في خلفية هذا الفم - مياه الخليج الخضراء والمضيئة.

سار خايمي بضع خطوات على طول حجارة الشارع الضاربة إلى الزرقة، دون أرصفة، ثم توقف ليتأمل منزله. كان مجرد بقايا صغيرة من الماضي. يحتل قصر عائلة فيرر القديم مبنى بأكمله، لكنه أصبح أصغر بمرور القرون وأزمات العائلة. الآن أصبح جزء منه مقر إقامة للراهبات، وقد حصل بعض الأثرياء على كسراتٍ أخرى، الذين شوهاوا بالشرفات الحديثة وحدة المبنى الأصلية، والتي يشهد عليها الخط الموحد من الأفاريز والأسقف. اضطر بعض عائلة فيرر أنفسهم - المحصنون في جزء من القصر يطل على الحديقة والبحر - إلى التخلي عن الطوابق الأرضية -لزيادة دخلهم - لأمناء المستودعات وأصحاب المصانع الصغار. بجانب البوابة الفخمة، خلف بعض الألواح الزجاجية الملونة، هناك بعض الفتيات يعملن في كي الملابس البيضاء، واللاتي حينن دون خايمي بابتسامة محترمة. وقد ظل الأخير ساكنًا يتأمل البيت القديم.

ما أجمله، على الرغم من اقتطاعه وقدمه!

كان حجر الأساس -المثقوب والمقوس إلى الداخل بسبب احتكاك الأشخاص والعربات - مُقسَّمًا إلى عدة فتحات ذات شبك سلكي بمساواة الأرض. كان الجزء السفلي من القصر متكلاً متضرراً مغبراً مثل الأقدام التي سارت لقرون.

بدءاً من الطابق الوسيط -وهو طابق ذات مدخل منفصل - أُجّر

لصاحب مخزن أدوية، وكانت تبدأ روعة الواجهة الفخمة تتكشف. كانت تُظهر ثلاث نوافذ كبيرة على مستوى قوس البوابة، مُقسمة بسبب أعمدة مزدوجة، وإطاراتها المصنوعة من الرخام الأسود المشغول بدقة. تتسلق الأشواك الحجرية على الأعمدة التي تدعم الأفاريز، وتبرز عليها الرصائع الثلاثة الأخيرة الكبيرة: تلك التي في المنتصف مع تمثال نصفي للإمبراطور عليه نقش الإمبراطور دومينوس كارلوس ١٥٤١، وهو تذكير بزيارته إلى مايوركا من أجل رحلة استكشافية مؤسفة إلى الجزائر؛ أما اللتان على الجانبين فتعرضان أذرع عائلة فيرر، مستندتين على أسماك برؤوس رجال ملتحية. تتسلق أطواق من المراسي والدلافين قوائم النوافذ الكبيرة وأفاريزها في الطابق الأول، وهي شهادة على أمجاد هذه العائلة من الملاحين. في نهايتها هناك أصداف ضخمة مفتوحة. في الجزء العلوي من الواجهة يمتد صف متراص من النوافذ الصغيرة ذات الزخارف القوطية، بعضها مسدود، وبعضها الآخر مفتوح لإعطاء الضوء والهواء للعليات، وفوقها أفاريز السطح العظيمة، أفاريز السطح الضخمة، مثل الموجودة في قصور مايوركا فقط، الممتدة حتى منتصف الشارع مُعشقة بخشبٍ منحوت، مُسود بمرور الوقت ومدعوم بجراجيل^(١٩) قوية.

تمتد شرائح من الخشب الفاسد بمسامير ومشابك حديدية صدئة على طول الواجهة، مُشكّلة مربعًا. كانت بقايا الزخارف العظيمة التي كان المنزل يُحيي بها بعض الأعياد في أزمنة روعته.

(١٩) الجراجيل: جمع جرجول، وهو عبارة عن جروتيسك (مخلوق قبيح) منحوت أو مصنوع مع صنبور مصمم لنقل مياه السطح بعيدًا عن جانب المبنى. تُشبه المزراب.

بدا خايمي راضيًا من هذا الفحص. لا يزال قصر أجداده جميلًا، على الرغم من النواذ الخالية من الزجاج، والأتربة وأنسجة العنكبوت المتراكمة في الفجوات، والشقوق الكبيرة التي فتحتها القرون في الجصّ. عندما يتزوج وتنتقل ثروة بايس إلى يديه، سينذهل الجميع من بعث عائلة فيرر الرائعة. وهل لا يزال بعضهم يشعر بالفضيحة من قراره ويشعر هو ببعض التحرج؟ هيا!

توجه نحو بورن، وهو شارع واسع يقع في وسط بالمّا، مجرى قديم قسم المدينة فيما مضى إلى مدينتين صغيرتين وفتتين عدوتين: منزل صعودًا ومنزل هبوطًا. هناك سيجد سيارة ستأخذه إلى بايدموسا.

عند دخول بورن، جذب انتباهه جمود عدد من المارة الذين يشاهدون تحت ظلال الأشجار الوارفة بعض الفلاحين وهم يقفون أمام واجهة متجر زجاجية. ميز فيرر أزياءهم، المختلفة عن تلك التي يرتديها فلاحو الجزيرة. كانوا من إبيزا... آه، إبيزا! استحضر اسم هذه الجزيرة ذكرى عام بعيد من مراهقته قضاه هناك. عند رؤية هؤلاء الأشخاص الذين جعلوا المايوركيين يتسمون كأنهم غرباء، ابتسم خايمي أيضًا، وهو ينظر باهتمام إلى أزيائهم وهيئاتهم.

كانوا بلا شك أبا مع ابنته وابنه. يرتدي الفلاح حذاءً من الكتان أبيض، يسقط فوقه طرف البنطال المخملي الأزرق الواسع. وربط سترته التي على شكل بلوزة على الصدر بدبوس، وترك قميصه وحزامه ظاهرين. تركز طرحة نسائية طويلة داكنة على كتفيه مثل الشال، ولاستكمال هذا الزي شبه الأنثوي، الذي يتناقض مع ملامحه القاسية

السمراء، يرتدي تحت قبعته منديلاً معقوداً أسفل ذقنه، وأطرافه تتدلى على ظهره. يرتدي الابن -الذي بدا في الرابعة عشرة من عمره- مثله، البنطال ضيق الساق الواسع من أطرافه مثله، لكن بدون شال أو منديل. تتعلق ربطة وردية اللون على صدره مثل ربطة عنق، ويطل غصن صغير من الأعشاب من إحدى أذنيه، وأطلقت في حرية القبعة ذات الشريط المطرز بالزهور الملقى على مؤخرة العنق موجة من الشعر المجعد تتساقط على الوجه الأسمر، النحيل الماكر، الذي يحركه ضوء العينين الأفريقيتين شديديتي السواد.

جذبت الفتاة أكبر قدر من الانتباه، مع تنورتها الخضراء ذات الطيات الصغيرة، والتي يمكن تخمين وجود تنانير أخرى تحتها، كرة منتفخة من عدة أغطية بدت أنها تجعل القدمين الملفوفتين بحذاء أبيض من الكتان أنحف وأرشق. يخفي صدرها معالمه البارزة تحت شال صغير أصفر مزين بزهور حمراء. ومنه تظهر أكمام مخملية بلون مختلف عن الصدرية، مزينة بصف مزدوج من أزوار بها شغل تخريم، عمل صاغة التشويتا. سلسلة ثلاثية من الذهب المبهر، يعلوها صليب، تقسم صدرها، لكن بحلقات ضخمة لدرجة أنها لو لم تكن مجوفة لكان أرقها ثقلها. انفصل شعرها الأسود في خصلتين على جبينها، وفُقد تحت منديل أبيض معقود حول ذقنها، ليعود ويظهر من الخلف على شكل جديلة طويلة وهائلة، مزينة بشرائط متعددة الألوان تلامس حافة تنورتها.

بقيت الفتاة -التي تحمل سلة صغيرة في ذراعها- بلا حراك على حافة الرصيف، مُعجبة بالبيوت العالية وشرفات المقاهي. كانت بيضاء

وردية، بلا خشونة نحاسية وصلابة إناث الريف. كانت في ملامحها رقة راهبة أرسقراطية جيدة العناية، ونعومة شاحبة، ينعشها الانعكاس المضيء لأسنانها وبريق عينيها الخجولتين تحت المندبل مثل غطاء القبة الرهبانية الصغيرة.

اقترب خايمي -بدافع الفضول الفطري- من الأب والابن، اللذين أدارا ظهرهما للفتاة، وانغمسا في التأمل في واجهة المتجر الزجاجية. كان متجر أسلحة. يفحص الإبيزيان جميع المعروضات واحداً تلو الآخر، بأعينٍ متقدة وإيماءات ورعة، كأنهما يعبدان أصناماً مذهلة. قدم الصبي رأسه المغربي الصغير، كأنه يريد إدخاله من خلال الزجاج.

- فلو كساس... يا أبي، فلو كساس (٢٠)!

صرخ بدهشة من وجد صديقاً غير متوقع، وهو يشير إلى والده على بعض مسدسات لوفوشو.

لكن إعجاب الاثنين كان بالأسلحة المجهولة، والتي بدت لهما أعمالاً فنية رائعة: للبنادق التي ليس لها مفاتيح مرئية، والبنادق القصيرة التكرارية ومسدسات ذات مخزن، التي يمكن أن تطلق عدة طلقات فوراً. ما الذي يخترعه الرجال؟! ما الذي يستمتع به الأغنياء؟! بدت لهما تلك الأسلحة الثابتة كائنات حية، بروح شريرة وبقوة لا حدود لها. لا بد أنها تقتل بمفردها، دون أن يتحمل سيدهم عناء التصويب.

صورة فيرر المنعكسة في الزجاج جعلت الأب يدير رأسه بسرعة.

(٢٠) يقصد هنا مسدسات لوفوشو، لكنه ينطقها بلهجته الإبيزية.

- دون تشاوم! آه، دون تشاوم!

كان هذا طيش المفاجأة وفرحته العظيمة، وكاد أن يسقط على ركبتيه، وهو يمسك بيد فيبر، بينما يتكلم في الوقت نفسه مرتعشاً. لقد كانوا يتسلون في بورن للذهاب إلى منزل دون خايمي عندما ينهض الأخير. كان يعلم فعلاً أن السادة يستلقيان إلى وقت متأخر. يا لها من سعادة لرؤيته! هنا أيها الفتیان، وهما يلقيان نظرة فاحصة على الرجل! كان دون خايمي.. كان السيد. لم يره منذ عشر سنوات، لكنه سيعرفه من بين ألف شخص.

لم يتمكن فيبر -المشتت بسبب حماسة الفلاح الودودة وفضول طفليه المذهبين اللذين كانا منتصبان أمامه- من تنظيم ذكرياته. خمن الرجل الصالح هذا النسيان في نظرته المترددة. ألم يتعرف عليه حقاً؟ «بيب عربي، من إبيزا»... لكن هذا لم يقل كثيراً؛ لأنه لا يوجد سوى ستة ألقاب أو سبعة في الجزيرة، وكان عربي ربع سكانها. سيشرح بشكل أفضل. «بيب من بيت المايوركي».

ابتسم فيبر. «آه، بيت المايوركي!». عقار فقير في إبيزا، حيث أمضى عامًا في صباه: الميراث الوحيد من والدته. لم يعد بيت المايوركي له منذ اثني عشر عامًا. لقد باعه إلى بيب، الذي زرع آباؤه وأجداده المزرعة.

كان هذا في وقت لا يزال لديه المال. ولكن ما فائدة تلك الأرض الواقعة على جزيرة نائية والتي لن يعود إليها أبدًا؟! وبعقريه رجل نبيل عظيم، تركها لبيب بسعر منخفض، مستفيدًا من إيجار تقليدي، ومانحًا فترات طويلة للدفع؛ بمبالغ -عندما تأتي لاحقًا أوقات الأزمات- تمثل

بهجة غير متوقعة بالنسبة له. قبل عدة سنوات سدد ييب ديونه، ومع ذلك لا يزال هؤلاء الأشخاص الطيبون يطلقون عليه لقب سيد، وعند رؤيته الآن يشعرون بالتأثير الذي يولد في وجود كائن متفوق.

عرّف ييب عربي عائلته. كانت الصبية الأكبر سنًا اسمها مارجاليدا.. امرأة حقيقية، على الرغم من أنها كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا فقط. وكان الصبي -الذي أصبح رجلًا تقريبًا- في الثالثة عشرة من عمره. أراد أن يعمل في الأرض مثل والده وأجداده، لكنه اختار له المدرسة الإكليريكية بإييزا؛ لأنه ماهر في الأمور الأدبية. احتفظ بأرضه لصبي صالح ومجتهد يتزوج من مارجاليدا. يريد لها كثير من فعلاً في الجزيرة، وبمجرد عودتهم سيبدأ موسم الاحتفالات والخطوبة التقليدية؛ حتى تتمكن من اختيار زوج.

دُعي ابنه بيت إلى مناصب رفيعة: كان سيصبح راهبًا، وبعد أن غنى القداس، سيدخل كتيبة أو سيبهر باتجاه أمريكا، كما فعل سكان إييزا الآخرون الذين يجمعون كثيرًا من المال هناك، ويرسلونه إلى والديهم لشراء أراضٍ في الجزيرة.

«أوه، دون خايمي، وكيف يمر الوقت؟!». لقد رأى السيد وهو طفل تقريبًا، عندما أمضى صيف مع والدته في بيت المايوركي. علمه ييب أن يتعامل مع البندقية وأن يصطاد الطيور الأولى.. «هل تذكر حضرتك؟»، كان حينها على وشك الزواج؛ ووالداه على قيد الحياة. ثم التقيا مرة واحدة فقط في بالما؛ لبيع العقار -وهي خدمة عظيمة لم ينسها أبدًا. والآن، عندما ظهر مرة أخرى، كان رجلًا عجوزًا تقريبًا، وله أبناء في طوله.

تظهر أسنان الفلاح القوية وهو يشرح رحلته، مع ابتسامات مكرّ ساذج. عبث حقيقي، سيتحدث عنه الناس في إبيزا فترةً طويلة! لقد كان دائماً راحلاً وجريئاً: عادة سيئة اكتسبها منذ الوقت الذي كان فيه جندياً. دعاه صاحب سفينة شراعية صغيرة على سبيل المزاح، كان صديقاً مقرباً له، يحمل حمولة إلى مايوركا. لكن معه لا تُجدي النكات؛ فما يفكر فيه يفعله على الفور! لم يذهب الأولاد إلى مايوركا؛ ففي أبرشية سان خوسيه بأكملها -التي يتبعها- هناك أقل من اثني عشر شخصاً يعرفون العاصمة. يذهب كثيرون إلى أمريكا؛ أحدهم ذهب إلى أستراليا. يتحدث بعض الجيران عن رحلاتهم إلى الجزائر في مراكب المهربين الشراعية؛ لكن لم يذهب أحد إلى مايوركا، ولسبب ما. «إنهم لا يريدوننا، دون خايمي: إنهم ينظرون إلينا كحيوانات غريبة، يعتقدون أننا متوحشون، كأننا لم نكن جميعاً أبناء الرب...». وهناك كان هو مع طفليه، متحملاً فضول الناس منذ الصباح، كأنهم مغاربة. عشر ساعات من الإبحار في بحرٍ رائع؛ تحمل الصبية الطعام لثلاثتهم في السلة. سيغادرون فجر اليوم التالي، لكنه أراد التحدث إلى سيده أولاً. فعليهما التباحث في التجارة.

قام خايمي بعمل إيماءة استغراب، مع إعطاء مزيد من الاهتمام لكلمات ييب. شرح الأخير خجلاً متلعثماً في كلامه. كان اللوز أفضل ثروة في بيت الماريوركي. كان الحصاد في العام السابق جيداً، وهذا العام لم يكن سيئاً. بيع بسعرٍ جيدٍ للسادة الذين قاموا بشحنه إلى پالما وبرشلونة. يزرع كل حقوله تقريباً بأشجار اللوز، والآن يفكر في تفكيك

وإزالة الحجارة من بعض أراضي السيد، وزراعة القمح فيها، وهو الشيء الوحيد المطلوب لاستهلاك الأسرة.

لم يُخف فبرر دهشته. «ما تلك الأراضي؟ لكن هل بقي أي شيء في إبيزا؟». ابتسم ييب. «لم تكن أرضاً تماماً: كانت صخرة، نتوء صخور متقدمة على البحر، ولكن يمكن استغلال جزء من أرضها الذي يُكوّن بعض المصاطب على منحدرها. في الأعلى كان برج القراصنة، ألا تتذكر، يا سيدي؟». تحصين من زمن القراصنة، صعد إليه دون خايمي عدة مرات عندما كان طفلاً، صارخاً صرخات المعركة، مع وجود عصا شجرة الأبله في يده، ويصدر الأوامر للهجوم على جيش وهمي.

ابتسم السيد -الذي صدق للحظة اكتشاف مزرعة منسية، كانت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يكون مالكة الحقيقي- بحزن. «آه، برج القراصنة!»، لقد تذكره. صخرة من الحجر الجيري، متقدم على الساحل، نمت في فجواته نباتات برية، مأوى وطعام للأناب. كان الحصن الحجري القديم خراباً يتداعى ببطء تحت هجمات الزمن وهبات البحر. كانت تسقط الأحجار المنحوتة من تجويفه؛ تأكلت أطراف شرفات القلعة. عندما بيع بيت المايوركي، تم استبعاد البرج من العقد، ربما بسبب النسيان، وبسبب عدم جدواه. يمكن أن يفعل ييب ما يحلو له: لن يعود أبداً إلى ذلك المكان المنسي من فترة صباه.

وبينما يحاول الفلاح التحدث عن أجره المستقبلي، قاطعه دون خايمي بلفتة من السيد العظيم. ثم نظر إلى الفتاة. «جميلة جداً؛ كانت تبدو كأنها أنسة متنكرة؛ كان على الفتيان في الجزيرة ملاحقتها بجنون».

ابتسم الأب فخورًا ومحرَجًا بهذه الإطراءات. «مرحبًا، يا فتاة! كيف تُقال؟».

كان يتحدث إليها كأنها طفلة، وهي -بعينين منخفضتين، ووجه ملوّن بلهب من الدم- ممسكة طرف مئزرها بيدها اليمنى، تمتمت مرتجفةً بضع كلمات بالإنجليزية: «لا؛ أنا لست جميلةً. خادمك...».

أنهى فبرر المقابلة، وأمر بيب وذويه بالذهاب إلى منزله. يعرف الفلاح مادو أنطونيا منذ وقتٍ طويل، وستكون المرأة العجوز سعيدة جدًا برؤيته. سيأكلون معها ما لديها. سيراهم في المساء، عندما يعود من بايدموسا. «وداعًا بيب! وداعا يا فتان!».

وأومأ إلى سائق يجلس على مقعد عربة مايوركية، مركبة خفيفة للغاية، مثبتة على أربع عجلات رفيعة، مع مظلة مبهجة من قماش أبيض غليظ.



ندم فبرر - عندما خرج من پالما إلى وسط الأطيان الربيعية - على حياته الحالية. لم يغادر المدينة منذ عام. يقضي فترات المساء في مقاهي بورن، والليالي في صالة الألعاب في الكازينو.

لن يخطر بباله أبداً أن يطل برأسه خارج پالما ليرى الريف الأخضر الغض بسواقيه الهامسة، والسماء ذات الزرقة الناعمة التي تطفو فيها جزر صغيرة من التنف البيضاء، والتلال ذات الخضرة الداكنة مع طواحينها الصغيرة تتحرك على قممها، وسلاسل الجبال الوعرة وردية اللون تغلق القاع؛ وكل المناظر الطبيعية المبتسمة والصاخبة التي أذهلت الملاحين القدامى، التي جعلتهم يطلقون على مايوركا الجزيرة السعيدة! لكن بفضل زواجه وعندما يحصل على ثروة ويتمكن من استرداد ملكية فبرر الجميلة، سيقضي الجزء الأكبر من السنة - مثل أسلافه - وهو يعيش الحياة الريفية النافعة لسيد نبيل سخي ومحترم. كانت العربية - ذات الحصانين اللذين يركضان بأقصى سرعة - تخمش صفًا من الفلاحين العائدين من المدينة، وتتركهم على جانب الطريق. كن نساء سمرات ممشوقات يرتدين فوق ضفائرهن وطرحهن البيضاء قبعات عريضة من القش مع شرائط معلقة وباقات من الزهور البرية؛ ورجالاً يرتدون نسيجاً صفيقاً من القطن المخطط - يُسمّى نسيج مايوركا - مع قبعة من اللباد رُميت إلى الخلف مثل هالة سوداء أو رمادية حول وجوههم الحليقة.

يتذكر فيرر انعطافات هذا الطريق -التي لم يمر به منذ بضع سنوات- مثل أجنبي عاد إلى الجزيرة بعد زيارة بعيدة. أبعد من ذلك تشعب الطريق يتجه فرع منه إلى بايدموسا والآخر إلى سويير. أوه، سويير! الطفولة المنسية التي جاءت فجأة في ذاكرته! في كل عام، في مثل تلك العربة، تبدأ عائلة فيرر رحلتها إلى سويير، حيث يمتلكون منزلاً قديماً، له مدخل واسع، منزل القمر، سُمي هكذا بسبب نصف كرة من الحجر -لها عينان وأنف- تزين أعلى البوابة، تمثل نجم الليل.

كان دائماً في بدايات شهر مايو. يطلق فيرر الصغير -عندما تعبر العربة مضيقاً في أعلى سلسلة الجبال- صرخة فرح متأملاً عند قدميه وادي سويير وحديقة إسبيريدس في الجزيرة. الجبال، المظلمة بغابات الصنوبر والمنقطة بمنازل صغيرة بيضاء، كانت قممها ملفوفة بعمائم من الأبخرة. وهناك في الأسفل -حول المدينة الصغيرة الممتدة عبر الوادي حتى البحر غير المرئي- بساتين البرتقال. ينفجر الربيع على هذه الأرض السعيدة مع انفجار الألوان والعطور. وتنمو النباتات البرية بين الصخور العالية المتوجة بالزهور؛ وتخفي جذوع الأشجار مغطاة بالخضرة الملتوية منازل الفلاحين الفقيرة ببؤسهم المتداعي تحت ملاءات من الورود المتسلقة. تحضر العائلات الريفية من جميع البلدات المحيطة إلى احتفال سويير: النساء اللواتي يرتدين الطرح البيضاء، وأغطية رأس ثقيلة وأزراراً ذهبية على الأكمام؛ الرجال بصدریات بديعة من الجوخ واللباد بشرائط ملونة. ويغني الناي وهو ينادي إلى الرقص؛ وتعبر كؤوس عرق الجزيرة الحلو ونييز بانياالبوفار من يدٍ إلى أخرى.

إنها فرحة السلام بعد ألف عام من الحرب والقرصنة مع شعوب البحر المتوسط الخائنة: إحياء مبهج بالنصر الذي حققه فلاحو سويير على أسطول من القراصنة الأتراك في القرن السادس عشر.

في الميناء، يتظاهر الصيادون - وهم متنكرون في زي مسلمين ومحاربين مسيحيين - بالإصابة بالطلقات وطعنات السيوف على قواربهم الضعيفة في معركة بحرية، أو يطارد بعضهم بعضاً على طول الطرق القريبة من الساحل. ويُقام في الكنيسة احتفال لإحياء ذكرى الانتصار المعجزة. ويرتجف خايمي - وهو يجلس بجانب والدته في مكانٍ فخري - بعاطفةٍ وهو يستمع إلى الواعظ، تماماً كأنه يقرأ رواية مثيرة للاهتمام في مكتبة جده في پالما في الطابق الثاني من المنزل.

حمل سكان الجوار السلاح مع سكان أَلارو وبونيولا^(٢١)، عندما علموا عن طريق قارب من إبيزا أن اثنين وعشرين مركباً شراعياً تركياً مع بعض القوادس تسير إلى سويير؛ أغنى مدينة في الجزيرة. ألف وسبعون من الأتراك والأفارقة، أسوأ ما في القرصنة، اجتذبتهم ثروة الشعب، وأكثر من ذلك بسبب الرغبة في سرقة أحد أديرة الراهبات، حيث تعيش شابات جميلات من أسر مشهورة منعزلات عن العالم. مقسمين إلى طابورين، سار أحدهما ضد عُصبة من المسيحيين قد خرجوا لملاقاتهم، بينما تسلل الآخر - حيث قام بالالتفاف - إلى المدينة وأسر الفتيات والشباب وسرق الكنائس وقتل الكهنة. شعر

(٢١) أَلارو وبونيولا: بلديتان تقعان في منطقة جزر البليار في شرق إسبانيا.

المسيحيون بالقلق من وضعهم. في المقابل، تقدم ألف تركي؛ وخلفهم المدينة المستسلمة للنهب، عائلاتهم الخاضعة للامتهان وللعنف، والذين يستدعونهم بيأس. لكن كان التردد قصيرًا. فقد قرر رقيب من سويسر- بطل محنك في جيوش كارلوس الخامس في حربي ألمانيا وتركيا الكبرى- أن يهاجموا جميعًا العدو القريب. يجثون يتضرعون إلى الرسول سانتياجو، منتظرين حدوث معجزة، يهاجمون بينادقهم وطبجاتهم ورماحهم وفؤوسهم. يتراجع الأتراك ويولون ظهورهم. عبثًا شجعهم قائدهم المخيف سوفاري ماريشال البحر، وهو تركي كبير السن يعاني من السمنة المفرطة، يشتهر بشجاعته وجرأته. على رأس فصيلة من السود -كانوا حراسه- يهاجم بسيفٍ عريض في يده، مُشكلاً حوله دائرة من الجثث؛ لكن في النهاية اخترق رجل من سويسر صدره برمحه، وعند سقوطه يهرب الغزاة ويفقدون رايتهم. يسد عليهم عدو جديد الممر عندما يفرون نحو الساحل لينجو بأنفسهم في سفنهم. شهدت عصابة من قطاع الطرق القتال من الأجراف، وعند رؤية الأتراك يفرون يخرجون لمقابلتهم، يقذفون الصخور ويلوحون بخناجرهم. يجلبون معهم مجموعة من كلاب الدرواس، ورفاق حياتهم الشائنة الشرسين، وهذه الوحوش، وهي ترمي بأنفسها على الهاريين وتدمرهم، يختبرون -وفقاً لمؤرخي ذلك الزمن- «خير سلاطات مايوركا». تعود القوات المنتصرة إلى الوراء؛ لتخترق المدينة المدمرة، ويهرب النهابون قدر استطاعتهم باتجاه البحر، أو يسقطون منحوري الحناجر في الشوارع.

كان الواعظ مبتهجاً وهو يروي هذا العمل المنصور، وينسب الجزء الأكبر من النجاح إلى ملكة السماوات والرسول المحارب. ثم امتدح القائد أنخلاتس، بطل الحملة، بطل سوّير، وسيدنا منزل تاماني الباسلات، امرأتان من ملكية مجاورة للمدينة فوجئتا بثلاثة أتراك يتوقون لإشباع شهيتهم الضارية بعد فترة طويلة من الحرمان في عزلة البحر. لم تصرخ السيدتان الشجاعتان الصلبتان مثل الفلاحات الجيدات، ولم تهربا عند رؤية هؤلاء القراصنة الثلاثة أعداء الله والقديسين. قتلا واحداً بمتراس الباب، ثم أغلقتا على أنفسهما في المنزل. ألقيتا الجثة من النافذة على المهاجمين، وقطعتا رأس آخر، وطاردتا الثالث بالحجارة، مثل حفيدات رماة المقاليع المايوركيين. آه، السيدتان الباسلتان، سيدتا منزل تاماني الشجاعتان! عشقهما الناس الطيبون كقديستين بطلتين في حرب الألفية ضد الكفار، وكانوا يضحكون بمودةٍ على مآثر جان دارك، وهم يفكرون بغطرسة في خطورة عمل المسلمين من أجل إمداد حريمهم بأجسادٍ جديدة.

بعد ذلك، ينهي الواعظ خطبته، متبعاً العادة التقليدية بالاستشهاد بالعائلات التي شاركت في القتال: مائة لقب، حيث كانت تستمع جماعة الحضور باهتمام، محركين رؤوسهم بإشارات الموافقة عندما يرن اسم واحدٍ من أسلافهم. بدا هذا التعداد اللا نهائي قصيراً بالنسبة لكثيرين، الذين قدموا بادرة احتجاج عندما صمت الواعظ. تمتم الفلاحون الذين لم يسمعون ألقابهم: «كان هناك آخرون، ولم يسموهم؟. يريد الجميع أن يكونوا من نسل محاربي القائد أنخلاتس.

عندما انتهت الاحتفالات واستعادت سوَّير هدوءها الوديع، أمضى خايمي الصغير أيامه ركضًا حول بساتين البرتقال مع أنطونيا، العجوز مادو أنطونيا الآن، التي كانت آنذاك امرأة طويلة بدينة ونضرة، ذات أسنان بيضاء، وصدر منحني وخطوات قوية، أرملة بعد شهور قليلة من زواجها تطاردها نظرات الفلاحين المضطربة. كانا يذهبان معًا إلى الميناء، بحيرة هادئة ومنعزلة، مدخلها غير مرئي تقريبًا بسبب الالتواءات بين صخور الأذراع المائية التي تربطها بالبحر. من حين لآخر فقط تظهر صواري بعض المراكب الشراعية في هذا المربع المغلق من المياه الزرقاء، التي تأتي لتحميل البرتقال لمرسليها. ترفرف عصابات طيور النورس العجوز الضخمة مثل الدجاج بحركات رقصة تقابلية على السطح الأملس. وعند هبوط المساء، تدخل قوارب الصيادين، وتحت أكواخ الشاطئ الخشبية تتدلى أسماك ضخمة من الخطاطيف، مع ذيولها المجرورة على الأرض، تنزف مثل الثيران؛ أسماك الورنكيات والأخطبوطات التي تنبعث منها لزوجة بيضاء مثل قطع الزجاج المهتز.

أحبَّ خايمي هذا الميناء الهادئ، ذا العزلة الغامضة، باحترام ديني. يتذكر فيه القصص العجائبية التي كانت تهدئه بها والدته لينام ليلاً؛ المعجزة العظيمة لخدام الرب من أجل أن يخيب أمل الخطة العنيدتين في تلك المياه. كان القديس رايموندو من بِنِيافورت، راهبًا فاضلاً وصارماً، غاضبًا من الملك دون خايمي من مايوركا، الذي كان في علاقة فاحشة مع سيدة -دونيا بيرينجِلا- غير مصغٍ لنصائحه المقدسة. أراد الراهب الهروب من جزيرة الهلاك، ومنعه الملك بفرض حظر على

جميع القوارب والسفن. حينها نزل القديس إلى ميناء سويير المنعزل، ونشر عباءته فوق الأمواج، وركبها وانطلق نحو ساحل كاتالونيا.

أخبرته مادو أنطونيا أيضًا عن هذه المعجزة، ولكن في أبيات شعرية مايوركية، في أغنية بسيطة تفوح بتصديق ساذج لقرون مولعة بما هو عجيب. يضع القديس -المُبهر على عباءته- عصا الصاري وغطاء الشراع. تهب ريح من الرب فوق السفينة الغربية، وفي غضون ساعاتٍ قليلة، كان خادم الرب متجهًا من مايوركا إلى برشلونة. أعلن مركز مراقبة جبل مونتجويك بعلم ظهور القارب المعجزة، ودُقت أجراس سيو، وذهب التجار إلى الحائط البحري للترحيب بالقديس المسافر.

أراد فيرر الصغير -الذي ثار فضوله بسبب هذه العجائب- معرفة مزيد، ونادت رفيقته الصيادين القدامى، الذين أروه الصخرة التي وضع القديس عليها قدميه وهو يستنجد بعون الله قبل الإبحار. كان الجبل الداخلي -الذي يُرى من الميناء- على شكل راهب مُقَنَّع. على طول الساحل -في مكان لا يمكن الوصول إليه- كانت الصخرة -التي لا يراها إلا الصيادون- مثل راهب راکع ويصلي. مثل هذه الآيات قد فعلها الله، وفقًا لهذه النفوس البسيطة؛ لتخليد المعجزة الشهيرة.

لا يزال خايمي يتذكر انتفاضات التأثير التي استقبل بها هذه القصص. آه، سويير! وقت البراءة المقدسة، عندما فتح عينيه على الحياة وسط حكايات المعجزات وإحياء ذكرى النضالات البطولية! فَقَدَ بيت القمر إلى الأبد، كما ضاعت سذاجة وبراءة ذلك الوقت الذي كان بالنسبة له بعيدًا نوعًا ما. لقد مر أكثر من عشرين عامًا دون أن

يعود إلى سويير المنسية، التي أعيد إحيائها الآن في ذاكرته بكل أوهام الطفولة المضحكة.

وصلت العربة إلى مَفرق الطريق، وانطلقت في طريق بايدُموسا، وبدأ أن كل الذكريات ظلت وراءها -بلا حراك على حافة الطريق- تتلاشى مع المسافة.

لم يقدم له طريق بايدُموسا أي ذكرى من الماضي. لقد تبعه مرتين فقط، عندما كان رجلاً، لزيارة صوامع كارتوخا مع بعض الأصدقاء. يتذكر أشجار الزيتون على الطريق، أشجار الزيتون الشهيرة التي عمرها قرون، ذات الأشكال الغريبة والرائحة، والتي بمثابة نماذج لعدد من الفنانين، أطل برأسه من النافذة راغبًا في رؤيتها. تصعد الأرض. بدأت الحقول الصخرية الجافة. أول سفوح السلسلة الجبلية. يتعرج الطريق وسط الحَرَجَة. تمر أولى أشجار الزيتون أمام نوافذ العربة.

عرفهم فبرر، كان يتحدث عنهم مراتٍ كثيرة، ومع ذلك شعر بإحساس غير عادي، كأنه يراهم للمرة الأولى. كانت أشجارًا سوداء، لها جذوع ضخمة، معقدة ومفتوحة، منتفخة بزوائد كبيرة وأوراق شجر قليلة؛ أشجار الزيتون الموجودة منذ قرون، والتي لم تُقلم من قبل، وسلبت منها الشيوخوخة عصارة أغصانها، مما أدى إلى انتفاخ الجذوع مع تمدد الدوران البطيء والمؤلّم. يبدو الحقل كأنه ورشة نحت مهجورة، مع آلاف من الرسومات التي لا شكل لها لوحوش منتشرة على الأرض، فوق سجادة خضراء تلونها زهور الأقحوان واللبلاب البري.

وتبدو شجرة الزيتون كأنها علجوم ضخمة، منكمش وعلى وشك القفز، وفي فمها مجموعة من الأوراق؛ أخرى، أصلة^(٢٢) قبيحة مع حلقات متكسدة، وعلى رأسها زيتون للزينة؛ تُشاهد الجذوع المفتوحة مثل رؤوس القذائف، التي تضيء السماء الزرقاء عبر ثقوبها؛ الثعابين الوحشية الملتفة في مجموعة مثل خطوط عمود سليمان الحلزونية؛ العمالقة السود، رؤوسهم إلى أسفل، وأيديهم على الأرض، وأصابعهم تغرق في جذورهم، وأقدامهم إلى أعلى، وتخرج منها عصي ممثلة بالأوراق. بعضها هزمته العصور، رقد على الأرض، تستند نباتاته الخشبية على الأشواك، مثل العجائز الذين يستندون على عكازاتهم.

يبدو أن عاصفة قد مرت فوق هذه الحقول، دمرت كل شيء، ولَوَّت كل شيء، محوِّلة كل شيء إلى حجر بعدها؛ لإبقاء هذا الخراب تحت ثقلها، ومنعها من استعادة أشكالها الأصلية. يبدو أن عددًا من أشجار الزيتون المنتصبه - ذات المناظر الجانبية الأكثر نعومة - لها وجوه وأشكال أنثوية. كانوا من العذارى البيزنطيين، مع تيجان من أوراق الشجر الخفيفة وملابس طويلة من الحطب. وبعضها الآخر كانوا أصنامًا شرسة، بأعين بارزة ولحي مموجة ومتجمعة؛ أو ثان الديانات الغامضة والبربرية، قادرة على إيقاف هجرات الإنسانية البدائية، وتجتو على ركبتيها بتأثر لقاء إلهي. في هدوء هذا الالتواء العاصف الساكن، وفي عزلة هذه الحقول التي تسكنها رؤى مخيفة ودائمة، تغني الطيور، ويمتد غزو الأزهار البرية أسفل الجذوع الفاسدة، ويحيى النمل

(٢٢) هو جنس من الثعابين العاصرة غير السامة.

ويذهب في مسبحة لا نهائية، مما أدى إلى تقويض الجذور العتيقة مثل عمال المناجم الذين لا يعرفون الكلل.

رسم جوستافو دوريه^(٢٣) -وفقاً لعدد من سكان الجزر- أروع تصوراته في بساتين الزيتون هذه، وقد جلبت ذكرى هذا الفنان إلى ذاكرة خايمي ذكرى مشاهير آخرين مروا أيضاً في الطريق نفسه وعاشوا وعانوا في بايديموسا.

لقد زار كارتوخا مرتين فقط؛ ليرى عن قرب الأماكن التي خلدها الحب الحزين والمريض لشخصين مشهورين. أخبره جده مرات عديدة عن المرأة الفرنسية من بايديموسا ورفيقها الموسيقي.

في أحد الأيام، رأى سكان مايوركا وشبه الجزيرة الذين لجأوا إلى الجزيرة هاربين من أهوال الحرب الأهلية زوجين أجنيين ينزلان من سفينة برفقة طفل وطفلة. كان ذلك عام ١٨٣٨. وعندما أنزلت الأمتعة إلى الشاطئ، أعجب سكان الجزيرة مندهشين ببيانو ضخّم، بيانو إيرارد، مثل قليلين شُهدوا في ذلك الوقت. ظل البيانو أسيراً في الجمرك، بينما تُحل بعض المشاكل الإدارية، وذهب المسافرون للإقامة في نزل، واستأجروا فيما بعد عقار ملكية بنت، بالقرب من پالما.

بدا الرجل مريضاً؛ كان أصغر منها، لكنه كان ضعيفاً بسبب المرض، ممتنعاً، بشحوبٍ شفافٍ لذبيحة، وعيناه الصافيتان تلمعان من الحمى، وصدره الضيق يهتز بسبب السعال الخشن المستمر. يُظلل

(٢٣) جوستافو دوريه: رسّام فرنسي، اشتهر برسوماته التي وضعها لرواية (دون كيخوت) لثربانتس، ولملحمة (الفردوس المفقودة) لملتون، وللكتاب المقدس.

سالفان رقيقان جدًا وجنتيه؛ وتتوج لبدة الأسد الهائج جبهته، وترجع إلى الخلف في سلسلة من الصفائر. وكانت هي شجاعة وأخذت على عاتقها كل الأعمال المنزلية، مثل برجوازية طيبة، إرادتها أقوى من مهاراتها. تلعب مع أبنائها كطفلة، ولم يتكدر وجهها الطيب والمبتسم إلا عند سماع سعال الحبيب المريض. بدا أن أجواءً من الغربة والحياة غير المنتظمة والاحتجاج على القوانين التي تحكم البشر تحيط بهذه العائلة المتجولة. كانت ترتدي ثيابًا خيالية نوعًا ما، مع خنجر فضي عالق في شعرها، زينة رومانسية أثارت استنكار سيدات مايوركا المتدينات. إلى جانب ذلك، لا تذهب لحضور قداس المدينة، ولا تقم بزيارات، ولا تغادر منزلها إلا للعب مع ابنها أو إخراج المسكين المسلول في الشمس مستندًا على ذراعها. كان الطفلان غير عاديين مثل الأم؛ ترتدي الابنة زي صبي؛ لتركض في الحقول بطلاقة أكبر.

سرعان ما عرف فضول الجزيرة أسماء هؤلاء الغرباء الذين بدوا خائفين. كانت فرنسية، مؤلفة كتب؛ أورورا دوبيين، بارونة سابقة انفصلت عن زوجها، اكتسبت شهرة عالمية بسبب رواياتها، وتوقع عليها باسم مذكر ولقب قاتل سياسي؛ جورج ساند. بينما كان هو موسيقيًا بولنديًا، كائنًا دقيقًا يبدو كأنه يترك جزءًا من حياته في كل عمل من أعماله، ويشعر بالموت في سن التاسعة والعشرين. أطلقوا عليه اسم فيديريكو شوبان. يتيمان الابنان إلى الروائية التي تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا.

أثارت هذه الفضيحة غضب المجتمع المايوركي، المنغلق في اهتماماته التقليدية، مثل الرخويات في درعها، والعدو بالغريزة لكل

تجديد من باريس. لم يكونا متزوجين! وهي تكتب روايات أفزعت الناس الطيبين بجرأتها! أراد الفضول الأثوي الاطلاع عليها، لكن في مايوركا يستلم الكتب فقط دون أوراثيو فيرر، جد خايمي، والمجلدات الصغيرة إنديانا وليليا المملوكة له ركضت من يد إلى يد دون أن يفهمهما القراء. امرأة متزوجة تكتب كتباً وتعيش مع رجل ليس زوجها!

كانت دونيا إلبيرا -جدة خايمي- سيدة قادمة من المكسيك، يتأمل صورتها مرات عديدة، ويتخيلها دائماً مرتدية ملابس بيضاء، وعيناها مرفوعتان والقيثارة الذهبية بين ركبتيها، زارت المرأة الوحيدة في منزل بنت. استمتعت بإحراج سيدات الجزيرة اللواتي لم يعرفن الفرنسية بتفوقها كأجنبية؛ استمعت إلى مدح الكاتبة الغنائي لأصالة هذا المشهد الأفريقي، بمنزله البيضاء الصغيرة، والصبار الشائك، وأشجار النخيل النحيلة وأشجار الزيتون القديمة، والتي تتناقض بشدة مع الترتيب المتناغم للريف الفرنسي. لاحقاً، دافعت السيدة إلبيرا بقوة -في التجمعات الاجتماعية في بالما- عن الكاتبة، هي امرأة مسكينة عاطفية، كانت حياتها الحالية أكثر غزارة في حزنها ورعايتها مثل راهبة مَحَبَّة مما كانت في إشباع حبها. اضطر الجد للتدخل ومنع زوجته من هذه الزيارات لإسكات النميمة.

امتد الفراغ حول الزوجين المثيرين للاستنكار. بينما يلعب الطفلان مع أمهما في الحقل مثل متوحشين صغيرين، يسعل المريض منعزلاً في غرفة نومه خلف النوافذ، أو يطل خارج الباب بحثاً عن شعاع ضوء الشمس. في الليل -في وقت متأخر- يزور الوحي المريض الحزين، فيجلس على البيانو يرتجل موسيقاه بين السعال والأنين، شهوة مريرة.

أمر سيد ملكية بنت -وهو برجوازي من المدينة- الغرباء بالرحيل، كأنهم عصابة من البوهيميين. كان عازف البيانو مسلولاً، ولم يرد أن ينقل المرض إلى ممتلكاته. إلى أين يذهبون؟ كانت العودة إلى الوطن صعبة: كان منتصف الشتاء، وشوبان يرتجف مثل طائر مهمل وهو يفكر في برد باريس. كانت الجزيرة غير المضيفة محبوبة -على الرغم من ذلك- بسبب اعتدال مناخها. عُرض عليهم دير الرهبان الكرتوزيين في بايدموسا كملاذ وحيد: مبنى بدون جمال معماري، ليس له سحر آخر غير سحر العصور الوسطى، ولكنه يقع بين جبال كانت غابات الصنوبر تنهار عبر منحدراتها، وكانت أشجار اللوز والنخيل مثل ستائر ناعمة تخفف من حدة الشمس، بين فروعها ترى الأعين السهل الأخضر والبحر البعيد. لقد كان نصباً في حالة خراب تقريباً، ديراً للميلودراما، كئيباً وغامضاً، وفي أروقتة يخيم المتشردون والمتسولون. لدخوله كان لا بد من عبور مقبرة الرهبان بقبورها المتزعزعة بسبب جذور النباتات البرية، التي تُخرج العظام إلى سطح الأرض. وفي الليالي المقمرة يتجول طيف أبيض في أروقة الدير، روح راهب ملعون ينتظر ساعة الخلاص وهو يتجول في مكان خطاياها.

هناك سار الهاربون في أحد أيام الشتاء الممطرة، تضربهم الأمطار الغزيرة والإعصار، يتبعون الطريق نفسه الذي يسلكه فيبر الآن، لكنه كان طريقاً قديماً له مثل هذا الاسم فقط. انطلقت عربات القافلة، كما قالت جورج ساند: «بعجلة واحدة على الجبل والأخرى على طول قاع المجرى». يرتجف الموسيقي -متدثراً في معطف- ويسعل تحت

قماش المظلة، ويتنفض من التقلبات المؤلمة. واصلت الروائية السير على الأقدام بخطواتٍ صعبة، ممسكة بأيدي ابنيها في رحلة المشردين هذه.

لقد أمضوا الشتاء كله في عزلة كارتوخا^(٢٤). ترتدي خُفًا وخنجرًا صغيرًا في شعرها الممشط بشكلٍ سيئ، وتقوم بالطهي بمرح، بمساعدة فتاة من المنطقة، تستفيد من أدنى قدر من السهو لتلتهم اللقيمات المخصصة للحبيب المريض. رجم أطفال بايدموسا الفرنسيين الصغيرين بالحجارة معتقدين أنهم مغاربة.. أعداء الله. كانت النساء تسرق الأم عندما يبيعن لها المواد الغذائية، وأطلقن عليها أيضًا (الساحرة). كان الجميع يقوم بإشارة الصليب لهؤلاء الغجر الذين تجرأوا على العيش في زنزانة بالدير، بالقرب من الموتى، على اتصال دائم بالراهب الشبح الذي يسير عبر أروقة الدير.

في أثناء النهار، بينما يستريح المريض، تجهز هي القدور وتساعد الخادمة على تشذيب الخضرة، بيدي فنانة رقيقتين وشاحبتين. ثم تركض مع ابنيها إلى ساحل ميرامار الوعر المغطى بالأشجار، حيث أسس رايموندو لوليو مدرسته للدراسات الشرقية. فقط عندما يهبط الليل، تبدأ الحياة الحقيقية.

يتأثر رواق الدير المعتم والهائل بموسيقى غامضة، تبدو آتية من بعيد، عبر الجدران القوية. كان شوبان منحنيًا على البيانو، يؤلف موسيقاه الحزينة. والروائية على ضوء شمعة، تكتب سبيريديون قصة

(٢٤) كارتوخا: جزيرة تابعة لإشبيلية، تقع بين ذراعي نهر الوادي الكبير.

الراهب الذي انتهى به الأمر إلى هدم كل معتقداته، وفي كثير من الأحيان توقف عملها لتركض إلى جانب الموسيقى وتجهز منقوعه، منزعة من تكرار سعاله. في الليالي المقمرة، تستهويها قشعريرة ما هو غامض وشهوة الخوف، فتخرج إلى رواق الدير، الذي تقطع كآبته بقع النوافذ اللبينة. لا أحد! ثم تجلس في مقبرة الرهبان، تنتظر عبثاً ظهور الطيف ليُنْعَش حياتها الرتيبة بشيء من الخيال.

ذات ليلة من ليالي الكرنفال، غزا المغاربة كارتوخا. كانوا شباباً من پالما، بعد أن قاموا بجولة في المدينة متكرين في زي بربرين، فكروا في المرأة الفرنسية، يشعرون بالخجل بلا شك من العزلة التي وضعها فيها الناس. وصلوا في منتصف الليل، وهم يكدرّون الهدوء الغامض للدير بأغانهم وعزفهم على الجيتار، مما جعل الطيور التي تسكن الأنقاض ترفرف بأجنحتها خوفاً. رقصوا في غرفة من الصومعة رقصات إسبانية، تابعها الموسيقي باهتمام بعينه المحمومتين، بينما تنتقل الروائية من مجموعة إلى أخرى، وهي تشعر بفرح بسيط غير منسي لبرجوازية.

كانت هذه ليلتها السعيدة الوحيدة في مايوركا. ثم -مع عودة الربيع- شعر الحبيب المريض بتحسّن، وبدأوا بالعودة البطيئة إلى باريس. كانوا طيوراً عابرة لم يتركوا أي أثر آخر بعد قضائهم الشتاء سوى أثر الذكرى. ولا حتى استطاع خايمي أن يعرف على وجه اليقين أي غرفة كانت لهم. أدت الإصلاحات التي أُجريت في الدير إلى محو كل الآثار. تُمضي كثير من العائلات من پالما الآن الصيف في كارتوخا، وحُولت غرف الرهبان إلى حجرات جميلة، ويريد كل واحد أن تكون غرفته هي غرفة

جورج ساند، سيئة السمعة والمحتقرة من قبل جداتهم. زار فيرر الدير مع شخص في التسعين من عمره من الذين يرتدون زي المغاربة ويغنون للفرنسية. لم يتذكر شيئاً، ولم يتمكن من التعرف على الغرفة.

شعر حفيد دون أوراثيو بنوع من الحب المتعلق بالماضي ناحية تلك المرأة غير العادية. يراها كما في صور شبابها، بوجه خالٍ من التعبيرات وعينين عميقتين غامضتين تحت شعر مسترسل لا تزينها أكثر من وردة على صدغها. مسكينة جورج ساند! كان الحب بالنسبة لها مثل أبي الهول العريق: في كل مرة تحاول استجوابه، تشعر بمخلبه الذي لا يرحم في قلبها. كل تضحيات وتمردات الحب عرفتها تلك المرأة. كانت الأنثى كثيرة النزوات في ليالي البندقية، رفيقة موسيه الخائنة، كانت الممرضة نفسها التي تطهو العشاء وتعد المنقوع لشوبان المحتضر في عزلة بايديموسا.. لو أنه عرف امرأة مثلاً، امرأة تحمل داخلها ألف امرأة، كل التنوع الأنثوي اللا متناهي من العذوبة والقسوة! أن يكون المرء محبوباً من قبل أنثى متفوقة، يمكن أن تفرض عليها الهيمنة الذكورية وفي الوقت نفسه تلهمه الاحترام لعظمة فكرها!

بقى فيرر فترة طويلة كأنه مخدر بهذه الرغبة، وهو ينظر إلى المناظر الطبيعية دون رؤيتها. ثم ابتسم بسخرية كأنه يرثي لتفاهته. تذكر الغرض من رحلته، وشعر بالأسف على نفسه. هو -الذي يحلم بحب كبير مجرد وغير عادي- سيبيع نفسه، وهو يقدم يده واسمه لامرأة لم يرها إلا بالكاد؛ للدخول في تحالف من شأنه أن يشير استنكار الجزيرة بأكملها.. نهاية جديدة لحياة غير مجدية وطائشة!

لقد بدا له الآن خواء حياته بوضوح، دون خداع غروره الشخصي. قرب التضحية جعله يتتبع في ذكرياته كأنه يبحث فيها عن مبرر لأفعاله الحالية. ما فائدة ركضه حول العالم؟

عاد مرة أخرى إلى ذكريات طفولته التي أثارها في طريقه إلى سوّير. رأى نفسه في منزل آل فيرر الكبير القديم مع والديه وجده. وكان الابن الوحيد. كانت والدته -وهي سيدة شاحبة ذات جمال حزين- مريضة نتيجة ولادته. وكان دون أوراثيرو يعيش في الطابق الثاني، بصحبة خادم عجوز، كأنه ضيف في المنزل، يختلط بالأسرة أو ينعزل عنها على هواه. وسط غموض ذكريات طفولته، تأمل خايمي صورة جده بارتياح واضح. لم يسبق له أبدًا أن وجد ابتسامة على ذلك الوجه ذي السوالم البيضاء التي تتناقض مع عينيه السوداوين المستبدتين. مُنع من في المنزل من الصعود إلى غُرفه. لم يره أحد إلا في ثياب الخروج بعناية دقيقة. كان حفيده -الوحيد الذي بإمكانه الصعود إلى غرفة نومه في جميع الأوقات- يجده في وقتٍ مبكر من الصباح مرتديًا سترته الزرقاء الرسمية، والياقة العالية المدببة وربطة عنق سوداء ملفوفة عدة لفات، ومثبتة بلؤلؤة ضخمة. حتى في أيام مرضه كان يحتفظ بمظهره المضبوط، بأناقته القديمة. إذا أجبره المرض على البقاء في الفراش، فإنه يأمر الخادم بعدم استقبال أحد حتى ابنه.

يمضي فيرر ساعاتٍ جالسًا عند قدمي جده، مستمعًا إلى قصصه، ويخيفه عدد الكتب الهائل التي فاضت من الخزائن، وانتشرت على الكراسي والطاولات. كان يراه هو نفسه في جميع الأوقات، مع معطفه

المبطن بالحرير الأحمر، والذي يبدو دائماً كأنه تم تجديده كل ستة أشهر. لم تجلب المواسم أي تغيير سوى تحويل صدرية شتوية من المخمل إلى سترة من الحرير المطرز. قام باختصار كبريائه الشهيرة في الملابس البيضاء والكتب. أحضروا له دزينات من القمصان من الخارج، والتي غالباً تصفر وهي منسية -لا تلبس أبداً- في أسفل الخزانات. كان بائعو الكتب في باريس يرسلون إليه طروداً ضخمة من المجلدات المنشورة حديثاً، ونظراً إلى طلباته المستمرة، كانوا يكتبون سطرًا في العنوان، يظهره دون أوراثيرو بأريحية ساخرة: (تاجر الكتب).

يتحدث إلى آخر أفراد عائلة فيرر بلطف الجد، باذلاً جهداً ليفهمه قصصه، على الرغم من أنه كان قليل الكلام ويعاني قليلاً في علاقاته مع العائلة. يخبره عن رحلاته إلى باريس ولندن: الرحلات الأولى في قوارب شراعية إلى مرسيليا ثم في عربة البريد؛ الأخرى على البواخر المجدفية والقطارات، اختراعات عظيمة شهدتها طفولته. يتحدث عن المجتمع في زمن لويس فيليب؛ عن الحفلات الافتتاحية للعروض الرومانسية التي حضرها؛ عن الحواجز التي يراها من غرفته ترتفع ملتزمًا الصمت؛ لأنه في الوقت نفسه يحتضن فتاة متواضعة تظهر بجانبه.

وُلد حفيده في الوقت المناسب: الأفضل على الإطلاق. يتذكر دون أوراثيرو خلافاته مع والده الرهيب، والتي أجبرته على السفر عبر أوربًا؛ ذلك الرجل الذي يخرج للقاء الملك فرناندو؛ ليطلب منه العودة إلى العادات القديمة، ويبارك أبناءه قائلاً: «ليجعلك الله قاضيًا صالحًا».

ثم يُظهر لخايمي مطبوعات كبيرة مع مناظر للمدن التي عاش فيها،

والتي تبدو للطفل مدن الأحلام. في بعض الأحيان يتأمل في صورة الجدة ذات القيثارة، زوجته، السيدة إليرا المثيرة للاهتمام، اللوحة القماشية نفسها الموجودة الآن في غرفة الاستقبال مع سيدات العائلة الأخريات. لم يتأثر. كان يحتفظ بالجديّة نفسها التي ترافق النكات التي يحبها والكلمات الفظة التي تصبغ حديثه، لكنه يقول بصوتٍ مرتعشٍ إلى حدٍّ ما:

- كانت جدتك سيدة عظيمة، روحًا ملائكية، فنانة. كنت أبدو مثل بربري بجانبها... كانت من عائلتنا، لكنها جاءت من المكسيك لتتزوجني. كان والدها بحارًا وبقي هناك مع المتمردين. لا يوجد في كل عرقنا من يشبه تلك المرأة.

يترك حفيده -في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحًا- وهو يقحم قبعة عالية من الحرير الأسود في الشتاء والكستور في الصيف، يخرج في نزهة في شوارع بالما، دائمًا في المكان نفسه والأرصفت المماثلة، الشيء نفسه عندما تمطر وعندما تكون الشمس مشتعلة، غير حساس للبرد وللحرارة، يرتدي سترة رسمية في جميع الأوقات، يتبع مشيته بانتظام الساعات الآلية، التي تسير وتُحجب لتدق في ساعاتٍ معينة.

مرة فقط خلال ثلاثين عامًا غير طريقه عبر الشوارع المنعزلة والبيضاء من الشمس، حيث كانت تدوي خطواته. فذات صباح سمع صوت امرأة داخل منزل:

- يا فتاة، إنها الثانية عشرة. ضعني الأرض. دون أوراثيرو يمر.

فاستدار نحو الباب بجديّة سيد عظيم:

- أنا لست ساعة الـ...

وأطلق كلمة بذیئة دون أن يفقد جدیته، مثلما يُطلق دائماً أبغض التعبیرات. منذ ذلك الیوم غیّر طریقته؛ لیهرب من الذین یؤمنون بدقة نزھاته.

یتحدث أحياناً إلى حفیده عن عظمة المنزل القدیمة. لقد أفلست الاكتشافات الجغرافیة آل فیرر. لم یعد البحر المتوسط الطریق إلى الشرق. وجد البرتغالیون والإسبان من البحر الآخر مسارات جدیدة، وكانت سفن مایورکا تتعفن بلا عمل. لم تعد هناك حروب مع القراصنة. كانت منظمة فرسان مالطا المقدسة مجرد امتیاز فخري. جاء شقیق والده، قائد في لا فالیتا^(٢٥) عندما غزا بونابرت الجزیرة، إلى پالما لیموت بمعاشه التقاعدي الضئیل. كان آل فیرر لقرنین من الزمان ناسین البحر - حیث لم تكن هناك تجارة متبقیة وكان السادة الفقراء وأبناء الصیادین هم فقط من یشنون الحرب - یكرسون أنفسهم لفرض أسمائهم برفاهیة رائعة، وهم یفلسون بیطء.

كان الجد لا یزال في زمن السیادة الحقیقیة، عندما یضع الناس أشراف مایورکا بین الله والفرسان. كان دخول عالم فرد من فیرر حدثاً یتم الحدیث عنه في جمیع أنحاء المدینة. ظلت السیدة العظیمة في المخاض منعزلة في قصرها أربعین یوماً، وفي كل هذا الوقت كانت

(٢٥) لا فالیتا: عاصمة مالطا.

الأبواب مفتوحة، ومدخل البيت يمتلئ بالعربات الفاخرة، ويصطف الخدم في غرفة الانتظار، وتمتلئ القاعات بالزوار، والموائد مغطاة بالحلويات والبسكوت والمرطبات. كانت هناك أيام من الأسبوع مخصصة لاستقبال كل طبقة اجتماعية. فكانت بعضها فقط من أجل الأشراف، أرستقراطية الطبقة الأرستقراطية، البيوت ذات الامتيازات، عائلات قليلة جدًا، تتصل جميعها من أجل قرابة النسب المستمرة. وأيام أخرى للفرسان، والنبلاء التقليديين الذين يعيشون خاضعين لمن سبقوهم دون معرفة السبب. ثم يُستقبل الموسّون، الطبقة الدنيا، ولكن لها علاقة عائلية مع العظماء، مفكري ذلك الوقت: الأطباء والمحامين وكُتاب العدل، الذين يقدمون خدماتهم للعائلات المشهورة.

تذكر دون أوراثيرو روعة حفلات الاستقبال هذه. كان يعرف القدماء كيف يفعلون الأشياء العظيمة.

يقول لحفيده:

- عندما وُلد والدك، كان آخر احتفال في هذا المنزل. دفعت ثمانمائة جنيه مايوركي لصانع حلويات في بورن مقابل الحلوى والبسكوت والمرطبات.

يتذكر خايمي والده أقلّ من جده. في ذاكرته كان شخصية لطيفة وعذبة، لكنه كان غير واضح إلى حدٍّ ما. عندما يفكر فيه، لا يرى سوى لحية ناعمة وخفيفة بعض الشيء مثل لحيته، وجبهة صلعاء، وابتسامة حلوة ونظارات تتألق عندما تلمل. يحكون إنه وهو طفل كان على علاقة مع ابنة عمه خوانا، تلك السيدة الصارمة التي أطلق عليها الجميع (لا

بابيساً)، التي عاشت مثل راهبة تتمتع بثروة هائلة، تمنحها ببذخ فيما مضى إلى طالب يدها دون كارلوس، والآن إلى رجال الدين الذين يحيطون بها.

كان انفصال والده عنها -بلا شك- السبب وراء ابتعاد لا بابيسا خوانا عن هذا الفرع من عائلتها، حيث تعاملت مع خايمي بغيظٍ عدائي. كان والده ضابطاً في الأسطول البحري، وفقاً لتقاليد عائلية. كان في حرب المحيط الهادئ، وكان ملازماً أولاً في إحدى الفرقاطات التي قصفت ميناء كاياو، وكأنه كان يتوقع أن يقدم دليلاً فقط على شجاعته، تقاعد فوراً من الخدمة. ثم تزوج فتاة صغيرة من پالما، ذات ثروة ضئيلة، كان والدها الحاكم العسكري لجزيرة إبيزا. كانت لا بابيسا خوانا -وهي تتحدث ذات يوم مع خايمي- تحاول إيذاءها بصوتها البارد وإيماءاتها المتغطسة.

- كانت والدتك نبيلة، من عائلة فرسان... لكن ليست شريفة مثلنا. قضى خايمي السنوات الأولى من حياته، عندما بدأ يدرك ما كان يحيط به، دون أن يرى والده إلا في الرحلات السريعة التي يقوم بها إلى مايوركا. كان من الحزب التقدمي، وقد عينته ثورة ١٨٦٨ نائباً. بعد ذلك، عندما أصبح أماديو سفويا الملك، هذا الملك الثوري، المكروه والمُهمل من قبل النبلاء التقليديين، اضطر أن يستعين برجال جدد لهم تاريخ لتشكيل بلاطه. أصبح الشريف -بناءً على طلب الحزب- مسؤولاً رفيع المستوى في القصر. لم ترغب زوجته -التي ألح عليها للانتقال إلى مدريد- في مغادرة الجزيرة. الذهاب إلى العاصمة! وابنه،

الذي على وشك أن يُولد؟ دون أوراثيو، في كل مرة أنحف وأضعف، لكنه دائماً منتصب في سترته الرسمية الجديدة الأبدية، كان يواصل السير يومياً، وهو يضبط حياته على دقائق ساعة البلدية. كان ليبرالياً عجوزاً، معجباً كبيراً بمارتينيث دي لا روسا بسبب قصائده والأناقة الدقيقة لربطات عنقه، ويشعر بالذهول وهو يقرأ الصحف ورسائل ابنه. أين سيتوقف كل ذلك؟

في الفترة القصيرة للجمهورية، عاد الأب إلى الجزيرة، منهياً حياته المهنية. تظاهرت لا بابيسا خوانا -على الرغم من القرابة- بعدم معرفته. كانت مشغولة جداً في ذلك الوقت. قامت برحلات إلى شبه الجزيرة، كانت تُحول -كما كان يُقال- مبالغ هائلة لأنصار دون كارلوس الذين يدعمون الحرب في كاتالونيا والمقاطعات الشمالية. لا ينبغي أن يحدثوها عن خايمي فيرر البحار القديم! كانت شريفة حقيقية، مدافعة عن التقاليد، وقدمت تضحيات حتى يحكم السادة إسبانيا. كان ابن عمها أقل من التشويتا: كان رث الهيئة. ووفقاً لما يؤكده الناس، أضيفت إلى هذه الأفكار البغيضة مرارة بعض خيبات الأمل في الماضي التي لم تكن قادرة على نسيانها.

عندما عاد البوربون، أصبح التقدمي -التابع لقصر دون أماديو- جمهورياً ومتآمراً. قام برحلات متكررة؛ وتلقى رسائل مشفرة من باريس؛ وذهب إلى منوركا لزيارة الفصيلة الراسية في ماهون، واستخدم صداقاته كضابط سابق، كان يعظ رفاقه، وهو يعد انتفاضة في البحرية. لقد وضع في هذه المشاريع الثورية الاندفاع المستهتر لدى آل فيرر

القدامى نفسه، وجرأته الهادئة، حتى توفي فجأةً في برشلونة، بعيداً عن عائلته.

تلقى الجد الخبر بجدية شديدة، لكن الجارات اللاتي ينتظرن نزهاته ليضعن الأرز على النار لم يروه ظهراً في شوارع بالما. ستة وثمانون عاماً: كان قد مشى فعلاً بما يكفي: ما الذي تبقى ليراه؟! عزل نفسه في الطابق الثاني، حيث قَبِلَ فقط بحفيده. وعندما يأتي أقاربه لزيارته، يفضل النزول إلى قاعة الاستقبال، على الرغم من ضعفه، مرتدياً ملابس مناسبة، السترة الرسمية الجديدة، والمثلثان الأبيضان يطلان من رقبته فوق لفات ربطة عنقه، ودائماً حليق للتو، مع سوارف ممشطة جيداً وخصلة الشَّعر الأمامية اللامعة من الصمغ. جاء يوم لم يستطع النهوض من الفراش، ورآه حفيده بين الملاءات بهيئته المعتادة، محتفظاً بقميصه الفاخر من البتستة، وربطة العنق التي يغيرها الخادم كل يوم، والصدورية الحريرية ذات الزهور. عندما أبلغوه بزيارة زوجة ابنه، قام دون أوراثيو بإيماءة انزعاج.

- خايمي يا صغيري، السترة الرسمية... إنها سيّدة، وعليك أن تستقبلها بلياقة.

تتكرر العملية نفسها عند وصول الطبيب أو الزيارات القليلة التي يتفضل باستقبالها. لا بد أن يحتفظ بأسلحته حتى اللحظة الأخيرة، أي كما رأوه طوال حياته.

ذات مساء، نادى حفيده -الذي يقرأ كتاباً عن الرحلات بجوار النافذة- بصوتٍ ضعيف،. يمكنه الإنصراف: يجب أن يكون بمفرده.

غادر خايمي، واستطاع الجد الموت بكرامة في عزلة، دون عذاب الاضطراب إلى الحفاظ على دقة إيماءاته، فيستطيع الاستسلام دون شهود على تكشيرات ورعشات سكرات الموت.

عندما بقي فيبرر ووالدته وحدهما، شعر الصبي بالرغبة في الحرية. كان خياله مليئاً بالمغامرات والرحلات التي قرأها في مكتبة جده، وأيضاً بمآثر أسلافه التي يُحتفى بها في القصص العائلية. أراد أن يكون في القوات البحرية، مثل والده ومثل معظم أجداده. اعترضت الأم بفزع شديد جعل خديها شاحبين وشفتيها زرقاوين. فيبرر الوحيد، يخضع لحياة خطيرة ويعيش بعيداً عنها! لا؛ يكفي الأبطال الذين احتواهم المنزل. يجب أن يكون سيد الجزيرة؛ رجلاً له حياة هادئة، يُكون أسرة لتخليد اللقب الذي يحمله.

استسلم خايمي لتوسلات والدته، المريضة إلى الأبد، والتي بدا أن أقل إزعاج لها يعرضها لخطر الموت. نظراً لأنها لم ترده أن يكون بحاراً، سيدرس مهنة أخرى. كان بحاجة إلى أن يفعل ما يفعله الأولاد الآخرون في عمره الذين يدرسون في الفصول الدراسية بالمعهد. في سن السادسة عشرة أبحر إلى شبه الجزيرة. أرادته والدته أن يكون محامياً؛ ليتمكن من أن يُخلص ثروة الأسرة المثلثة بالرهونات والقروض.

كانت حقائبه ضخمة، أثاث منزلي حقيقي، وكان جيبه ممتلئاً جيداً. لا يمكن أن يعيش فرد من آل فيبرر مثل طالب بسيط. ذهب أولاً إلى بلنسية؛ لأن والدته تعتقد أن هذه المدينة أقل خطورة على الشباب. وفي سنة دراسية أخرى ذهب إلى برشلونة، وكان يسافر تبعاً من جامعة

إلى أخرى، وفقاً لمزاج أساتذته وتعاطفهم مع الطلاب. لم تتقدم مسيرته كثيراً. اجتاز بعض السنوات الدراسية بالحظ الجيد وقت الامتحان، أو بالجرأة الهادئة التي يتحدث بها عما لا يعرفه. تعثر في سنواتٍ أخرى، ولم يكن قادراً على المضي قدماً. قبلت الأم جميع تفسيراته عندما عاد إلى مايوركا. كانت هي نفسها تُروح عنه، وهي تنصحه بعدم المبالغة في دراسته، واثارت على ظلم الزمان الحاضر. كانت عدوتها اللدودة لا بابيسا خوانا على حق. هذه الأوقات لم تكن للسادة؛ لقد أعلنوا الحرب عليهم، وارتكبوا كل أنواع الظلم لإبقائهم بعيداً.

تمتع خايمي ببعض الشعبية في مجتمعات ومقاهي برشلونة وبلنسية حيث كانت ألعاب الحظ. كانوا يطلقون عليه لقب (المايوركي ذو الأوقية)؛ لأن والدته ترسل إليه النقود بأوقية من الذهب، والتي تتدحرج بلمعان فاضح على الطاولات الخضراء. يُضاف إلى هيبة هذه الروعة النقدية لقبه الغريب وهو الشريف، الأمر الذي يتسبب في ابتسامات في شبه الجزيرة، مستحضراً في مخيلة كثيرين نوعاً من السلطة الإقطاعية ذات الحقوق السيادية على الجزر البعيدة.

مرت خمس سنوات. صار خايمي الآن رجلاً، لكنه لم يصل بعد إلى منتصف دراسته. وحين جاء وقت العودة خلال الصيف، كان زملاؤه في الدراسة من الجزيرة يُبهجون الحشود في مقاهي بورنٍ بقبصص مغامرات فيرر في برشلونة. كانوا يرونه في الشوارع وفي ذراعه نساء من أصحاب الترف المذهل؛ كان الأشخاص الفظون الذين يترددون على صالات القمار يحترمون (المايوركي ذا الأوقية) لقوته وشجاعته.

حكوا أنه ذات ليلة أمسك مشاغبًا، ورفعوه وهو يعلق بذراعه فتاة لإلقائه من النافذة. كان يتسم المايوريكيون المسالمون بفخر أبناء البلدة عند سماعهم هذا. لقد كان فيرر، فيررًا حقيقياً. كانت الجزيرة تُولد شابًا شجاعاً كما هو الحال دائماً.

شعرت السيدة الطيبة بوريفيكثيون -والدة خايمي- بانزعاج شديد وسعادة أم عندما علمت أن أنثى فاضحة جاءت إلى الجزيرة بحثاً عن ابنها. تفهمها وتعذرها. شاب وسيم للغاية مثل خايمي! لكن الشابة ضجت من ثيابهم وسلوك عادات المدينة الهادئ؛ غضبت العائلات الطيبة، وتعاملت السيدة بوريفيكاثيون معها -باستخدام وسطاء- لمنحها المال وحملها على مغادرة الجزيرة.

في إجازات أخرى كانت الفضيحة أكبر. أقام خايمي -الذي كان يصطاد في ملكية فيرر- علاقة مع فلاحه شابة جميلة، وكاد أن يُصاب بطلق ناري من شاب ريفي يلاحقها. ساعدته العلاقات الغرامية الريفية في اجتياز المنفى الصيفي. لقد كان فيرر شرعياً، تماماً مثل جده. كانت السيدة المسكينة تعرف حقيقة ذلك الحما الجاد والمهذب دائماً، والذي يداعب ذقن فتيات الريف ببرود رجل رصين. في محيط مزرعة فيرر كان هناك كثير من الشبان الذين لديهم وجه دون أوراثيرو؛ لكن كانت زوجته المكسيكية، ذات الروح الشعرية، تعيش فوق هذه الأمور المبتذلة، وبينما القيثارة على ركبتيها وعيناها نصف مفتوحتين كانت تتلو شعر أوسيان. كان يجذب فيرر الأنثى والفخم الجمال الريفى مع طرحة صغيرة شفافة، وضمائر مسترسلة ونعل أبيض بقوة لا تقاوم.

وبينما تشتكي السيدة بورفيكثيون من رحلات الصيد الطويلة التي يقوم بها ابنها عبر الجزيرة، كان الأخير يمكث في المدينة، وهو يقضي اليوم في الحديقة للتمرن على إطلاق النار من مسدسه. ويُظهر لأمه الخائفة كيسًا محفوظًا في ظل شجرة برتقال.

- هل ترين هذا؟ إنه قنطار من البارود. لا أرتاح حتى أحرقها.

وكانت مادو أنطونيا تخاف من أن تُطل من نوافذ مطبخها، وكانت الراهبات اللواتي يشغلن جزءًا من القصر القديم يُظهرن للحظة أغشية رأسهن البيضاء، وهن يختبئن على الفور مثل الحمام الفزع من إطلاق النار المستمر.

تهتز الحديقة - المحصورة بين جدران ترابية محصنة متاخمة لسور البحر - من الصباح إلى الليل تحت ضجيج الدويّ. تهرب الطيور بخفقتان مخيف، وتسلق السحالي الجدران الخضراء المتشققة، مختبئة بين طبقات اللباب، وتعدو القطط على طول الطرق من الرعب. كانت الأشجار قديمة جدًا، جديرة بالاحترام، مثل القصر: أشجار البرتقال العتيقة، ذات الجذوع الملتوية، والتي تحتاج إلى سياج داعم من الأشواك ليسند أطرافها الجليية؛ أشجار ماجنوليا العملاقة، مع حطب أكثر من الأوراق؛ أشجار النخيل الجذباء، التي ارتفعت في الفضاء الأزرق بحثًا عن البحر فوق الشرفات لتستقبله بتقلبات رأسها ذات الريش.

جعلت الشمس لحاء الأشجار يقطط والبذور المنسية تنفجر في الأرض؛ ترقص الحشرات الطنانة مثل ومضات من الذهب في قضبان الضوء الذي يخترق أوراق الشجر؛ ويسقط التين الناضج ببقبة خفيفة،

عذر. لكن بما أنه كان رجلاً مهذباً، غير قادر على الاستفزازات الظالمة، وكان مظهره يفرض الاحترام على الوقحين، فقد مر الوقت ولم تأتِ الحادثة. استهلكت حيويته المفرطة، وقوته الجارفة، في مغامرات غامضة وتبذير غبي، ويتحدث عنه بإعجاب زملائه في الدراسة في الجزيرة.

وهو يعيش في برشلونة، تلقى برقية تعلن أن والدته مريضة للغاية. استغرق الأمر يومين للإبحار: لم تكن هناك سفينة جاهزة للإقلاع. وعندما وصل إلى الجزيرة، كانت والدته قد ماتت. من بين العائلة القديمة التي رآها في طفولته لم يبقَ أحد. فقط مادو أنطونيا التي يمكنها أن تذكره بالأوقات الماضية.

عندما وجد نفسه صاحب ثروة عائلة فيرر وبحرية كاملة، كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً. تآكلت هذه الثروة بسبب سخاء أسلافه وغطت عليها جميع أنواع الأعباء. كان منزل فيرر كبيراً، مثل تلك السفن التي تجنح وتضيق إلى الأبد، تجعل الساحل غنياً حين يموتون. كانت بقاياهم وغنائمهم -التي ينظر إليها العجائز بازدراء- تمثل ثروة.

لا يريد خايمي أن يفكر، ولا يريد أن يعرف. كان بحاجة إلى أن يعيش، ويرى العالم، فترك دراسته. في ماذا ستهمه القوانين والعادات الرومانية والشرائع الكنسية من أجل الحصول على حياة كريمة؟ كان يعرف فعلاً ما يكفي. في الواقع، كان أفضل معارفه وأكثرها متعة يدين بها لأمه، عندما كان يعيش في القصر -كطفل- دون أن يرى معلمين. علمته هي بعض الفرنسية وقليلاً من البيانو على آلة قديمة ذات مفاتيح

مائلة إلى الصفرة وواجهة من الحرير الأحمر، تقريباً تصل إلى السقف. كان الآخرون يعرفون أقل منه وكانوا مثل السادة وأكثر سعادة. فليعيش! مكث عامين في مدريد. كان لديه عشيقات منحنه بعض الشعبية، وخيول مشهورة، وأثار الاضطراب في طوابق فورنوس الوسيطة، كان صديقاً مقرباً لمصارع ثيران مشهور، ولعب القمار بمبالغ كبيرة. كان لديه مبارزة، لكنها كانت بالسيف - ليس كما كان يتخيلها، مُمدد على الأرض، والمسدس في يده اليمنى - وخرج من القتال بوخز في ذراعه؛ شيء مثل غرزة دبوس في جلد الفيل.

لم يعد (مايوركي الأوقات). انتهت الدوائر الذهبية التي تحتفظ بها والدته؛ لكنه ألقى الأوراق النقدية ببذخ على طاولات اللعب، وعندما جاء السيئ كتب إلى وكيله، وهو محام ينتمي إلى عائلة من الطبقة المتطفلة القديمة، التابعة إلى عائلة فيرر منذ قرون.

سُم من مدريد، حيث كان يعتبر نفسه غريباً تقريباً. كانت باقية فيه روح عائلة فيرر القديمة، المسافرين العظماء في جميع البلدان باستثناء إسبانيا؛ لأنهم عاشوا دائماً وقد ولوا ظهورهم إلى ملوكهم. كان عدد من أجداده مقربين من جميع مدن البحر المتوسط المهمة؛ فكانوا يزورون أمراء الولايات الإيطالية الصغيرة، واستقبلهم البابا، والتركي العظيم^(٢٦)، لكن لم يخطر ببالهم الذهاب إلى مدريد.

(٢٦) التركي العظيم: هو السلطان سليمان الأول، وقد بلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساع لها، حتى أصبحت أقوى دولة في العالم وقتها. عُرف عند الغرب باسم سليمان العظيم أو التركي العظيم.

بالإضافة إلى ذلك، كان فيرر يغضب مراتٍ كثيرة من أقاربه في البلاط، وهم شباب فخورون بألقابهم النبيلة، كانوا يتسمون عند ذكر صفته غير المعهودة كشريف. والاعتقاد بأن العائلة قد سمحت لعدد من الماركيزين بالعبور إلى الأقارب في شبه الجزيرة، مفضلين اللقب الشرفي الأسمى في الجزيرة والتمتع بكرامات الفروسية العالية في مالطا!

بدأ السفر عبر أوروبّا، وأقام في الخريف وجزءاً من الشتاء في باريس، الأشهر الباردة في الساحل الأزرق^(٢٧)، الربيع في لندن والصيف في أوستند، مع عدد من الرحلات إلى إيطاليا ومصر والنرويج؛ لرؤية شمس منتصف الليل.

في هذه الحياة الجديدة كان بالكاد معروفاً. كان يعيش غالباً مثل مسافر، خلية دم متجولة عديمة الشأن في شبكة الشرايين الكبيرة حيث تمتد الرغبة في السفر عبر القارة. لكن هذه الحياة من الحركة المستمرة، مع رتابة مزعجة ومغامرات غير متوقعة، أشبعت غرائزه المتأصلة، والهوايات الموروثة عن أسلافه البعيدين، والزائرين العظماء من الشعوب الجديدة.

علاوة على ذلك، فإن هذه الحياة المتجولة كانت تداعب شغفه بكل ما هو غير عادي. في فنادق نيس، مساكن انحلال عالمي مناسبة وزائفة، تم تكريمه في ظلام غرفته من خلال أكثر الزيارات غير المتوقعة. في

(٢٧) الساحل الأزرق: يُطلق هذا الاسم على جزء من ساحل البحر المتوسط الممتد من مارسيليا حتى جنوة.

مصر، اضطر إلى الفرار من المداعبات المنحطة لكونتيسة مجرية، وردة ذابلة من الأناقة، بعينين عميقتين وعطر عنيف يكشف عن تعفن جسدها تحت طلاء لامع وفتي.

في أثناء وجوده في ميونيخ بلغ الثامنة والعشرين. كان قد ذهب قبل فترة وجيزة إلى بايرويت لحضور عرض أوبرا فاجنر، والآن -في العاصمة البافارية- يحضر مسرح المقر^(٢٨)، حيث يُقام مهرجان موتسارت. لم يكن خايمي من محبي الموسيقى، لكن حياته المتجولة تجبره على الذهاب إلى حيث يذهب الناس، وجعلته مكانته كعازف بيانو هاوٍ يحضر هذا الحج الموسيقي لمدة عامين على التوالي.

التقى في الفندق الذي يسكن فيه بميونخ الأنسة ماري جوردون، التي رآها من قبل في مسرح فاجنر. كانت امرأة إنجليزية طويلة، نحيلة مع قليل من اللحم الرقيق؛ بجسد رياضية، حيث جعلت فيه الرياضة استدارة أنثوية لطيفة، مما يمنحها مظهرًا شبابيًا، صحيًا ومختنًا لصبي جميل. كان الرأس الأجل: رأس صبي بحار، مع شفافية الخزف الصيني، أنف صغير وردي لكلب مرح، عينين زرقاوين رطبتين وشعر أشقر، ذهبي مائل للأبيض على السطح وذهبي غامق في أعماقه. كان جمالها جميلًا وهشًا؛ الجمال البريطاني الضائع في سن الثلاثين تحت احمرار البشرة البنفسجي والحبيبات الجلدية.

في المطعم، تفاجأ خايمي مرارًا وتكرارًا بنظرة عينها الزرقاوين الصريحتين الجريئتين بهدوء المثبتة عليه. تذهب مع سيدة سمينة،

(٢٨) مسرح المقر: مسرح بُني في قصر المقر الملكي في ألمانيا.

مترهلة ذات وجهٍ متورد، مُرافقة ترتدي الأسود، بقبعةٍ من القش الأحمر وحزام باللون نفسه يقسم صدرها وبطنها إلى نصفين متفخين. كانت شابة وخفيفة، تبدو كأنها زهرة من الذهب وعرق اللؤلؤ داخل فساتين الفلانلة^(٢٩) البيضاء، بتفصيلة رجالية، مع ربطة عنق رجالية. التقاهما فيرر كثيرًا: في بيناكوتكا^(٣٠)، أمام الرسل الأربعة لدورر؛ في جليوثيك^(٣١)، وهو يتأمل رخام أجانيطس^(٣٢)؛ في مسرح الروكوكو في المقر الملكي، حيث غُنيت أعمال موتسارت، قاعة من قرنٍ آخر، بزخرفة من الخزف الصيني والأكاليل المفروضة على المتفرجين استخدام الكعب الأرجواني والشعر المستعار الأبيض. اعتادا على رؤية بعضهما البعض، كان خايمي يستقبلها بابتسامة، فيبدو أنها ترد عليه بخجل مع بريق في عينيها.

ذات صباح، عندما غادر غرفته، وجد الفتاة الإنجليزية على صحن الدرج. كانت تحني نصفها الصباني على الدرابزين.

كانت تصرخ بصوت عصفورة ضعيف، وهي تطلب من عامل المصعد اصطحابها.

- المصعد! المصعد!

حياها فيرر عندما دخل الصندوق المتحرك معها، وقال بضع

(٢٩) الفلانلة: قماش صوف وقطني ناعم.

(٣٠) بيناكوتكا: معرض أو متحف للوحات الفنية في ألمانيا.

(٣١) جليوثيك: متحف في ألمانيا.

(٣٢) أجانيطس: جزيرة قبالة ساحل أتيكا في اليونان.

كلمات فرنسية لبدء محادثة. كانت السيدة الإنجليزية صامته، وهي تحرق فيه مع حرقتيها الزرقاوين الفاتحتين، حيث بدت نجمة ذهبية تطفو فيهما. بقيت بلا حراك كأنها لم تفهمه، لكن خايمي رآها في صالة القراءة وهي تتصفح جرائد باريس.

خرجت السيدة الإنجليزية من المصعد، وسارت بخطوة سريعة إلى المكتب حيث مسؤول الفندق والقلم في يده. استمع إليها بإيماءة مدعورة، كأنه يُجيد عدة لغات وسريع في فهم جميع الضيوف، وخرج من عزلته متجهًا إلى خايمي، الذي يتظاهر بقراءة الإعلانات في البهو، وهو لا يزال منزعجًا من فشله. اعتقد فيرر أنهم لا يتحدثون معه. «سيدي، هذه السيدة تطلب مني أن أقدمك لها».

أضاف صاحب الفندق، وهو يتوجه نحو السيدة الإنجليزية، بهدوء ألماني، مثل شخص يؤدي واجب منصبه:

- السيد النبيل فيرر، ماركيز من إسبانيا.

كان يعرف واجبه. كل إسباني يسافر بامتعة جيدة هو نبيل وماركيز، إلى أن يثبت العكس.

ثم أشار بعينه إلى السيدة الإنجليزية التي تقف صلبة وجادة خلال هذه الرسميات التي بدونها لا يمكن لأي شابة كريمة الأصل أن تتبادل الكلام مع رجل: «الآنسة جوردون، دكتورة في جامعة ملبورن».

مدت الآنسة يدها الصغيرة ذات القفاز الأبيض وصافحت يد فيرر اليمنى بوقاحة رياضية محترفة. حينها فقط قررت التحدث.

- أوه! إسبانيا! أوه، دون كيخوت!

دون أن يدركا، غادرا الاثنان الفندق وهما يتحدثان عن العروض التي يحضرانها مساءً. لم يكن ذلك اليوم مخصصاً للمسرح، كانت تفكر في الذهاب إلى المرج المسمى ثيرزينفيس، عند سفح تمثال بافاريًا، لمشاهدة معرض سكان تيروول والاستماع إلى أغانيهم. بعد الغداء في الفندق قاما بزيارة أرض المعارض؛ صعدا إلى رأس التمثال الضخم، وهما يتأملان السهل البافاري وبحيراته وجباله البعيدة؛ تجولا في معرض المجد، المليء بتمائيل نصفية لأشخاص بافاريين مشهورين، كانا يقرآن أسماءهم لأول مرة، وانتهى بهما الأمر بالانتقال من كشك إلى كشك، معجبين بشباب التيرولين، ورقصاتهم الرياضية، وزغرداتهم وتغريداتهم تمامًا مثل تغريدات العندليب.

سار الاثنان كأنهما يعرفان بعضهما طوال حياتهما، خايمي معجبًا بحركات الأنسة جوردون تلك الحرية الرجولية للفتيات الساكسونيات، اللاتي لا يخشين الاتصال بالرجال ويشعرن بالقوة لأنهن يحرسن أنفسهن. منذ ذلك اليوم، خرجا معًا للركض في المتاحف والأكاديميات والكنائس القديمة، أحيانًا بمفردهما، وأحيانًا أخرى مع المرافقة التي تبذل جهدًا لمتابعة خطواتهم. لقد كانا رفيقين ينقلان انطباعاتهما دون التفكير مطلقًا في تنوع جنسهما. يشعر خايمي بالرغبة في استغلال هذه العلاقة الحميمة ليغازلها، وقد تجرأ بقليل من الوقاحة؛ لكنه توقف في اللحظة المناسبة. كان فعلاً خطيرًا مع هاتين السيدتين، فظلا لا مبالين ومقاومين لكل أنواع الانفعالات. كان عليه أن ينتظر أن تأخذ هي زمام

المبادرة. هن إناث يمكن أن يخوضن العالم بمفردهن، يشعرن بالقدرة على مقاطعة نوبات الشغف بضربات ملاكمة. رأى بعضهن في رحلاته يحملن مسدسًا صغيرًا مطلقًا بالنيكل، في المُوَفَّة (٣٣) أو في حقيبة يدهن، بين علبة البودرة ومنديلهن.

أخبرته الآنسة ماري عن الأرخبيل المحيطي البعيد، حيث كان والدها نائبًا للملك. لم يكن لديها أم، وقد جاءت إلى أوروبًا لاستكمال دراستها التي كانت في أستراليا. كانت حاصلة على درجة الدكتوراه من جامعة ملبورن؛ دكتوراه في الموسيقى... خايمي يتحدث، وهو يخفي دهشته التي سببتها هذه الأخبار من عالم بعيد.. يتحدث عن نفسه، عن عائلته، عن بلده، عن فضول الجزيرة، وكهف أرتا، العظيم بشكلٍ فظيع، فوضوي مثل غرفة انتظار إلى الجحيم؛ إلى كهوف التين، بغاباته من الهوابط (٣٤) المضيئة، مثل قصر من الجليد، وبحيراته الساكنة التي يبلغ عمرها ألف عام، والتي بدا من بلورتها العميقة أن عُريًا سحريًا مشابهاً لُعري بنات نهر الراين اللاتي كن يحرسن كنز النيبلونج (٣٥). استمعت إليه الآنسة جوردون مندهشة. بدا خايمي كأنه يُعظم نفسه أمام عينيها باعتباره ابن جزيرة الأحلام تلك، حيث دائماً البحر أزرق، تشرق الشمس في جميع الأوقات وتزهر شجرة البرتقال.

(٣٣) المُوَفَّة: زينة ملحقة مصنوعة من أسطوانة من الفرو أو القماش بفتحة في كل طرف؛ للحفاظ على دفء اليدين.

(٣٤) الهوابط: الرواسب الكلسية المتحجرة المتدلية من سقف المغارة.

(٣٥) النيبلونج: شعب أسطوري من الأساطير الجرمانية، أقزام داكنون عاشوا في أعماق الأرض، وكُرسوا لاستخراج المعادن.

شيئاً فشيئاً، قضى فيرر فترات المساء في غرفة الفتاة الإنجليزية. كانا قد انتهيا من عروض مهرجان موتسارت. فقد كانت الآنسة جوردون تحتاج يومياً إلى التغذية الروحية من الموسيقى. كان لديها بيانو في صالونها وكومة من النوتات الموسيقية التي ترافقها في رحلاتها. جلس خايمي بجانبها، أمام لوحة المفاتيح، محاولاً متابعتها كمراقب في المقطوعات التي تعزفها، دائماً المؤلف نفسه، الرب، الأوحده. كان الفندق قريباً من المحطة، وكان ضجيج الشاحنات، السيارات وعربات الترام يثير أعصاب المرأة الإنجليزية، مما جعلها تغلق النوافذ. بقيت المرافقة في غرفتها، وهي راضية عن تلك الموسيقى المنهمرة، التي لا يمكن مقارنتها بمتعة الحياكة الجيدة في أيرلندا. الآنسة جوردون، وحدها مع الإسباني، كانت تعامله كمعلمة.

- لنر، مرة أخرى: لنكرر موضوع «السيف». انتبه.

لكن خايمي كان مشتت الذهن وهو ينظر من زاوية عينه إلى رقبة المرأة الإنجليزية الطويلة شديدة البياض، والمليئة بالشعيرات الذهبية، شبكة من الأوردة الزرقاء التي تظهر قليلاً في بشرتها اللؤلؤية الشفافة.

كانت تُمطر ذات مساء؛ كانت تبدو السماء الرصاصية كأنها تلمس أسطح المنازل؛ في الصالون كان هناك ضوء منبعث من القبو. كانا يعزفان وهما يتلامسان تقريباً، يتقدمان برؤوسهما لقراءة البقعة البيضاء من النوتة. كانت تدوي غابة مفاتنها، وهي تحرك شعرها المفعم بالحياة والصاخب أمام سيخفريد الوقح، ابن الطبيعة البريء، الحريص على معرفة لغة وروح الأشياء الجامدة. كان يغني الطائر الماهر، فيُظهر صوته

العذب المتقطع أعلى من حفيف أوراق الشجر. ارتجفت ماري.

- آه! شاعر! شاعر!

وظل يعزف. ثم، في ظلمة الصالون المتزايدة، رنت الأوتار الفضة التي ترافق البطل إلى القبر؛ مسيرة جنائزية للمحاربين وهم يحملون جسد سيغفريد الممتلئ، الأبيض والأشقر فوق الدرع المستطيلي، قاطعته العبارة الحزينة لإله الآلهة. لا تزال ماري ترتجف، حتى تركت يداها لوحة المفاتيح فجأة، واستقر رأسها على كتف خايمي، مثل طائر يخفض جناحيه.

- آه! ريتشارد! ريتشارد، حبيبي!

رأى الإسباني عينيها الزائغتين وفمها الحزين؛ شعر بيديها الباردتين على يديه، ولفته أنفاسها. سُحقت استدارة خفية من الصلابة المرنة والثابتة على صدره لم يقدر على الشك في وجودها.

ولم تعد هناك موسيقى في ذلك المساء.

في منتصف الليل، عندما استلقى فيرر في الفراش، لم تجاوز بعد دهشته. كان متقدمًا، بَلَغَ أولًا؛ ليس لديه شك. بعد كثير من الاعتبار، هذه هي الطريقة التي تحدث بها الأمور، بأكثر قدر من البساطة، مثل شخص يمد يده، دون أن يفعل هو أي شيء من جانبه.

كانت مفاجأة أخرى له هي سماعها تنادي باسم ليس اسمه. مَنْ يمكن أن يكون ريكاردو؟ ولكن في ساعة التفسيرات اللطيفة والهادئة التي تتبع ساعات الجنون والنسيان، حدثته هي عن الانطباع الذي

شعرت به في بايروت عندما رآته لأول مرة من بين آلاف الرؤوس التي تملأ المسرح. كان هو... هو، كما كانت تمثله صورته وهو شاب! وعندما التقت به مرةً أخرى في ميونيخ تحت السقف نفسه، كانت تشعر أن الحظ قد ابتعد وأنه لا جدوى من سعيها للتخلص من هذا الانجذاب. فحص فيرر نفسه في مرآة غرفته بفضولٍ ساخر، ما الذي تستطيع امرأة أن تكتشفه! أجل؛ كان لديه شيء من الآخر.. الجبين المزعج، والشعر المستقيم، والأنف المدبب، واللحية البارزة التي بمرور السنين تنحني بحثًا عن بعضها، لإعطائه صورة جانبية لساحر... ريكاردو الممتاز والرائع! لماذا أتت لتمنحه واحدة من أعظم السعادات في حياته؟! يا لها من امرأة غريبة الأطوار!

وزادت دهشته في الأيام الأخرى، ممزوجة ببعض المرارة. كانت امرأة تبدو كأنها تتجدد يوميًا، متناسية الماضي. كانت تستقبله بجمود شديد، كأن شيئًا لم يحدث، وكأن الأحداث لم تترك أثرًا فيها، وكأن اليوم السابق لم يكن موجودًا، وفقط عندما تستحضر الموسيقى ذكرى الآخر كانت تأتي الرقة والاستسلام.

عزم خايمي -ساخطًا- على السيطرة عليها: في النهاية كان رجلًا. أخيرًا، تمكن من تقليل صوت البيانو، ورأت في شخصه شيئًا أكثر من مجرد صورة حية للمعشوق.

في نشوتهما السعيدة بدت لهما ميونيخ قبiche، وكان ذلك الفندق -الذي تعارف فيه الغريبان- مزعجًا. شعرا بالحاجة إلى المناجاة بحرية، إلى الطيران بعيدًا، وفي أحد الأيام رأيا أنفسهما في ميناء فيه

أسد حجري في مدخله وخلفه سهل سائل لبحيرة هائلة كانت تندمج مع السماء في خط الأفق. كانا في لينداو. يمكن أن تحملهما سفينة بخارية إلى سويسرا، وأخرى إلى كونستانس، وقد فضلا المدينة الألمانية الهادئة صاحبة المجمع الشهير، حيث ذهبا ليستقرا في فندق الجزيرة، وهو دير دومينيكاني سابق.

كم تأثر فيرر عندما يتذكر هذه الفترة الأفضل في حياته! بقيت ماري بالنسبة له امرأة ذات طابع غريب، كان فيها دائما ما يجب التغلب عليه، ودودة في ساعاتٍ معينة ومنفرة وقاسية بقية اليوم. كانت عشيقته، ومع ذلك لم تستطع أن تسمح لنفسها بالزلة، بالحرية التي تبيع التجاسر في الحياة المبتذلة. أدنى تلميح إلى علاقتهما الحميمة يجعلها تحمر خجلاً مع احتجاج: «مشين!».

ومع ذلك، في كل صباح، عند الفجر، كان فيرر، وهو يتبع أروقة الدير القديم، يعود إلى غرفته، ويُفسد السرير حتى لا يشك الخدم، ويطل من الشرفة. كانت الطيور تغني في حديقة شجيرات الورد الطويلة التي تقع أسفلها. أبعد، كانت تتحول بحيرة كونستانس إلى اللون الأرجواني مع شروق الشمس. كانت تقسم قوارب الصيد الأولى المياه بموجات من اللون البرتقالي؛ تدق أجراس الكاتدرائية من بعيد، يحجبها نسيم الصباح الرطب؛ كانت الروافع تبدأ في الصرير على الشاطئ حيث تنتهي البحيرة، وتتوجه لتتحول إلى نهر الراين؛ وتوقظ حُطى الخدم وفرك عمال النظافة في الفندق أصداء الدير الرهباني.

هناك برج صغير، بجانب الشرفة، مجاور للجدار وقريب جداً،

بحيث يمكن لفبرر لمسه بيده، بغطاء أردوازي ودروع قديمة على جداره الدائري. كان البرج الذي عاش فيه خوان هاس^(٣٦) سجيناً قبل الذهاب إلى المحرقة.

يفكر الإسباني في ماري. في تلك الساعة ستكون في غرفتها شبه المظلمة المعطرة، ورأسها الأشقر الصغير بين ذراعيها، تنام أول نوم جاد في الليل، جسدها متعب ولا يزال نابضاً بالحياة من أشرف المتاعب... خوان هاس المسكين! أشفق عليه خايمي كأنه صديقه. لحرقة أمام مثل هذه المناظر الطبيعية الجميلة، ربما في صباح مثل هذا! للدخول في فم الذئب والتضحية بحياته في حال كان البابا جيداً أو سيئاً، أو كان على العلمانيين أن يتشاركوا النبيذ تماماً مثل الكهنة! أن تموت من أجل مثل هذه الأمور البسيطة عندما تكون الحياة جميلة جداً وكان يمكن للهرطوقي أن يبهجها بشكلٍ رائع مع أي من الشقراوات ممثلاث الصدر والأرداف، صديقات الكراذلة، اللاتي شهدن تعذيبه! الشفيح التعيس! كان فبرر يشفق بشكلٍ ساخر على بساطة الشهيد. يرى الحياة بعينين مختلفتين.. يحيا الحب! كان الشيء الوحيد الجاد في الحياة.

بقيا ما يقرب من شهر في المدينة الأسقفية القديمة، يتجولان عند الغسق في الشوارع المنعزلة التي يغطيها العشب، بقصورها المدمرة من وقت المجمع؛ الهبوط في زورق ضيق في نهر الراين على طول الضفاف المحاطة بالغابات؛ يتوقفان ليتأملوا البيوت الصغيرة ذات

(٣٦) خوان هاس: يُشار إليه في النصوص التاريخية باسم يوهانس هوس أو يوهانس هاس، كان لاهوتياً وفيلسوفاً تشيكيًا، ثم أصبح مصلحاً كنسيًا.

الأسقف الحمراء والعرائش الواسعة التي كان يغني تحتها البرجوازيون والجرة في أيديهم، ببهجة مدير جوقة جرمانية، رصينة وهادئة.

ذهبا من كونستانس إلى سويسرا، ثم إلى إيطاليا. أمضيا عامًا معًا، وهما يتأملان المناظر الطبيعية، ويشاهدان المتاحف، ويزوران الأطلال، التي يستغل خايمي انعطافتها ومخابئها لتقبيل بشرة ماري اللؤلؤة، مستمتعين بجمال وجهها المتورد خجلًا وبإيماء الغضب التي كانت تحتج بها: «مشين!». كانت المرافقة -التي لم يكن يشعر بها كأنها حقيقية لمستلزمات الموضة في الرحلة- تواصل حياكة معطف من قماش آيرلندي بدءًا من ألمانيا، ثم استمرت عبر جبال الألب، على طول جبال أبيني وعلى مرأى من فيزوف وإتنا. امتنعت عن التحدث مع فيرر الذي يجهل الإنجليزية، كانت تحييه بلمعة أسنانها المائلة إلى الصفرة وتعود إلى عملها، كأنها شخصية زخرفية في قاعات الفنادق.

كانا العاشقان يتحدثان عن الزواج. قامت ماري بحل الموقف بسرعة كبيرة. تحتاج فقط إلى كتابة سطرين إلى والدها. كان بعيدًا جدًا، بالإضافة إلى أنها لم تكن تستشيرَه أبدًا في أي مسألة. كان يوافق على أي شيء تفعله، واثقًا من عقلها وحكمتها.

كانوا في صقلية، الأرض التي تُذكر فيرر بجزيرته. عبر أيضًا شيوخ العائلة من هناك، لكن بدروع على صدورهم وفي صحبة سيئة. تتحدث ماري عن المستقبل، وهي ترتب الجزء المالي من الشراكة المستقبلية بالحس العملي لعرقها. لم يكن مهمًا بالنسبة لها أن فيرر لديه ثروة قليلة: كانت هي غنية لكليهما. وكانت تُعدد جميع ممتلكاتها وأراضيها

ومنازلها وسنداتها، كوصيٍّ متأكد من ذكراته. عند عودتهم إلى روما كانا سيتزوجان في الكنيسة الإنجيلية الصغيرة والكنيسة الكاثوليكية. تعرف كاردينالاً وفرَّ لها زيارة للبابا. سيرتب نيافته كل شيء.

أمضى خايمي ليلة صافية في فندق في سرقوسة. هل تزوجا؟ كانت ماري لطيفة: تُجمل الحياة وتحمل معها ثروة. لكن هل تزوجته هو حقاً؟ بدأ يضايقه الآخر، الشبح المشهور الذي يظهر في زيورخ، وفي البندقية، وفي جميع الأماكن التي زاروها، والتي احتفظت بذكريات مرور الموسيقى. قد يكون كَبُر في العمر، والموسيقى -منافسه المخيف- ستبقى دائماً عذبة. في غضون سنوات قليلة، عندما يسلب الزواج من علاقتهما سحر ما هو غير مشروع، لذة الممنوع، ستجد ماري قائداً لأوركسترا أكثر شبهاً للآخر، أو عازف تشيلو قبيحاً، طويل الشعر، ولبضع سنوات يذكرها ببيتوفن الفتى. علاوة على ذلك، كان من عِرْقٍ آخر، من عادات ومشاعر أخرى. لقد سئم ذلك التحفظ متصنع الحياء في الحب، من تلك المقاومة للاستسلام النهائي الذي يحبه في البداية، مثل تجدد المرأة، لكنه انتهى بتعبه. لا؛ كان لا يزال وقت الخلاص.

قال وهو يحزم حقيبته في الفجر:

- آسف لما ستعتقده عن إسبانيا... أنا آسف لأجل دون كيخوت.

وهرب، ليضيع في باريس، حيث لن تذهب السيدة الإنجليزية للبحث عنه. تكره هذه المدينة الناكرة للجميل بسبب صفير استهجان تائهاوزر، حدث وقع قبل سنوات عديدة من ولادتها.

من هذه العلاقات -التي استمرت عاماً- احتفظ خايمي فقط

بذكرى السعادة التي كُبرت وازداد جمالها بمرور الوقت وخصلة كبيرة من شعرٍ أشقر. يجب أن يكون لديه أيضًا من بين عدة أدلة السفر وعدة بطاقات البريدية التي تحتوي على مناظر، محفوظة في خزانة قديمة في بيته الكبير، صورة لعالمة الموسيقى، وهي ترتدي ثوبًا بأكمام طويلة وقبعة مربعة مع شرابة تتدلى منها.

بالكاد يتذكر الحياة التي عاشها بعد ذلك. كانت فراغًا من الضجر الذي تقطعه الهموم المالية. كان وكيله متأخرًا وبائسًا في تحويلاته. يسأله خايمي عن المال، فيجيب برسائل حزينة، يتحدث عن الفائدة التي يجب دفعها، وعن الرهون العقارية الثانية التي بالكاد يجد مقرضين لها، عن عدم انتظام الثروة التي لا يوجد فيها شيء خالٍ من الالتزامات.

قام فبرر برحلاتٍ قصيرة إلى مايوركا؛ اعتقادًا منه أن حضوره يمكنه من حل هذا الوضع السيئ، والذي ينتهي دائمًا ببيع مزرعة ما؛ وكان بمجرد رؤيته للمال في يديه، يطير مرةً أخرى، دون الاستماع إلى نصيحة وكيله. يمنحه المال تفاؤلًا مبهيًا. كل شيء سيُسوى. في اللحظة الأخيرة كان يعتمد على الزواج. في هذه الأثناء.. ليحيا!

ولا يزال يعيش بضع سنواتٍ أخرى، أحيانًا في مدريد، وأحيانًا في المدن الكبرى في الخارج، حتى أنهى الوكيل أخيرًا هذه الفترة من التبذير المبهج بإرسال استقالته وحساباته ومعها رفضه الاستمرار في تحويل الأموال.

كان في الجزيرة لمدة عام مدفونًا، كما كان يقول، دون أي تسلية

أخرى سوى ليالي القمار في الكازينو وأمسيات يقضيها في بورن على طاولة مع رفاقه القدامى، وسكان الجزر المستقرين الذين يستمتعون بروايات رحلاته. المشاكل والمآسي: كانت هذه حقيقة حياته الحالية. يهدده الدائنون بالحجز الفوري.

على ما يبدو أنه لا يزال يحتفظ بأراضي عائلة فيرر وممتلكات أخرى لأسلافه، لكن كانت الملكية تنتج قليلاً في الجزيرة؛ كانت الإيجارات -حسب الأعراف التقليدية- هي نفسها كما كانت في زمن أجدادهم، حيث كانت عائلات المستأجرين تتمتع بالمزارع إلى الأبد. وقد كانوا يدفعون مباشرة لدائنيهم، لكن مع ذلك لم يوفوا نصف الفوائد. احتفظ بزخارف القصر الغنية فقط كوديعة. غرق منزل عائلة فيرر الأصيل، ولم يتمكن هو من الخروج من الورطة. في بعض الأحيان يفكر في الخروج من الوضع السيئ بطريقة مناسبة دون إذلال أو خزي، فيجدونه ذات مساء في الحديقة، نائماً إلى الأبد تحت شجرة برتقال، ومسدس في يده اليمنى.

في مثل هذه الحالة، اقترح عليه أحدهم فكرة عندما كان يغادر الكازينو بعد الثانية صباحاً، في وقتٍ يجعل الأرق العصبي الأشياء تظهر في ضوءٍ غير عادي والذي يبدو أنه يمنحهم راحة مختلفة. كان دون بنيتو بايس، التشويثا الثري، يقدره جداً. كان يتدخل عدة مرات بشكلٍ عفوي في شؤونه، ينقذه من خطر وشيك. كان تعاطفاً مع شخصه واحتراماً لاسمه. كان لدى بايس وريثة واحدة فقط، وإلى جانب ذلك

كان مريضاً: سرعة التكاثر المفرطة في عرقه كذبت في حالته. كانت ابنته كاتالينا تريد أن تصبح راهبة في سن المراهقة؛ ولكن الآن -بعد بلوغها العشرين عاماً- كانت تشعر بحب كبير بسبب عبث العالم، وتشفق بحنان على فيرر عندما يتحدثون أمامها عن مصائبه.

قاوم خايمي الاقتراح بقدر من الاستغراب مثل مادو أنطونيا. تشويهاً! لكن الفكرة كانت تفتح طريقاً، وتنزلق في الثقب المستمر بسبب الأزمات والبؤس المتزايد المصاحبين لكل يوم. ولم لا؟ ابنة بايس كانت أغنى وريثة في الجزيرة، والمال ليس له دماء أو عرق.

أخيراً استجاب لإلحاح بعض الأصدقاء، والوسطاء المجتهدين بينه وبين الأسرة، وفي ذلك الصباح كان ذاهباً لتناول الغداء في المنزل في بايدموسا، حيث يعيش بايس معظم العام؛ للتخفيف من الربو الذي يصيبه بالاختناق.

بذل خايمي جهداً وهو يتذكر كاتالينا. رآها عدة مرات في شوارع بالما. هيئة جيدة ووجه جميل. عندما تعيش بعيداً عن أسرتها وترتدي ملابس أفضل، ستكون سيدة أنيقة.. لكن هل يمكن أن يحبها؟

ابتسم فيرر متشككاً. هل كان الحب ضرورياً للزواج؟ كان الزواج رحلة لشخصين لبقية الحياة، فقط على المرء أن يبحث في المرأة عن الشروط المطلوبة في رفيق الرحلة: حسن الخلق، وتشابه الأذواق، والهوايات نفسها في الأكل والنوم.. الحب! اعتقد الجميع أن لهم الحق

فيه، والحب مثل الموهبة، مثل الجمال، مثل الثروة، سعادة خاصة لا يتمتع بها سوى عدد قليل جداً من المتميزين. لحسن الحظ، يخفي الخداع عدم المساواة القاسية، وكان يُنهي جميع البشر أيامهم وهم يفكرون بحنين في الشباب، معتقدين أنهم عرفوا الحب حقاً، في حين أنهم لم يشعروا بشيءٍ آخر سوى هذيان ملامسة البشرة.

كان الحب شيئاً جميلاً، لكنه شيء يمكن الاستغناء عنه في الزواج وفي الحياة. كان الشيء المهم هو اختيار رفيقة جيدة لبقية الرحلة؛ والاستقرار جيداً في مقاعد الحياة؛ وترتيب خطوة الاثنين بالإيقاع نفسه، بحيث لا يكون هناك قفزات أو تصادمات؛ السيطرة على الأعصاب، وأن الجلد لا ينفر من ملامسة الحياة المشتركة؛ والقدرة على النوم مثل رفيقين جيدين، مع احترام متبادل، دون إيذاء ركبهما أو وضع مرفقيهما في ضلوعهما.. كان يتوقع أن يجد كل هذا، وهو راضٍ.

ظهرت بايديموسا فجأةً أمامه على قمة تل محاط بالجبال. كان يرتفع برج كارتوخا -المزين بالبلاط الأخضر- فوق الأوراق الملتفة لحدائق الصوامع.

رأى فيرر عربة لا تتحرك في منعطف على الطريق. نزل رجل منها، وهو يلوح بذراعيه لحارس خيمي ليووقف بهائمه. ثم فتح الباب الصغير وصعد ضاحكاً ليجلس بجانب فيرر.

قال باستغراب:

- مرحبًا أيها القبطان!

- لم تتوقعني، أليس كذلك؟ أنا أيضًا جئت للغداء؛ لقد دعوت نفسي. يا لها من مفاجأة لأخي!

صافح خايمي ييمينه. كان أحد أصدقائه الأكثر ولاءً؛ الكابتن پابلو بايس.



كان پابلو بايس معروفاً في جميع أنحاء پالما. عندما يجلس على شرفة أحد المقاهي في بورن، تتشكل حوله دائرة ضيقة من المستمعين، الذين يتسمون لإيماءاته الحيوية وصوته الصاخب، غير قادر على أن تكون نبرته متحفظة.

- أنا تشويتا، وماذا في ذلك؟ يهودي حتى النخاع! كلنا في عائلتي نأتي من الشارع. عندما كنت أقود روجر دي لونا ذات مرة وأنا في الجزائر توقفت عند باب الكنيس، وقال رجل عجوز بعد أن نظر إليّ: «يمكنك الدخول؛ أنت واحد منا». وصافحته وأجبت: «شكراً، يا أخي في الدين».

ضحك المستمعون، وكان القبطان بايس -وهو يعلن بصوت عالٍ عن مكانته كشويتا- ينظر في كل مكان كأنه يتحدث المنازل والناس وروح الجزيرة المعادية لعرقه بدافع الكراهية السخيفة لقرون.

وجهه يشي عن أصله. كشف السالفان الأشقران والرماديان المتصلان بشاربٍ قصير أن البحار تقاعد من الملاحة؛ لكن فوق هذه الزخارف الشعرية تبرز صورته السامية الجانبية، وأنفه المنحني الضخم،

وذقنه البارزة وعيناه ذوا الجفون الواسعة، مع بؤبؤ كهرماني أو ذهبي، بحسب الضوء، حيث تبدو بعض النقاط التي لونها لون تبغ يطفو.

أبحر كثيرًا؛ وعاش فترات طويلة في إنجلترا والولايات المتحدة، وبسبب إقامته في أراضي الحرية هذه، غير المبالية بالأحقاد الدينية، كان يمتلك صراحةً عدوانية تدفعه إلى تحدي قلق الجزيرة الهادئة والساكنة في ركودها. أما التشويبتا الآخرون الخائفون لعدة قرون من الاضطهاد والازدراء، فكانوا يُخفون أصلهم أو يحاولون جعله منسيًا بوداعتهم. كان القبطان بايس يستغل كل فرصة للتحدث عنه، متفاخرًا به مثل لقب نُبل، مثل تحدّد كان يطرد القلق العام.

يظل يصرخ:

- أنا يهودي، وماذا في ذلك؟ أخ في الدين ليسوع، للقديس پابلو والقديسين الآخرين الذين يُبجلون على المذابح. يتحدث الأشراف بفخرٍ عن أجدادهم، الذين يعود تاريخهم إلى الأمس تقريبًا. أنا أكثر نُبلًا وأكبر سنًا. كان أسلافي بطاركة الكتاب المقدس.

ثم أصبح عدوانيًّا غاضبًا من المخاوف التي احتدمت في عرقه. يقول بجديّة:

- في إسبانيا، لا يوجد مسيحي يمكنه أن يحرك ساكنًا. نحن جميعًا أحفاد اليهود أو المغاربة. والشخص الذي لا... الذي لا...

هنا كان يتوقف، وبعد وقفة قصيرة أكد بحزم:

- والشخص الذي لا يكون كذلك، هو حفيد راهب.

في شبه الجزيرة لا تُعرف الكراهية التقليدية لليهودي التي لا تزال تقسم سكّان مايوركا إلى جنسين. كان پابلو بايّس غاضبًا من الحديث عن موطنه. لم يكن فيها يهود متدينون. منذ قرون تم حلّ آخر كنيس يهودي. تحول الجميع بشكلٍ جماعيٍّ، وُحرق المتمردون من قبل محاكم التفتيش. كان التشويتا الآن -الكاثوليك الأكثر ايمانًا في مايوركا- يحملون في معتقداتهم تعصبًا ساميًا. يصلون بصوتٍ عالٍ، ويجعلون أبناءهم قساوسة، ويسعون للحصول على نفوذ لوضع بناتهم في الأديرة، ويرزون كأشخاص ذوي مال من بين مؤيدي الأفكار الأكثر تحفظًا، ومع ذلك فإن الكراهية نفسها أثرت عليهم كما حدث في القرون الأخرى. وعاشوا منعزلين، دون أن ترغب أي طبقة اجتماعية في التحالف معهم.

تابع القبطان بايّس وهو يصيح:

- لمدة أربعمئة وخمسين عامًا حملنا ماء المعمودية على أعناقنا، ولا نزال ملعونين منبوذين، كما كان الحال قبل التحول. أليس هذا مضحكًا؟... «جماعة التشويتا! احترس منهم! أشرار!». في مايوركا توجد كاثوليكيّتان: واحدة لنا والأخرى للآخرين.

ثم قال البحار -بكراهية تظهر فيها جميع الاضطهادات محتشدة- وهو يشير إلى إخوته في العرق:

- لقد اعتادوا عليها لكونهم جناء؛ لأن لديهم الكثير من الحب للجزيرة، لروكيّا^(٣٧) حيث ولدنا. لأجل أن لا يتخلوا عنها أصبحوا

(٣٧) روكيتا: اسم تدليل يطلقه المايوركيين للإشارة إلى جزيرتهم.

مسيحيين، واليوم بعد أن أصبحوا حقًا كذلك، يتم دفعهم بالركلات. لو أنهم ظلوا يهود، مع انتشارهم في جميع أنحاء العالم كما فعل الآخرون، فربما سيكونون الآن شخصيات مرموقة ومصرفيين لملوك، بدلًا من أن يكونوا في المتاجر الصغيرة في الشارع يصنعون أكياسًا من الفضة.

مشككًا في الأمور الدينية، كان يحتقر أو يهاجم الجميع: اليهود المخلصين لمعتقداتهم القديمة، المتحولين، الكاثوليك، المسلمين، الذين عاش معهم في رحلاته إلى سواحل إفريقيا وفي مواني آسيا الصغرى. وفي أحيانٍ أخرى يشعر أنه يسيطر عليه حنو متأسل، وهو يُظهر بعض الاحترام الديني اتجاه عرقه.

كان ساميًا: يعلن ذلك بفخرٍ وهو يضرب على صدره: «أول شعب في العالم».

- كنا بخلاء نتصور جوعًا عندما كنا نعيش في آسيا؛ لأنه لم يكن هناك من نتاجر معه أو نقرضه المال. لكن لا أحد سوانا منح القطيع البشري رُعاته الحاليين، الذين سيظلون سادة البشر لقرون عديدة. موسى وعيسى ومحمد هم من أرضي... يا لهم من ثلاثة شركاء أقوياء، أليس كذلك أيها السادة؟ والآن منحنا العالم نبيًا رابعًا، أيضًا من جنسنا ودمنا، فقط له وجهان واسمان. من ناحية، يُدعى روتشيلد وهو قائد كل من يحتفظ بالمال؛ من ناحية أخرى يُدعى كارل ماركس وهو رسول الذين يريدون سلبها من الأغنياء.

أوجز بايس تاريخ عرقه في الجزيرة بطريقته الخاصة في بضع كلمات. كان اليهود كثيرين، كثيرين جدًا، في الماضي. كانت كل

التجارة تقريباً في أيديهم؛ ومعظم السفن ملكهم. لم يكن لدى آل فيرر وغيرهم من أرباب الصناعة والمال المسيحيين أي مخاوف بشأن مشاركتهم. ويمكن تسمية العصور القديمة بالحرية؛ وكان الاضطهاد والهمجية حديثين نسبياً. كان اليهود أمناء خزائن الملوك والأطباء وغيرهم من الحاشية في ممالك القرون الوسطى لشبه الجزيرة. عندما بدأت الكراهية الدينية، كان أغنى وأذكى يهود الجزيرة يعرفون كيف يتحولون في الوقت المناسب طواعيةً، مندمجين مع العائلات في الدولة وجعلهم ينسون أصولهم. هؤلاء الكاثوليك الجدد، بحماسة حديثي التنصر، هم الذين حرصوا لاحقاً على اضطهاد إخوتهم السابقين. أصبحت جماعة التشويتا اليوم -المايوريكيون الوحيدون من أصل يهودي معروف، من نسل آخر المتحولين- أحفاد العائلات التي نكلت بها محاكم التفتيش.

كونك تشويتا، قادماً من شارع بلاتيريا، الذي يُطلق عليه اسم (الشارع) كنايةً، كان أسوأ بلية يمكن أن تحدث لمايوريكي. وعبثاً حدثت ثورات في إسبانيا، وأقرت القوانين الليبرالية التي تعترف بالمساواة بين جميع الإسبان؛ كان التشويتا -عندما يذهب إلى شبه الجزيرة- مواطناً مثل الآخرين، لكنه في مايوركا كان منبوذاً كنوع من الأشخاص الموبوءين بالطاعون، ولا يمكن أن يُصاهر إلا من جماعته.

يعلق بايس بسخرية على النظام الاجتماعي الذي عاشت فيه الطبقات المختلفة في الجزيرة، متدرجةً لقرون، وعلى النظام الذي لا يزال كثير من طبقاته على حالها. أعلاه، في الجزء العلوي، الأشراف

المتفاحرون؛ ثم النبلاء، ثم الفرسان؛ ثم المتطفلون من الطبقة الوسطى؛ بعد هؤلاء التجار والعُمال، ثم الفلاحون، ومزارعو الأرض. هنا يُفتح قوس هائل بالترتيب الذي يتبعه الله عند خلق بعضهم وبعضهم الآخر: مساحة خالية واسعة يمكن لكل واحد أن يسكنها حسب هواه. مما لا شك فيه أن وراء المايوركيين النبلاء والعوام كان يأتي في ترتيب هام الخنازير والكلاب والحمير والققط والجردان... وعند ذيل كل بهائم الرب هذه، الجار المكروه من (الشارع)، التشويتا، منبوذ الجزيرة. لم يكن أحد يهتم أنه ثريٌّ مثل شقيق الكابتن بايس، أو ذكي مثل الآخرين. كان كثيرون من جماعة التشويتا موظفين في الدولة في شبه الجزيرة، جنودًا وقضاة واقتصاديين، وعند عودتهم إلى مايوركا، يجدون أن آخر متسول كان يعتبر نفسه متفوقًا عليهم، وعندما يعتقد أنهم انزعجوا، كان ينفجر في إهاناتهم وإهانة عائلاتهم. ساعدت عزلة هذه القطعة من إسبانيا المحاطة بالبحر على الحفاظ على روح العصور الماضية لم تُمس.

عبثًا كان التشويتا - وهم يهربون من هذه الكراهية التي بقت خلال التقدم - يبالغون في كاثوليكيّتهم بإيمانٍ قوي وأعمى، أثر فيه كثيرًا رعب متغلغل في أرواحهم وأجسادهم بسبب الاضطهاد لقرون. وعبثًا يستمرون في الصلاة بصوتٍ عالٍ في منازلهم، حتى يكتشف الجيران في الشارع، مقلدين في هذا أجدادهم، الذين كانوا يفعلون الشيء نفسه بالإضافة إلى أنهم كانوا يطبخون الطعام على النواذ حتى يرى الجميع أنهم يأكلون لحم الخنزير. لم تُهزم الكراهية الموروثة للفصل. كانت

الكنيسة الكاثوليكية - التي تدّعي أنها عالمية - قاسية وبصعب عليهم الاقتراب منها في الجزيرة، وهي تُكفّر عن رأيها بنفورٍ فظ. لم يتمكن أبناء التشويتا الذين يتمنون أن يكونوا قساوسة من العثور على مكان في المدرسة الإكليريكية. أغلقت الأديرة أبوابها في وجه جميع المبتدئين القادمين من (الشارع). كانت تتزوج بنات التشويتا من رجال مرموقين أو رجال أصحاب ثروات كبيرة في شبه الجزيرة، لكن في الجزيرة بالكاد يجدون مَنْ يقبل أيديهم وثرواتهم.

تابع بايس قائلاً بسخرية:

- أناس أشرار! إنهم عمال يدخرون ويعيشون بسلام في حُضن عائلاتهم، حتى أنهم أكثر كاثوليكية من الآخرين؛ لكنهم تشويتا، وسيحصلون على شيء ما عندما يكرهونهم. يحصلون على... (شيء ما)، هل تتساءلون حضراتكم؟ (شيء ما). مَنْ يريد معرفة مزيد عليه أن يكشف ذلك.

وكان البَحَّار يضحك وهو يتحدث عن الفلاحين الفقراء من الريف، الذين يؤكّدون حتى سنوات قليلة بحسن نية أن التشويتا مغطون بالوسخ ولهم ذبول، مستغلين فرصة العثور على طفل وحيد من (الشارع) لخلع ملابسه والافتناع بصحة الذيل الكبير.

تابع بايس:

- وماذا عن أخي؟ وماذا عن أخي القديس بنيتو، الذي يصلي بصوتٍ عالٍ ويبدو أنه سيأكل الصور؟

يتذكر الجميع حالة دون بنيتو بايس، ويضحكون حقاً، حيث كان الأخ أول من يسخر من الحادثة. وجد التشويتا الثري نفسه مالِكاً لمنزلٍ وأراضٍ ثمينة في قرية داخل الجزيرة، عندما كان يجمع بعض الاعتمادات. وعندما ذهب ليأخذ ملكية العقار الجديد، قدم له الجيران الأكثر حكمة له نصائح جيدة. كان سيداً يزور مزرعته في أثناء النهار، لكن هل يقضي الليل في منزله؟ أبداً! لم يكن هناك ذكر لتشويتانام في القرية. لم ينتبه دون بنيتو لهذه النصيحة وبقي ليلة في ممتلكاته؛ ولكن بمجرد دخوله إلى السرير، هرب المستأجرون. عندما سئم السيد من النوم، قفز من الفراش. لم يدخل حتى أضعف وهج خلال الشقوق. كان يظن أنه نام اثنتي عشرة ساعة على الأقل، لكن كان لا يزال ليلاً. فتح نافذة، وارطم رأسه بقسوة في الظلام؛ حاول عبور الباب، ولم يستطع. في أثناء نومه، كان الحي قد سد جميع الفجوات والمخارج، وكان على التشويتا أن ينقذ نفسه من خلال السطح، وسط قهقهة الناس الذين يحتفلون بعملهم. هذه النكتة كانت فقط على سبيل التحذير؛ إذا أصر على مخالفة عادات البلدة، في إحدى الليالي سيستيقظ بين النيران. أضاف القبطان:

- بربري جداً، لكنه مضحك! أخي! شخص طيب! قديس!

ضحك الجميع عند سماع هذه الكلمات. استمر في التعامل مع شقيقه، على الرغم من بعض البرود، ولم يُخفِ الإهانة التي لحقت به معه. كان القبطان بايس هو بوهيمي العائلة، دائماً في البحر أو في الأراضي البعيدة، يعيش حياة العازب السعيد. كان لديه ما يكفي

ليعيش. وعندما توفي والده، تولى شقيقه إدارة المنزل، وانتزع منه عدة آلاف من الدورو.

سارع پابلو ليضيف:

- كما هو الحال بين المسيحيين القدامى! في الميراث لا توجد أجناس أو عقائد. المال لا يعرف الدين.

الاضطهاد اللا متناهي الذي عانى منه أسلافه يُزعج بايس. كل الظروف كانت جيدة لدعس أهل (الشارع). عندما كان للفلاحين مظالم مع النبلاء وكان الأغراب ينزلون في عصابات مسلحة ضد مواطني پالما، حُل النزاع بالاعتداء على بعضهم في حي التشويتا، يقتلون مَنْ لم يفروا ويسرقون متاجرهم. إذا تلقت كتية مايوركية الأوامر بالسير إلى إسبانيا في حالة الحرب، كان الجنود يتمردون، يتركون الشكنات وينهبون (الشارع). عندما كان هناك ردود فعل في إسبانيا على الثورات، كان الملكيون، من أجل الاحتفال بانتصارهم، يداهمون محلات الصاغة الخاصة بالتشويتا، ويستولون على ثرواتهم ويشعلون النيران في الأثاث، ويلقون حتى الصלבان في ألسنة اللهب... صلبان خاصة باليهودي القديم، بالضرورة تكون مزيفة!

صرخ القبطان:

- وَمَنْ هم أهل (الشارع)؟ كما هو معروف: أولئك الذين لديهم أنوف وأعين مثلي. ولكن هناك كثير من التشويتا ذُلِف ولا يشبهون أيًا من النموذج الشائع. وعلى العكس، كم عدد الذين يعتبرون أنفسهم فرساناً قدامى، ذوي نبالة متعجرفة، لهم وجه لا يمثل حتى وجه إبراهيم ويعقوب؟

كانت هناك قائمة بالألقاب المريبة لمعرفة التشويّتا الحقيقيين. لكن هذه الألقاب نفسها يحملها المسيحيون القدامى، وكانت التقلبات المعهودة هي التي تفصل أحدهم عن الآخر. فقط مُيّزت العائلات المنحدرة من أصول تعرضت للجلد أو الحرق من قبل محاكم التفتيش بسبب الكراهية الشعبية. لا شك أن فهرس الألقاب الشهير مأخوذ من سجلات المكتب المقدس^(٣٨).

- فرحة أن تصبح مسيحيًا! الأجداد متفحمون في المحرقة والأحفاد مُيّزوا ولُعِنوا إلى الأبد.

فقد القبطان نبرته الساخرة عندما تذكر التاريخ المرعب للتشويّتا المايوركيين. احمرت وجنتاه ولمعت عيناه بوهج من الكراهية. للعيش في سلام، تحولوا جميعًا بشكل جماعي في القرن الخامس عشر. لم يتبقَّ يهودي واحد في الجزيرة، لكن كان على محاكم التفتيش أن تفعل شيئًا لتبرير وجودها، وكانت هناك حرائق لليهود المشتبه بهم في بورن، ونظمت عروض، كما يقول مؤرخو ذلك العصر: «وفق الاحتفالات الأكثر روعة من أجل انتصار الإيمان في مدريد وبالرمو وليما».

حُرق بعض التشويّتا، وتعرض بعضهم الآخر للجلد، وخرج آخرون فقط للتشنيع بطرطور يصورونهم كالشياطين ويدهم شمعة خضراء؛ لكن الجميع رأوا ممتلكاتهم تُصادر على حدٍّ سواء، واغتنت المحكمة المقدسة. منذ ذلك الحين، كان على أولئك المشتبه فيهم

(٣٨) المكتب المقدس: محكمة تابعة لمحاكم التفتيش التي أسسها الملوك الكاثوليك عام ١٤٧٨؛ للحفاظ على الأرثوذكسية الكاثوليكية في ممالكهم.

لأجل يهوديتهم، والذين لم يكن لديهم رجل دين حامٍ، أن يذهبوا كل يوم أحد لحضور القداس في الكاتدرائية مع عائلاتهم، تحت قيادة وحراسة مأمور قضائي، والذي يشكلهم في قطع، يضع عباءة عليهم حتى لا يربكهم أحد، ويأخذهم إلى الهيكل وسط صافرات استهجان، شتائم وضرب بالحجارة من العوام المتدينة. كان هذا يوم أحد وأحد آخر، وفي هذه المحنة الأسبوعية التي لا نهاية لها كان يموت الآباء ويصبح الأبناء رجالاً، فيولد مجتمع تشويتا جديد مُعد للإهانة العامة.

اجتمعت بعض العائلات معاً للهروب من هذه العبودية المخزية. والتقوا في بستان بجوار السور، وتم توجيه النصيح والإرشاد من قبل أحدهم وهو رافايل بايس، المفعم بالحيوية والمثقف للغاية.

قال القبطان:

- لا أعرف على وجه اليقين ما إذا كان أحد أقاربي. لقد مر أكثر من قرنين منذ ذلك الحين! ولكن إذا لم يكن كذلك، فأنا أريده أن يكون... يشرفني جداً أن يكون جدي. هيا!

كان پابلو بايس قد جمع في منزله أوراقاً وكتباً من وقت الاضطهاد، وكان يتحدث عنه على أنه حَدَث وقع قبل أيام.

- أبحر رجال ونساء وأطفال على متن سفينة إنجليزية؛ لكن عاصفة أعادتها إلى سواحل مايوركا، وتم القبض على الهاربين. كان كارلوس الثاني الفاتن يحكم إسبانيا. يرغبون في الفرار من مايوركا، حيث عُمِلوا معاملة حسنة، وأكثر من ذلك، في سفينة يقودها اللوثريون! تم سجنهم لمدة ثلاث سنوات، ونتج عن مصادرة ممتلكاتهم مليون

دورو. بالإضافة إلى استحواذ المحكمة المقدسة على ملايين أخرى من الضحايا السابقين، وبنت قصرًا في بالما، كان أفضل وأفخم محاكم التفتيش في أي مكان. تم تعذيب السجناء حتى اعترفوا بما أراده قضاتهم، وفي ٧ مارس ١٦٩١ بدأت عمليات الإعدام. كان لهذا الحدث مؤرّخ لا مثيل له في العالم، الأب جاراو، القديس اليسوعي، نبع العلوم اللاهوتية، رئيس مدرسة مونتي- سيون الإكليريكية، حيث يوجد المعهد الآن، مؤلف كتاب (الإيمان المنتصر)، نصب أدبي لا أبيعه مقابل كل مال العالم. ها هو يرافقني في كل مكان.

وأخرج من جيبه (الإيمان المنتصر) كتابًا صغيرًا مُجلّدًا في رَق، من طباعة قديمة ضاربة إلى الحمرة، وربّت عليه بعاطفة شديدة.

الأب المبارك جاراو! بعد أن تم تكليفه باستنهاض وتقوية المتهمين، رأى كل شيء عن قرب، وأثنى على الآلاف والآلاف من المتفرجين الذين حضروا من مختلف قرى الجزيرة لحضور الاحتفال، وعلى القدّاسات المهيبة بحضور ثمانية وثلاثين متهمًا محكومًا عليهم بالحرق، وعلى الملابس الفاخرة للسادة والمأمورين القضائيين، والفرسان على جياد وثابة على رأس الموكب، وعلى «شفقة الحشد الذي كان يُطلق في مراتٍ أخرى صرخات نواحٍ عندما يقودون مجرمًا إلى المشنقة، وتبقى صامته أمام هؤلاء الهالكين المنسيين من الرب...». في ذلك اليوم -وفقًا للعلامة اليسوعي- ظهرت شجاعة روح أولئك الذين يؤمنون بالله والذين لا يعرفونه. سار الكهنة متحمسين، وهم يطلقون صيحات استنهاض دون تعب؛ كان المتهمون البائسون

شاحيين، ضعفاء وبلا قوة. كان يُرى جيدًا في أي جزء كانت المساعدة السماوية.

تم اقتياد المحكوم عليهم إلى سفح قلعة بيبير، لإحراقهم نهائيًا. أشفق ماركيز ليجانس حاكم ميلانو الذي يمر عبر مايوركا بأسطوله على شباب فتاة وجمالها محكوم عليها بالنيران وطلب العفو عنها. أشادت المحكمة بالمشاعر المسيحية للماركيز، لكنها لم ترغب في الاعتراف بالتماسه.

كان الأب جاراو مسؤولاً عن إقناع رافايل بايس: «رجل يمتلك بعض الثقافة، لكن الشيطان يلهمه الكبرياء المفرطة، مما دفعه إلى لعن أولئك الذين حكموا عليه بالموت، ودون أن يرغب في التصالح مع الكنيسة». لكن - كما قال اليسوعي - هذه الشجاعة، عمل الشرير، تنتهي أمام الخطر ولا يمكن مقارنتها بهدوء الكاهن الذي يحث المتهم. - كان الأب اليسوعي بطلاً بعيداً عن النيران. الآن سترون حضراتكم كيف يربط التقوى الإنجيلية بوفاة جدي.

وفتح الكتاب على صفحة محددة، قرأ ببطء: «بينما كان الدخان فقط يصل إليه، كان تمثالاً؛ عند وصول اللهب، دافع عن نفسه، وغطى نفسه ونازع قدر استطاعته، حتى أنه لم يعد قادرًا على تحملها. كان سمينًا مثل خنزير صغير رضيع واشتعلت أحشاؤه؛ فحتى عندما لم تصل ألسنة اللهب، كان يحترق لحمه مثل الجذوة؛ وانفجر من الوسط فسقطت أحشائه مثل يهوذا». «انفجر من الوسط وتناثرت أحشاؤه».

هذه القراءة القاسية كان لها دائمًا تأثير. توقف الضحك، وأظلمت

الوجوه، وكان القبطان باّيس يتجول بعينه الكهرمانيتين، وهو يتنفس بارتياح، كأنه حقق انتصارًا للتو، بينما اختبأ الكتاب الصغير مرةً أخرى في جيبه.

بمجرد ظنه أن فيرر بين المستمعين، قال له البحار بصوتٍ حقود:
- كنت هناك أنت أيضًا. بمعنى ليس أنت. حمل أحد أجدادك
-فرد من آل فيرر- العلم الأخضر بصفته كبير حملة الرايات للمحكمة؛
وذهبت سيدات عائلتك في عربة إلى أسفل القلعة ليشهدوا الحرق.

رفع خايمي كتفيه منزعجًا من الذكرى.

- أمور قديمة! من يتذكر ما حدث فعلاً؟ فقط شخص مجنون
مثلك... هيا يا پابلو، أخبرنا شيئًا عن رحلاتك.. عن فتوحاتك النسائية.
تدمر القبطان.. أمور قديمة! كانت روح روكيتا لا تزال كما كانت
في تلك الأيام. كانت كراهية الدين والعرق مستمرة. كانوا يعيشون
منفصلين لسببٍ ما، على قطعة أرض معزولة بالبحر.

لكن سرعان ما استعاد باّيس روح الدعابة، ومثل كل أولئك الذين
طافوا حول العالم، لم يستطع مقاومة الدعوة لإعادة سرد ماضيه.

استمتع فيرر -متسكع آخر مثله- وهو يستمع إليه. كان الاثنان
يعيشان حياة محمولة وعالمية، تختلف عن الحياة الرتيبة لسكان
الجزر؛ كلاهما يُنفق المال ببذخ. كان الاختلاف الوحيد هو أن باّيس
يعرف كيف يكسبه بعقرية عرقه النشطة، والآن وهو أكبر من خايمي
بعشر سنوات كانت لديه الوسائل لتلبية احتياجات عزوبيته المتواضعة

بحرية. لا يزال يتاجر من وقتٍ لآخر، ويقدم عمولات لأصدقائه الذين يكتبون له من موانئ بعيدة.

يستبعد فيرر قصة المجاعات والعواصف من تاريخه المتقلب كبشار، ويشعر بالفضول فقط في شؤون الحب في الموانئ الدولية الكبيرة، حيث تتراكم الرذائل الغربية والإناث من جميع الأجناس. كان بايس -في شبابه- عندما يقود سفن والده، يلتقي نساء من جميع الطبقات والألوان، ويصبح مختلطاً في عريضة بحرية تنتهي بين موجات من الويسكي وضربات بالسكاكين.

- پابلو، احكِ لنا عن تلك العلاقات العابرة في يافا، عندما أراد المغاربة قتلك.

وكان فيرر يقهقه وهو يستمع إليه، بينما يقول البحار لنفسه إن خايمي فتى طيب، ويستحق حظاً أفضل، دون أي عيب آخر سوى كونه شريفاً مرتبطاً إلى حدٍّ ما باهتمامات عائلته.

عندما صعد إلى عربة فيرر على الطريق المؤدي إلى بايدموسا، أمر السائق الذي أحضره إلى هناك بالعودة إلى پالما، وأمال قبعته التي كانت من اللبد المرن، والتي يرتديها في جميع الأوقات، المسطحة من رأسها، مع حافة أمامية مرفوعة وخلفية منحنية على ظهر العنق.

- ها نحن جميعاً! هل حقاً لم تنتظرنني؟ يحكون لي كل شيء، وبما أن هناك حفلة عائلية، فليكن الأمر كاملاً.

تظاهر فيرر بعدم فهمه. دخلت العربة بايدموسا، وهي تتوقف

بالقرب من كارتوخا أمام منزل حديث. عندما مر الصديقان من الحاجز الشبكي للحديقة، رأيا رجلاً نبيلًا بسوالم بيضاء متكئًا على عصا قادمًا نحوهما. كان دون بنيتو بايس. حيًا فبرر بصوتٍ بطيء حزين، وهو يقطع كلماته عدة مرات لاستنشاق الهواء. يتحدث بتواضع، وهو يمجّد بشدة الشرف الذي منحه له فبرر بقبوله دعوته.

وسأل القبطان بابتسامة شريرة:

– وأنا؟ أنا لا أحد؟ ألسنت سعيدًا لرؤيتي؟

كان دون بنيتو سعيدًا برؤيته. قال ذلك عدة مرات، لكن عينيه تكشفان عن قلق. كان أخوه يوحى إليه ببعض الخوف. يا له من هراء! من الأفضل العيش دون رؤية بعضهما البعض.

تابع البحار:

– لقد أتينا معًا. عندما عرفت أن خايمي يتناول الغداء هنا، دعوت نفسي؛ للتأكد من منحك فرحًا غامرًا. هذه التجمعات العائلية تكون ساحرة. لقد دخلوا المنزل الذي زُين ببساطة. كان الأثاث حديثًا ومبتدلاً. وتزين الجدران بعض الملصقات وبعض اللوحات الرهيبة التي تمثل مناظر طبيعية لبايدموسا وميرامار.

نزلت كاتالينا – ابنة دون بنيتو – مسرعة من الطابق العلوي. لا يزال مسحوق الزينة متناثرًا على صدرها، مما يكشف عن سرعة لمستها الأخيرة التي زينت بها نفسها عندما رأت العربة تصل.

تمكن خايمي من النظر إليها بعناية لأول مرة. لم يكن مخطئًا في

تقييماته. كانت طويلة، سمراء كامدة، لها حواجب سوداء، وعينان مثل قطرتي حبر، وزغب خفيف على شفتها وصدغها. بدت رشاقتها الشبابة كاملة وثابتة، تعلن عن تطور أكبر في المستقبل، كما هو حال جميع الإناث من عرقها. تظهر شخصيتها وديعة وخاضعة: رفيقة جيدة، غير قادرة على عرقلة رحلة الحياة المشتركة. خفضت عينيها وتلون وجهها عندما وجدت نفسها أمام خايمي. يمكن للمرء أن يرى احتراماً في سلوكها وفي نظراتها الخفية، وعشقاً من شخص يشعر بالرهبة في وجود كائن يعتبره متفوقاً.

يداعب القبطان ابنة أخته ببعض الحرية، بلفتة رجل عجوز مرح يتحدث مع فتيات بالما الصغيرات، في وقت متأخر من الليل، في أحد مطاعم بورن. آه، أيتها الفتاة اللطيفة! وكم كانت جميلة! كان من المستحيل أن تكون من عائلة قبيحة.

أرشداهم دون بنيتو جميعاً إلى غرفة الطعام. كان الغداء قد تأخر كثيراً؛ في ذلك المنزل كانوا يأكلون بالطريقة القديمة: الساعة الثانية عشرة بالضبط. جلسوا على الطاولة، وكان فيرر -الذي كان بجانب صاحب البيت- منزعجاً من صعوبة تنفسه، بسبب أنفاسه الهائلة التي تقطع كلماته.

في الصمت الذي يحيط دائماً ببداية أي وجبة، كان صوت صفير رئتيه المريضة مؤلماً. مد التشويتا الثري شفتيه، وجعلهما في شكل دائري مثل فم البوق، واستنشق الهواء بضوضاء مرهقة. مثل كل المرضى، كان يشعر بالحاجة إلى الكلام، وكانت كلماته لا تنتهي، بين

تلثم ووقوفات طويلة تتركه مع صدره اللاهث وعينه إلى أعلى، كأنه سيموت مختنقًا. كان ينتشر جواً من عدم الارتياح في غرفة الطعام. كان فيرر ينظر إليه ببعض الفزع، كأنه منتظر رؤيته محتضراً على كرسيه. وبدأ أن الابنة والقبطان -المعتادين على المشهد غير مباينين.

قال الرجل المريض بجهد:

- إنه الربو يا دون خايمي. في بايدموسا... أنا أفضل... كنت أموت في پالما.

واستغلت الابنة المناسبة لتسمعه صوت راهبة صغيرة خجولة، يتناقض مع عينيها الشرقتين المتقدتين:

- أجل؛ يعيش أبي هنا بشكل أفضل.

أضاف القبطان:

- ها أنت أكثر هدوءاً، وارتكبت خطايا أقل.

كان فيرر يفكر في عذاب قضاء حياته بجانب ذلك المنفاخ المكسور. لحسن الحظ سيموت قريباً. مصدر إزعاج لبضعة أشهر لم يكن ليغير قراره بالانضمام إلى الأسرة. هيا!

تحدث المصاب بالربو في هذيانه الطويل إلى خايمي عن نسله، وعن أفراد فيرر اللامعين، أفضل وأنبأ الفرسان في الجزيرة.

- كان لي شرف أن أكون صديقاً مقرباً لجذك السيد أوراثيرو.

نظر إليه فيرر بدهشة... كذب! كان كل من في الجزيرة يعرف السيد جده ويتحدث إلى الجميع، لكنه حافظ على الجدية التي تفرض

الاحترام على الناس دون تنفيرهم. لكن مَنْ هذا إلى كونه صديقه! ربما تعامل معه من أجل أحد القروض التي يحتاجها دون أوراثيرو للحفاظ على ثروته من تدهور تام.

تابع دون بنيتو، يشجعه صمت فيرر:

- كما تعرفتُ على والدك جيدًا. عملت معه عندما أصبح نائبًا. كان ذلك فيما مضى! كنت صغيرًا، ولم أكن أمتلك الثروة التي أمتلكها الآن... حينها أصبحت من (الحُمر)^(٣٩).

قاطعهُ القبطان بايس ضاحكًا. الآن كان شقيقه محافظًا وعضوًا في كل جماعة أخوية في پالما.

صرخ الرجل المريض مختنقًا:

- أجل، أنا كذلك، أحب النظام... أحب ما هو قديم... مَنْ يحكمون يجب أن يخسروا. والدين؟ آه، الدين! سأبذل حياتي من أجله. ووضع يده على صدره، وهو يتنفس بضيق، كأنه يغرق في الحماس. كان يحدق في الأعلى بعينه الميتين، وهو يحترم بدافع الخوف المؤسسة المقدسة التي أحرقت أسلافه.

واصل عندما استعاد تنفسه مخاطبًا فيرر:

- لا تنتبه إلى پابلو؛ أنت تعرفه جيدًا رأس سيي، جمهوري، رجل يمكن أن يكون ثريًا وسيقدم في العمر دون أن يمتلك بيزيتين.

- لماذا؟ حتى تأخذهم مني؟

(٣٩) الحُمر: يقصد هنا الحزب الشيوعي في إسبانيا، ويُرمز إليه باللون الأحمر.

مع هذه المقاطعة المفاجئة للبحار ساد الصمت. حزنت كاتالينا، كأنها كانت تخشى أن المشاهد الصاخبة التي شاهدها عدة مرات عندما يتجادل الشقيقان سيُعاد عرضها أمام فيرر.

رفع دون بنيتو كتفيه، وتحدث إلى خايمي فقط. كان شقيقه مجنوناً: قلب من ذهب، لكنه مجنون.. مجنون تماماً. مع أفكاره الجلييلة وصياحه في المقاهي، كان المذنب الأساسي في تحامل الأشخاص المحترمون ضد... في التحدث بالسوء عن...

ورافق العجوز تعبيراته المقتضبة بإيماءات مستكينة، متجنباً التلفظ بكلمة (تشويتا) وتسمية (الشارع) الشهير.

أراد القبطان -بوجنتيه المتوردتين بسبب ندمه على عدوانيته- أن يجعل كلماته السابقة تُنسى، وكان يأكل بنهم ورأسه منخفض.

ضحكت ابنة الأخت على شهيته الطيبة. كلما أكل معهم، اندهشوا من قدرة بطنه.

قال البحار ببعض الفخر:

- أعرف ما هو الجوع. لقد عانيت من الجوع الحقيقي، الجوع الذي يجعل المرء يفكر في لحم رفاقه.

وانطلق بسبب هذه الذكرى في صميم مغامراته البحرية، كان يتحدث عن أيام شبابه، عندما كان مُلحقاً على متن إحدى تلك الفرقاطات التي تذهب إلى ساحل المحيط الهادئ.

عندما أصر على أن يكون بحاراً، كان والده -بائس العجوز، مُنشئ

ثروة العائلة - قد نقله على متن مركب شراعي يمتلكه يجلب السكر من هافانا. لم يكن هذا إبحارًا. كان الطباخ يحتفظ بأفضل الأطباق له، ولم يكن القبطان يجرؤ على إصدار أمرًا له، وهو يراه ابن مالك السفينة. لن يكون أبدًا بحارًا جيدًا قاسيًا خبيرًا. بفضل الطاقة الصلبة لعرقه، أبحر دون علم والده في فرقاطة تُقلع لحمل ذرق الطيور من جزر تشييتشا، يقودها أشخاص من مدن مختلفة: الإنجليز الهاربون من الأسطول، وأصحاب زوارق من بالباريسو، والهنود البيروييون، وهم أسوأ ما في الأمر، تحت قيادة كاتالوني بخيل، أكثر إسرًا في ضربات السوط منه في الوجبات. كانت رحلة الذهاب منتظمة؛ ولكن في طريق العودة، بعد عبور مضيق ماجلان، ساد الهدوء، وظلت الفرقاطة ثابتة في المحيط الأطلسي لما يقرب من شهر، ونفذ مستودع المؤونة بسرعة. قام المالك البخيل بتزويد السفينة بشحّ فاضح، وقام القبطان بدوره بأكل المؤونة، واستولى على جزء من المبلغ المخصص للشراء.

- كانوا يعطوننا قطعتين من الفطائر الهشة يوميًا، مليتين بالديدان. عندما تلقيت أولهما، تسليت باحتراس، مثل رجل نبيل من منزل جيد، في إزالي تلك الحيوانات الصغيرة واحدة تلو الأخرى. ولكن بعد التنظيف، لم يتبق سوى قشور رقيقة مثل الرقائق المدورة، وكنت أتضور جوعًا. في وقتٍ لاحق...

احتجت كاتالينا، وهي تخمن ما سيقوله، ودفعت الشوكة والصحن بإيماءة من الاشمئزاز:

- أوه، يا عمي!

واصل البحار دونما اكتراث:

- ثم توقفت عن التنظيف وابتلعتهما كاملتين. صحيح أنني كنت أكلها في ليلة... لقد كان كثيرًا بالنسبة لي، يا فتاة! ففي النهاية، كانوا يعطوننا واحدة فقط في اليوم، وعندما وصلت إلى قادش كان عليّ أن أتناول كثيرًا من المرق؛ لتستقر معدتي.

في نهاية الغداء، خرجت كاتالينا وخايمي إلى الحديقة. أمر دون بنيتو بنفسه -بمظهر وقور- ابنته بمرافقة السيد فيرر لتُريه بعض شجيرات الورد من صنف غريب زرعه. بقي الشقيقان في الغرفة التي كانت بمثابة مكتب، يشاهدان الزوجين اللذين يتنزهان في الحديقة، وانتهى بهما الحال جالسين على كرسيين من القصب في ظل شجرة.

أجابت كاتالينا على أسئلة رفيقها بخجل عذراء مسيحية قديسة متعلمة، وهي تخمن الغرض الخفي وراء كلماته اللطيفة المبتذلة.

كان ذلك الرجل قادمًا لأجلها، وكان والدها أول من قبل هذه الرغبة. أمر أنجز! كان فردًا من عائلة فيرر، وكانت ستقول له: «أجل». تذكرت سنوات طفولتها في المدرسة، محاطة بفتيات فقيرات كن يستفدن من كل فرصة لمضايقتها، بدافع الحسد من ثروتها والكرهية التي تعلمنها من آبائهن. كانت تشويتا. كان بإمكانها فقط الانضمام إلى من ينتمون إلى عرقها، وحتى هؤلاء، التوأقات إلى استرضاء العدو، كن يخزن بعضهن البعض، دون طاقة أو اتحاد للدفاع المشترك. في وقت الخروج، تغادر التشويتا في وقت سابق بإشارة من الراهبات؛ لتجنب إهانات واعتداءات الطالبات الأخريات عندما يراهن في الشارع.

حتى الخادمت اللواتي كن يرافقن الطفلات يبدأن في الشجار، على افتراض كراهية واهتمامات أسيادهن. وفي مدارس الأطفال أيضًا يخرج الأطفال التشويتا في وقت سابق، هارين من الحجارة وضربات أحزمة المسيحيين العجائز.

عانت ابنة بايس من عذاب الوحز الغادر والخدش الخفي وضربة المقص في جديلتها، وبعد ذلك، عندما أصبحت امرأة، تبعها كراهية واحتقار رفيقاتها السابقات في الحياة، واللذان تمرران ملذات امرأة شابة وغنية. لماذا تكون أنيقة؟ كان يحييها في أثناء التنزه فقط أصدقاء والدها؛ في المسرح لم يكن يزور مقصورتها إلا أناس ينتمون إلى (الشارع). كان عليها أن تزوج أحدهم، كما تزوجت والدتها وجداتها. جرّها اليأس والتصوف في سن المراهقة نحو حياة الرهبنة. كان والدها على وشك الغرق في الحزن. لكن الدين - ذلك الدين الذي يتمنى أن يضحي بحياته من أجله - قبل دون بنيتو الرهبانية في أحد أديرة مايوركا، حيث يستطيع أن يرى ابنته كل يوم. لكن لم يرغب أي دير في فتح أبوابه لها. كانت رئيسات الأديرة - اللاتي أغرتهم ثروة الأب، الذي سينتهي به إلى اجتياز المجتمع - متعاونات ولطيفات؛ لكن القطعان الرهبانية كانت في حالة اضطراب من فكرة تلقي واحدة من (الشارع) في أحضانها، وليست متواضعة أو مستسلمة لتحمل تفوق الأخريات، بل غنية ومتغطرة.

عندما لم تعرف كيف تفكر في مستقبلها، وكانت تعيش كمرضة بجوار والدها، مدفوعة من جديد إلى العالم بسبب هذه المقاومة، متجاهلة ما يمكن أن يكون مصيرها، وهي تدير ظهرها للشباب التشويتا

الذين يرفرفون حولها تجذبهم ملايين دون بنيتو، يتقدم النبيل فيرر -مثل أمير قصة خرافية- لجعلها زوجته. ما أحسن الله! رأت نفسها في ذلك القصر المجاور للكاتدرائية، في حي النبلاء حيث يمر في شوارعها الضيقة ذات البلاط الأزرق الصامت -خلال ساعات النوم- الكهنة القانونيون يجذبهم جرس الجوقة. رأت نفسها في عربة فخمة عبر أشجار الصنوبر لجبل بيير أو على طول الرصيف، وخايمي بجانبها، وتستمتع وهي تفكر في نظرات الكراهية لرفيقتها السابقات، اللاتي لن يحسدوها على ثروتها ورتبتها الجديدة فحسب، لكن على امتلاك ذلك الرجل الذي منحته المغامرات البعيدة والحياة الصاخبة هالة واضحة من الإغواء الرهيب، مبهرة ومميتة بالنسبة لشابات الجزيرة الهادئات.

خايمي فيرر! كانت كاتالينا تراه دائماً من بعيد؛ ولكن عندما تستمتع بوحدها المملة بقراءة متواصلة للروايات، فإن بعض الشخصيات -الأكثر إثارة للاهتمام في مغامراتهم وجرأتهم- تجعلها دائماً تفكر في ذلك النبيل من حي الكاتدرائية الذي يتجول حول العالم مع نساء أنيقات تبدد ثروته. وفجأة كان يتحدث والدها معها عن هذه الشخصية غير العادية، مؤكداً أنه سيعطيها اسمه، ومعه مجد أسلافه الذين كانوا أصدقاء الملوك! لم تكن تدرك هي لو أنه كان حباً أو امتناناً، لكن شعور بالحنان الذي غشى عينيها كان يدفعها نحو ذلك الرجل. آه، كيف كانت ستحبه! وكانت تستمع إلى كلماته مثل طنين عذب، دون أن تعرف على وجه اليقين ما كان يقوله، وهي مخمورة بموسيقاه، تفكر في نفس الوقت في المستقبل الذي سرعان ما كان ينفث أمامها، مثل شروق الشمس الذي يشق الغيوم.

بعد ذلك، كانت تركّز انتباهها، وهي تبذل جهداً، وتستمع إلى فيرر الذي كان يتحدث معها عن المدن الكبيرة والبعيدة، وعروض السيارات الفاخرة، مع النساء اللاتي كن يتباهن بأحدث الموضات، وعن درجات المسارح التي كانت تتدلى منها شلالات من الألماس، الريش والأكتاف العارية، وهو يسعى جاهداً للوصول إلى مستوى تفكير الفتاة، ليلمقها بأوصاف مجد أنثوي.

لم يقل خايمي أكثر من ذلك، لكن كاتالينا خمنت الغرض الذي سبق هذه الكلمات. هي - الفتاة التعيسة من (الشارع)، التشويتا، التي اعتادت أن ترى ذويها خاضعات وخائفات تحت وطأة الكراهية التقليدية - ستزور هذه المدن، وستختلط في استعراضات الثروة، وتُفتح الأبواب التي كانت تراها دائماً مغلقة، وستدخلها متكئة على ذراع رجل بدا دائماً لها ممثلاً لكل عظمة الأرض.

همهمت كاتالينا بتواضع زائف:

- متى سأرى أنا ذلك! أنا محكوم عليّ بالعيش في الجزيرة؛ أنا فتاة مسكينة لم ألحق أذى بأي شخص، ومع ذلك عانيت من خيبات أمل كبيرة... لا بد أنني بغيضة.

انطلق فيرر على الطريق الذي فتحت له هذه البراعة الأنثوية. «بغيضة! لا، كاتالينا». لقد جاء إلى بايديموسا لرؤيتها فقط والتحدث معها. إنه يقدم إليها حياة جديدة. كل ما يدeshها يمكن معرفته والاستمتاع به بكلمة واحدة فقط. هل تريد الزواج منه؟

كاتالينا - التي كانت تنتظر هذا العرض قبل ساعة - شُحِبَتْ،
وارتجفت من التأثر. سماعه من شفّتيه! مرّ وقتٌ طويلٌ دون أن تجيب،
وأخيراً تلعثمت ببضع كلمات. كانت السعادة الأعظم في حياتها، لكن
لا يجب أن تجيب الفتاة المهذبة فوراً.

- أنا؟ سنرى... إنها مفاجأة كبيرة جداً!

أراد خايمي الإصرار، لكن في اللحظة نفسها خرج القبطان بايس
إلى الحديقة، وهو يناديه بصوتٍ عالٍ. كان عليهما الذهاب إلى پالما:
لقد أعطى فعلاً الأمر للسائق بالتوقف. احتج فبرر سرّاً. بأي حق يتدخل
ذلك الفضولي في شؤونهما؟

قطع حضور دون بنيتو احتجاجه. كان ينفخ بضيق، ووجهه
محتقن. يتحرك القبطان بعصبية عدائية، محتجّاً على تأخر السائق. كان
من الواضح أن الأخوين انتھيا من جدال عنيف. نظر الأكبر إلى ابنته،
ونظر إلى خايمي، وبدا كأنه هدأ عندما خمن أن الاثنين تفاهما.

رافقهما دون بنيتو وكاتالينا إلى العربة. شد المصاب بالربو على
إحدى يدي فبرر. كان هذا منزله، وهو صديق حقيقي حريص على
خدمته. إذا احتاج إلى مساعدته، يمكنه أن يوصي بما يشاء. كما لو
كان أحد أفراد الأسرة! ذكر مرةً أخرى دون أوراثيو، متذكراً صداقتهما
القديمة. ثم دعاه لتناول الغداء معهم بعد يومين، دون أن يتذكر أخاه
على الإطلاق.

قال خايمي، وهو يلتقي نظرة على كاتالينا مما جعلها تحمر خجلاً:

- أجل، سأعود.

عندما غابت عن نظرهما بوابة المنزل، التي كان الأب وابنته يلوحان
بأيديهما خلفها، انفجر القبطان بآيس ضاحكًا.
سأل بسخرية:

- على ما يبدو، تريدني أن أكون عمك؟

زاد غضب فيرر، الذي ثار من تدخل صديقه والفظاظة التي دفعه
بها إلى مغادرة المنزل. وماذا كان يهمه؟ بأي حق تجرأ على التدخل في
شؤونهما؟ كان فعلاً كبيراً بما يكفي لعدم الحاجة إلى مستشارين.
قال البحار، متكئاً على مقعده ممسكاً برنيطة الجندي التي سقطت
على رقبته:

- توقف! توقف، أيها الأنيق! أنا أتدخل لأنني من العائلة. أعتقد أن
الأمر يتعلق بابنة أخي؛ على الأقل هكذا يبدو لي.

- وإذا أردت الزواج منها، فماذا؟ ربما يبدو الأمر بالنسبة لكاتالينا
جيداً؛ ربما يوافق والدها.

- أنا لا أقول لا؛ لكن أنا عمها، والعم يحتج ويقول إن هذا العرس
حماقة.

نظر إليه خايمي في دهشة. حماقة أن تتزوج من أحد أفراد عائلة
فيرر! هل كان يتمنى شيئاً أفضل لابنة أخيه؟
أكد بآيس:

- حماقة من جانبيهما وحماقة من جانبك. هل نسيت أين نعيش؟

يمكنك أن تكون صديقي، صديق التشويتا بإبلو بايس، الذي تراه في المقهى، في الكازينو، والذي يعتقد الناس أنه نصف مجنون. لكن أن تتزوج امرأة من عائلتي!

وضحك البحار على فكرة هذا الارتباط. سيسخط أقارب خامي عليه، وسيرفضون تحيته إلى الأبد. سيكونون أكثر تسامحًا إذا ارتكب جريمة قتل. ستصرخ عمته لا بابيسا خوانا كأنها تشهد تدينًا للمقدسات. سيفقد كل شيء، وابنة أخيه، المنسية والهادئة حتى ذلك الحين، كان سيتحول ملل منزلها الرتيب والحزين، لكنه في النهاية كان سلامًا، إلى حياة جهنمية من خيبات الأمل والإذلال والازدراء.

- لا؛ أكررها لك: العم يعترض.

حتى الرعاع الذين يقولون على أنفسهم أنهم أعداء للأثرياء سيغضبون لرؤية شريف يتزوج بتشويتا. كان لا بد من احترام الجو التقليدي للجزيرة، تحت طائلة الموت مثلما سيموت شقيقه بنيتو، بسبب نقص الهواء. كان من الخطر الرغبة في تعديل عمل قرون بضربة واحدة. حتى أولئك الذين يجيئون من الخارج، متحررين من التحيز، سرعان ما يعانون من تأثير هذا النفور للأعراق الذي يبدو ذائبًا في الجو.

تابع بايس:

- ذات مرة جاء زوجان بلجيكيان للاستقرار في الجزيرة، أوصى لي بهما صديق من أنتويرب. انتظرتهما، قدمت إليهما كل أنواع الخدمات.

قلت مراتٍ عديدة: «كونا حذرين؛ فكرا أنني تشويتا، وأن التشويتا أناس سيئون للغاية». ضحكت السيدة. يا لها من همجية! يا له من تخلف على الجزيرة! كان هناك يهود في كل مكان وكانوا أناسًا مثل الآخرين. رأينا بعضنا قليلًا، تعاملنا مع ناس آخرين. بعد عام، قابلاني في الشارع، نظرا في كل مكان قبل أن يحيونني. الآن يرونني ويديران وجهيهما بعيدًا قدر استطاعتهما... كما لو كانا مايوركيين!

زواج! كان هذا مدى الحياة. في الأشهر الأولى، سيواجه خايمي النميمة والاحتقار؛ لكن الوقت يمر، وكرهية القرون لن تكل في غضون بضع سنوات، وسيتهيء فيرر بالندم على عزلته، وسيدرك خطأه في مخالفة اهتمامات الحشد العظيم، وستكون كاتالينا هي من يعاني من العواقب، وهي ترى نفسها في منزلها كعلامة على الخزي. لا؛ مع الزواج بعض الألعاب. في إسبانيا لا يُفسخ، ولا يوجد طلاق، وتجربته مكلفة. لهذا بقي بايس عازبًا.

لجأ فيرر -منزعجًا من هذه الكلمات- إلى ذكر دعاية پابلو الصاخبة ضد أعداء التشويتا.

- لكن ألا تريد تكريم ذويك؟ أأست منزعجًا لأنهم ينظرون إلى من هم من (الشارع) على أنهم أناس مختلفون عن غيرهم؟ ما أفضل من هذا الزواج لمحاربة العصبية!

ولوح القبطان بيديه معبرًا عن شكه: «تا، تا!... الزواج لم يثبت شيئًا. في فترات مختلفة من التسامح والنسيان المؤقت تزوج المسيحيون

القدامى من أناس من (الشارع). في الجزيرة كان هناك كثير ممن كشفوا هذا الاختلاط بألقابهم. فماذا؟ استمرت الكراهية والانفصال على المنوال نفسه... ليس الشيء نفسه: أخف قليلاً مما مضى، لكنهما لا يزالان دفينين. ما كان يجب أن ينتهي في هذا الوضع هو ثقافة الشعب، والعادات الحديثة، وكان هذا نتاج عمل سنوات ولم يكن من الممكن تحقيقه بالزواج. بالإضافة إلى أن المحاولات كانت خطيرة وتسببت في وقوع ضحايا. إذا كان مصمماً على القيام بالتجربة، فيمكنه اختيار شخص آخر غير ابنة أخيه.

وابتسم بايس بسخرية عندما رأى إيماءات الرفض على فبرر. سأل:

- هل تحب كاتالينا؟

لم تسمح له عينا القبطان الكهرمانيتان الخبيثتان والمشبثتان على خايمي بالكذب. عاشق؟ ليس عاشقاً. لكن الحب لم يكن ضرورياً من أجل الزواج. كانت كاتالينا لطيفة، يمكن أن تكون زوجة ممتازة ورفيقة لطيفة.

بالغ پابلو أكثر في ابتسامته:

- لتحدث مثل صديقين حميمين خبيرين في الحياة. أخي ألطف من ابنته. سوف يعتني بلا شك بترتيب شؤونك. سيكي عندما يرى المال الذي ستكلفه إياه؛ لكن لديه هوس بالأسماء، فهو يحترم القديم ويعشقه، وسيتحمل كل شيء... لكن لا تثق به يا خايمي! إنه من نوعية أولئك اليهود الذين يظهرون في المسرحيات الهزلية ومعهم كيس من الذهب، وهم يساعدون الناس في الأوقات العصيبة، للضغط عليهم

لاحقًا. هؤلاء هم الذين يحطون من سمعة عرقي. أنا شيء آخر. عندما تكون تحت سلطته، ستندم على العمل الذي قمت به.

نظر فيرر إلى صديقه بعينين عدائيتين. أفضل ما يمكنهما فعله هو عدم التحدث عن الأمر بعد الآن. كان يابلو مجنونًا، معتادًا على قول ما يعتقد، ولم يكن يعاني منه أبدًا. للبقاء صديقين كان من الأفضل التزام الصمت.

قال بايس:

- حسنًا، فلنصمت. ولكن ليكن معلومًا مرة أخرى أن العم يعترض، وأنني أفعل ذلك من أجلك ومن أجلها.

أمضيا بقية الطريق في صمت. في بورن افترقا بتحية باردة، دون أن يتصافحا.

عندما دخل خايمي منزله، كان الليل قد اقترب. كان لدى مادو أنطونيا مصباح زيت على طاولة في غرفة الاستقبال، ويبدو أن لهبها يجعل ظلام الغرفة الشاسعة أكثر كثافة.

كان الإيبزيون قد غادروا لتوهم. بعد تناول الغداء معها والتجول في أنحاء المدينة، انتظروا السيد حتى حلول الليل. كان عليهم قضاء الليل في الزورق الشراعي: أراد صاحب القارب أن يبحر قبل الفجر. وتحدثت مادو باهتمام لطيف عن هؤلاء الأشخاص، الذين بدوا لها من الطرف الآخر من العالم. كيف كانوا مندهشون من كل شيء! كانوا يسيرون في الشارع كأنهم مفزوعون... ومارجاليدا؟ يا لها من فتاة جميلة!

كانت لدى مادو أنطونيا الطيبة فكرة على لسانها وأخرى في رأسها، وبينما تتبع الرجل إلى غرفة نومه، تفحصته خلصة، راغبة في تخمين شيء ما من وجهه. ماذا حدث في بايدموسا، يا عذراء لوقا؟ ماذا سيحدث لتلك الخطة المجنونة التي عرضها فيرر في أثناء الإفطار؟ لكن السيد كان في مزاج سيئ، وأجاب على أسئلتها بكلماتٍ مقتضبة. لم يبقَ في المنزل: سيتناول العشاء في الكازينو. على ضوء مصباح الزيت الذي يُضيء غرفة نومه الشاسعة بشكلٍ خافت، قام بتغيير بدلته وتأنق قليلاً، وأخذ مفتاحاً ضخماً من يدي مادو ليفتح عندما يعود في وقتٍ متأخر من الليل.

في الساعة التاسعة صباحاً، في طريقه إلى الكازينو، رأى صديقه توني كلايس المهرب في أول الشارع في مقهى في بورن. كان رجلاً ضخماً حليقاً وممتلئ الوجه، ويرتدي ثياب فلاح. بدا كأنه راهب ريفي يرتدي زي فلاح ليقتضي الليل في پالما. بحذائه الكتاني الأبيض، وقميص بدون ربطة عنق وقبعته المائلة إلى الخلف، يدخل المقاهي والجمعيات، ويُستقبل بأقصى درجات الصداقة. في الكازينو اندهش منه السادة عندما رأوا كيف يُخرج بهدوء من جيوبه حفنة من الأوراق النقدية. قادماً من بلدة داخل الجزيرة، أصبح رئيس دولة غامضة، بشجاعته ومواجهة الأخطار، كان يعرفها الجميع من بعيد، ولكن عملها السري بقي في الظل. كان لديه المئات من الرعايا، القادرين على الموت من أجله، وأسطول غير مرئي يبحر في الليل دون خوف من العواصف، وهو يقترب من السواحل التي يتعذر الوصول إليها تقريباً. لم تظهر

مخاوف ومخاطر هذه العمليات أبداً على وجهه البشوش وإيماءاته الرائعة. كان يظهر حزيناً فقط عندما تمر عدة أسابيع دون أن يتلقى أنباء عن أحد القوارب التي خرجت من الجزائر في طقسٍ سيئ.

يقول لأصدقائه:

- ضاع! القارب والبضائع مهمان قليلاً... كان بداخله سبعة رجال، وأنا أبهرت أيضاً بهذه الطريقة.. سنعمل على أن لا تحتاج عائلاتهم إلى الخبز.

في أوقاتٍ أخرى، كان حزنه مصطنعاً، وعندما يعبر عنه يشني شفتيه بسخرية: «خافرة السواحل الحكومية استولت للتو على قارب». وكان الجميع يضحك، وهم يعلمون أن توني يسمح أن يأخذوا قارباً قديماً منه لبضعة أشهر مع بعض عبوات التبغ، حتى يتمكن مطارده من تحقيق هذا الانتصار. عندما كان هناك وباء في موانئ إفريقيا، كانت سلطات الجزيرة عاجزة عن حراسة خط ساحلي واسع، فاستدعوا توني، وهم يناشدون وطنية المايوركي داخله، وكان المهرب يوعده بوقف ملاحاته مؤقتاً أو شحنها من نقطة أخرى لتجنب مرض معدٍ.

يثق فيبرر في هذا الرجل الفظ المبهج الكريم ثقة أخوية. يخبره مراتٍ عديدة عن الصعوبات التي يواجهها لطلب نصيحة فلّاحه الماكر. كان هو -الذي لم يكن قادراً على طلب قرض من أصدقائه في الكازينو- يقبل أموال توني في الأوقات الصعبة، وهي أموال لم يعد المهرب يتذكرها بعد الآن.

عند لقائهما يتصافحان بقوة. «هل زرت بايدموسا؟». كان توني يعرف فعلاً عن رحلته، بفضل السهولة التي تنتشر بها أكثر الأخبار تفاهة في الأجواء الرتيبة والهادئة لمدينة إقليمية متعطشة للفضول.

قال توني بلهجته المايوركية الفلاحة:

- يقولون شيئاً آخر، شيئاً يبدو بالنسبة لي كذبة. يقولون إنك ستزوج ابنة دون بنيتو بايس؟

لم يجرؤ فيرر -المندهش من معرفة نواياه سريعاً جداً- على الإنكار. أجل، كان ذلك صحيحاً. كان يريد الاعتراف لتوني فقط.

وأبدى المهرب بادرة اشمئزاز، في الوقت نفسه الذي كانت فيه عيناه المعتادتان على أكبر المفاجآت تنبئان بالدهشة.

- أنت تخطئ يا خايمي. أنت تخطئ.

كان يقولها بجدية كأنه يتعامل مع أمرٍ جلل.

يثق الشريف في ذلك الصديق، في حين أنه لم يجرؤ على الثقة في أي شخص آخر.

- لكن إذا كنتُ مفلساً يا عزيزي توني! إذا لم يكن يوجد شيء في منزل فعلاً ملكي! إذا كان الدائنون يحترمونني فقط على أمل هذا الزواج!

استمر توني في هز رأسه بالرفض. بدا الفلاح الفظ -المهرب الذي استهزأ بالقوانين- مذهولاً من الأخبار.

- على أي حال، أنت مخطئ. يجب أن تخرج من أزمتك بقدر ما تستطيع، ولكن بطريقةٍ أخرى... سيساعدك الأصدقاء. أتزوج مع تشويتا؟

ودعه بمصافحة قوية، كأنه يراه يسير نحو خطر مميت.

قال بنبرة لوم:

- أنت مخطئ... فكر في الأمر. أنت مخطئ يا خايمي!



عندما دخل خايمي إلى سريره، بعد ثلاث ساعات من منتصف الليل، اعتقد أنه رأى وجهي القبطان بايس وتوني كلايس في ظلام غرفة النوم.

بدا أنهما يتحدثان إليه، تمامًا كما حدث في مساء اليوم السابق. كان يردد البحار بضحكة ساخرة: «أنا أعترض». «لا تفعل ذلك» كان ينصحه المهرب بتعبيرٍ جاد.

كان قد أمضى ليلته في الكازينو، صامتًا ومعكر المزاج تحت هاجس هذه الاحتجاجات. ما الذي كان غريبًا وسخيًا في خطته حتى يأنبه ذلك التشويث، على الرغم من كونه شرفًا لعائلته، وذلك الفلاح اللفظ عديم الضمير، الذي يعيش تقريبًا خارج القانون؟

من المؤكد أن هذا الزواج ستنج عنه فضائح واحتجاجات في الجزيرة؛ ولكن ماذا عنه؟ ألم يكن له الحق في البحث عن خلاصه بأي وسيلة؟ هل كانت بدعة أن الناس من طبقته يحاولون إعادة بناء ثروتهم عن طريق الزواج؟ والدوقات والأمراء الذين يبحثون عن الذهب في أمريكا يرتبطون بنات أصحاب الملايين من أصل أكثر شناعة من دون بنيتو؟

آه! كان ذلك المجنون يابلو بايس على حق جزئياً. يمكن أن تكون هذه التحالفات في بقية العالم، لكن مايوركا، روكيتا الحبيبة، لديها روح لا تزال حية، روح القرون الماضية، المليئة بالكراهية والهموم. كان الناس كما ولدوا، مثل آبائهم، وهكذا كان عليهم الاستمرار في بيئة الجزيرة الجامدة، والتي لا يمكن أن تحركها التموجات البعيدة والبطيئة القادمة من الخارج.

يتقلب خايمي في فراشه بقلق. لم يشعر بالنعاس... عائلة فيرر! يا له من ماضيٍ مجيد! وكيف أثقله هذا الماضي، مثل سلسلة من العبودية جعلت بؤسه أكثر حزناً!

كان قد أمضى مساءات كثيرة في غرفة محفوظات المنزل، الغرفة المجاورة لغرفة الطعام، وهو يتصفح الملفات المكدسة في الخزائن ذات الأبواب السلكية، في الضوء الخافت الذي يتسلل عبر الشباك الخارجي من الفتحات. غبار وورق قديم يجب التخلص منه حتى لا يأكله العث! مخططات ملاحية بربرية، ذات ملامح خاطئة ومتقلبة، والتي تخدم عائلة فيرر في رحلاتهم التجارية الأولى! كل هذا بالكاد يمنحه الطعام لبضعة أيام؛ وعلى الرغم من ذلك، كانت العائلة تناضل لقرون لتستحق هذه الوديعة ولزيادتها. كم هو مجد ميت!

بدأت الشهرة الحقيقية لذويه وكسر حدود تاريخ الجزيرة في عام ١٥٤١ مع وصول الإمبراطور العظيم. تجمع أسطول بحري من ثلاثمائة شراع، مع ثمانية عشر ألف جندي إنزال في خليج پالما للذهاب لغزو الجزائر. كان هناك الثلث من الإسبان بقيادة جونثاجا، والألمان بقيادة

دوق ألبا، والإيطاليون بقيادة كولونا، ومائتا فارس من مالطا برئاسة القائد دون بريامو فيرر بطل العائلة، ويبحر الأسطول بأكمله تحت قيادة البحار العظيم أندريس دوريا.

استقبلت مايوركا سيد إسبانيا وجزر الهند وألمانيا وإيطاليا، الذي أُصيب بالنقرس قبل الآن، ونخرته أمراض أخرى، باحتفالات أسطورية. كان أفضل نبلاء قشتالة يتبعون الإمبراطور في هذه العملية المقدسة، حيث أقاموا في منازل فرسان مايوركا. استقبل منزل فيرر كضيف نبيل غير متوقع، ظهر حديثاً من العدم، ألهمت مآثره البعيدة وثوراته المرئية الحماس والنميمة. كان الماركيز دون إرنان كورتس، من وادي أواكساكا، الذي غزا المكسيك، وجاء في الحملة حريضاً على أن يُقدر مع نبلاء حروب الاسترداد القدامى، الذين أصبحوا الآن نظراءه، في قادس مجهزة على نفقته، يرافقه من أبنائه دون مارتين ودون لويس. كانت عظمة ملكية تلف الفاتح البعيد، صاحب الثروات الخيالية. كان يزين جسر قادسه بثلاثة أحجار زمرد ضخمة، تُقدر بأكثر من مائة ألف دوكات^(٤٠): إحداها منحوتة على شكل زهرة، والأخرى على شكل طائر، والأخرى مثل الجرس، حيث حلت محل المقرعة لؤلؤة كبيرة. كان معه خدم ذهبوا إلى هذه الأراضي البعيدة يتبنون طرقها الغريبة. ويقضي النبلاء الهزيلون ذوو اللون المرضي ساعاتهم الميته صامتين ويشعلون بعضاً من حزم الأعشاب، على شكل قطع من الفتائل، تسمى

(٤٠) دوكات: أو ما يُعرف في العالم الإسلامي بالذهب البندقي، وهي عملة تجارية ذهبية أو فضية كانت تستعمل في أوروبا منذ أواخر العصور الوسطى حتى بداية القرن العشرين.

تبغاً، ويطردون الدخان من أفواههم مثل الشياطين التي تحترق من الداخل.

احتفظت جدات خايمي من جيل إلى جيل بماسة كبيرة غير مصقولة، ذكرى من القبطان البطل لكرم ضيافة عائلة فيرر. تم ذكر الحجر الثمين في وثائق العائلة، لكن الجد دون أوراثيو لم يتمكن من معرفتها. لقد اختفت على مر القرون مثل كثير من الثروات التي جرفتها مشاكل منزل فاخر.

كان آل فيرر يعدون مشروباً مبرداً للأسطول البحري، باسم مايوركا، لكنهم تحملوا الجزء الأكبر من ثمنه. كانت هذه المرطبات من أجل أن يقدر الإمبراطور وفرة غلة الجزيرة، التي تتكون من مائة بقرة ومائتي كبش ومئات من أزواج الدجاج والديك الرومي، ومن الزيت والدقيق ومن أرباع النبيذ، ومن براميل الجبن الصغيرة، والكبر والزيتون، وعشرين برميلاً من ماء الريحان وأربعة قناطير من الشمع الأبيض. بالإضافة إلى ذلك، انطلق آل فيرر المتأصلون في الجزيرة والذين لم يكونوا من فرسان مالطا في سرب مع مائتي من فرسان مايوركا، متحمسين لغزو الجزائر.. عش القراصنة. خرجت الثلاثمائة قادمين من الخليج، وهي تلوح براياتها الصغيرة وسط قصف المدافع والقنابل، يحييها الحشد المتكدر عند الأسوار. لم يسبق للإمبراطور أن قام بتجميع مثل هذا الأسطول المهيب.

كان ذلك في أكتوبر. ارتسم على وجه الخبير دوريا ملمح سيئ. بالنسبة له، لم تكن هناك موانئ آمنة أخرى في البحر المتوسط غير خونيو،

وخوليو، وأجوستو.. وماهون. تأخر الإمبراطور جداً في تيrol وإيطاليا. تنبأ البابا باولو الثالث له -عند خروجه لمقابلته في لوكا- بمصائب في أواخر الموسم. وحط عناصر البعثة على شاطئ الحامة. كان القائد فيبر -مع فرسان مالطا- يسير في الطليعة، واحتملوا اشتباكات متواصلة مع الأتراك. استولى الجيش على المرتفعات المحيطة بالجزائر العاصمة وبدأ الحصار. حينها تحققت تنبؤات دوريا. هبت عاصفة رهيبة، مع كل عنف الشتاء الإفريقي. وشعرت القوات -التي لا مأوى لها- والتي تبللت تمامًا في أثناء الليل بسبب الأمطار المنهمرة بالبرد. أجبرت الرياح العاتية الرجال على الاستلقاء على الأرض. عند الفجر، فاجأ الأتراك -مستغلين هذا الوضع- الجيش الذي كاد أن يتفكك.

لكن القائد بريامو كان هناك، شيطان الحرب، غير مبالي بالماء وبالنار، قاسٍ، خبيث ومحتقر للتعب، الذي احتوى اندفاع العدو مع حفنة من فرسانه. استرد الإسبان والألمان قوتهم، وانسحب الأتراك، وطاردتهم المحاصرون إلى أسوار الجزائر العاصمة. جر دون بريامو فيبر نفسه، المصاب في وجهه وساقه، إلى بوابة المدينة، ودس خنجره فيها كدليل على تقدمه.

في انطلاقة أخرى للمسلمين المغاربة، كان الاشتباك شديداً لدرجة أن الإيطاليين تراجعوا، وتبعهم الألمان، واستل الإمبراطور، الذي استشاط غضباً من رؤية جنوده المفضلين يفرون، سيفه وطلب رايته، ووضع المهماز على الحصان وصاح في موكب الفرسان اللامع أن يتبعه: «هيا أيها السادة! إذا رأيتموني أسقط مع الراية، ارفعوها هي قبلي».

هرب الأتراك أمام اندفاع هذه السرية الحديدية. توسط أحد أفراد عائلة فيرر، «الثري»، ثري الجزيرة، جد خايمي البعيد، مرتين بين الإمبراطور وأعدائه، لإنقاذ حياته. عند مخرج المضيق، أهلك المدافع التركية غالبية الفرسان. أخذ دوق ألبا لجام فرس مَلِكِه. «سيدي: إن حياتك تستحق أكثر من انتصار». وبعد أن هدا الإمبراطور، عاد في النهاية أدراجه، وبإيماءة شكر مهية، خلع السلسلة الذهبية المعلقة في رقبتة، ليضعها على أكتاف فيرر.

في هذه الأثناء، دمرت العاصفة مائة وستين سفينة، واضطر بقية الأسطول إلى اللجوء خلف رأس ماتيفوكس.

ارتأى معظم النبلاء الانسحاب الفوري. طلب إرنان كورتس وكونت ألكاوديتي وحاكم وهران وفرسان مايوركا وعلى رأسهم آل فيرر إنقاذ الإمبراطور وترك الجيش وحده لمواصلة السعي. أخيراً تقرر الانسحاب، وعبر القمم والهوات التي غمرتها الأمطار، أنجزت المهمة الحزينة تحت مضايقات من قبل العدو، مخلفة وراءها أثراً من القتلى والسجناء. في وسط العاصفة أبحر من استطاع. والتهم البحر الهائج سفناً جديدة، ووصلت قوادس مايوركا للأسف إلى خليج پالما لمرافقة الإمبراطور، الذي لم يرغب في الذهاب إلى الشاطئ متجهاً إلى شبه الجزيرة. عاد آل فيرر إلى الوطن يعطيهم المجد وسط الهزيمة: واحد معه شهادة صداقة من القيصر؛ وآخر -القائد- ممدد على محفة ويسب مثل وثني لقطع حصار الجزائر.

بريامو فيرر! لم يستطع خايمي التفكير في هذه الشخصية دون شعور بالتعاطف والفضول الذي غرسته القصص التي سمعها في طفولته. لقد

كان روح العائلة البطولية والملعونة. لم تكن سيدات المنزل المسنات يذكرن اسمه أبدًا، وعندما يسمعه، يغمضن أعينهن ويخجلن. محارب الكنيسة، فارس مقدس كان ينطق بنذر العفة عند دخوله الرهبانية، كان دائمًا يحمل نساء في قادسه. كن مسيحيات تم إنقاذهن من المسلمين، ولم يكن في عجلة لإعادتهن إلى ديارهن، أو كافرات أصبحن إماء في أثناء عمليات إنزالهم الجريئة.

عندما يبدأ في توزيع الغنائم، ينظر بلا مبالاة إلى أكوام الثروات، تاركًا إياها للسيد الأكبر^(٤١). كان مهتمًا فقط بالاستيلاء على الإناث. إذا هددوه بالحرمان الكنسي، كان يضحك بشكلٍ شيطاني في وجه رجال الدين في الرهبانية. عندما دعاه السيد الأكبر ليوبخه على فجوره، كان يقف بشراسة، متحدثًا عن الانتصارات العظيمة في البحر التي يدين بها له صليب مالطا.

كان يُحتفظ ببعض رسائله في أرشيف المنزل: أوراق مائلة إلى الصفرة ذات أحرف ضاربة إلى الحمرة، غير متساوية وغامضة، وأسلوب يشي بكلمات القائد القليلة. يعبر عن نفسه بهدوءٍ عسكري، مازجًا العبارات الدينية بأكثر التعابير وقاحة. في إحدى هذه الرسائل، التي قرأها خايمي، كتب قلقًا على أخيه في مايوركا بسبب مرض غامض عانى منه الأخير؛ وفي حال كان «مرضًا نسائيًا، قدم له مشورة الخبراء والعلاجات السحرية. فهو كان يعرف كثيرًا عن هذا المرض في زيارته لموانئ ليانتي».

(٤١) السيد الأكبر: رتبة تمثل الرئيس الأعلى في الهيكل التنظيمي لرتب الفروسية.

كان اسمه شائعاً بشكلٍ رهيبٍ في جميع أنحاء ساحل البحر المتوسط الذي احتله الكفار. كان المسلمون يخافونه مثل الشيطان؛ وتسكت المغاربيات صغارهن بتهديدهم بالقائد فيبر. كان دراجوت -قرصان تركي عظيم- يقدره كمنافسٍ وحيدٍ يستحق مكانته. كان الاثنان يخافان ويحترمان بعضهما البعض، ويحاولان عدم رؤية بعضهما ولا الالتقاء في البحر، بعد عدة معارك خرج كلاهما منها في حالة يُرثى لها.

ذات يوم، قابل دراجوت، في أثناء زيارته لأحد القوادس الخاصة به في الجزائر، بريامو فيبرر شبه عارٍ، مقيداً بالسلاسل إلى مقعد ومجذاف في يديه.

قال دراجوت:

- أحوال الحرب!

أجاب القائد:

- أحوال الحظ!

تصافحا ولم يقلوا أكثر من ذلك. لا أحد قدم معروفاً ولا الآخر طلب الرحمة. جاء أهل الجزائر متلهفين لمقابلة (شيطان مالطا) المقيد بمقعد العبيد؛ لكن عندما رأوه شرساً وعبوساً مثل صقرٍ أسير، لم يجرؤوا على إهانته. أعطت الرهبانية المئات من العبيد والسفن والبضائع مقابل إنقاذ محاربيهم البطل، كما لو كان أميراً. بعد سنوات، التقى دون بريامو، وهو يدخل إلى أحد القوادس المالطية، بدراجوت

المقدام مقيدًا بالسلاسل إلى مقعد تجديف. تكرر المشهد دون مفاجأة
لكليهما، وكأن اللقاء كان طبيعيًا. تصافحا.

قال أحدهما:

- أحوال الحرب.

أجاب الآخر:

- أحوال الحظ.

كان خايمي يحب القائد؛ لأنه يمثل الفوضى والحرية وازدراء
الهموم داخل الأسرة النبيلة... ما كان يهمه اختلافات العرق والدين
عندما يرغب في امرأة! لقد عاش سن النضج منعزلًا في تونس، مع
أصدقائه الحميمين القراصنة الأغنياء الذين كرهوه وطارده وانهى بهم
الأمر ليكونوا رفاقه. كانت هذه أحلك فترة في حياته. حتى أن الأساطير
تفترض أنه ارتد عن دينه، ولتسلية ضجره كان يطارد القوادس المالطية
في البحر. أقسم بعض فرسان الرهبانية - أعداؤه - أنهم رأوه مرتدًا
لباسًا تركيًا خلال معركة في عنبر مقدمة سفينة معادية.

الشيء الوحيد المؤكد هو أنه عاش في تونس في قصر على شاطئ
البحر، مع امرأة مغربية رائعة الجمال، من أقارب صديقه البي. وشهدت
رسالتان في الأرشف على هذه العبودية اللطيفة غير المفهومة. عندما
ماتت المرأة المسلمة، عاد دون بريامو إلى مالطا، منهيًا حياته المهنية.
أراد أهم الشخصيات في الرهبانية تفضيله إذا كان قد غير سلوكه، وهم
يتحدثون عن تسميته حاجب نِجروبونت أو صاحب حصن أمبوستا.

لكن دون بريامو المتعذر إصلاحه لم يهذب أخلاقه، واستمر في كونه متحرراً مخيفاً، مع روح الدعابة الرائعة، مختلفاً عن الفرسان الآخرين. على العكس، كان القائد البطولي يعشقه (الإخوة الخدم)، رجال جيش الرهبانية، الجنود البسطاء الذين لم يكن بإمكانهم سوى حمل زخرفة نصف صليب على دروعهم.

جعله ازدراء المؤامرات وكرهية أعدائه يتخلى إلى الأبد عن أرخبيل الرهبانية، جزر مالطا وغودش، التي تنازل عنها الإمبراطور للربان المحاربين دون أي ثمن آخر سوى الجزية السنوية التي كانت نوع من البازات^(٤٢) التي تتربى في تلك الجزر.

كان فعلاً قد تقدم في السن ومتعباً، تقاعد في مايوركا، وعاش على أموال إقطاعيته الموجودة في كاتالونيا. تُرعب معاصي البطل ورذائله الأسرة وتفضحهم في الجزيرة. يرافقه ثلاثة شبان من المغاربة وسيدة يهودية ذات جمال عظيم كخدم في غرف جناح كامل من بيت فيرر الكبير، والذي كان أكبر بكثير في ذلك الوقت. كما احتفظ بعدد من العبيد، بعضهم أتراك، وآخرون تتاريون، كانوا يرتجفون عند رؤيته. ويتعامل مع عجائز ساحرات، ويستشير معالجين عبريين، يحبس نفسه في غرفة نومه مع كل هؤلاء الأشخاص المشبوهين، وكان الجيران يرتعدون وهم يرون نوافذه مشتعلة بنيران جهنم في وقت متأخر من الليل. كان بعض عبيده واهنين، شاحبين، كأن الحياة قد امتصتهم. كانت الناس تهمس أن القائد استخدم دمهم في شربات سحرية. كان

(٤٢) الباز: طائر جارح يشبه الصقر، يسكن الغابات.

دون بريامو يريد العودة إلى الشباب: يتوق لإحياء قواه الغرامية بنيران حيوية. تحدث كبير محققي مايوركا عن زيارة الأقارب والمأمورين القضائيين إلى غرف القائد؛ لكن أعلن الأخير، وقد كان ابن عمه، في رسالة عن نيته فتح رأسه بسيفٍ طويل بمجرد أن يتقدم قدمًا فوق الدرجة الأولى من سلمه.

مات دون بريامو، أو بالأحرى، انهار من المشروبات الشيطانية، تاركًا وصية بمثابة تلخيص لعدم مبالاته، قرأ خايمي نسختها. ورث محارب الكنيسة جوهر ممتلكاته، وكذلك أسلحته وتذكارات انتصاراته، لأبناء أخيه الأكبر، تمامًا كما يفعل دائمًا جميع الأبناء الثانيين في المنزل. ولكن بعد ذلك كانت هناك قائمة طويلة من الأوامر، وكلها لأبنائه الذين أعلن عن وجودهم مع إماء مسلمات أو صديقات يهوديات وأرمنيات ويونانيات واللاتي لا بد أنهن قد كُبرن في السن في ذلك الوقت، هرمات ومتجعدات، في أحد موانئ لبانت. لقد كان نسل بطريك توراتي، ولكن غير عادي ومُلون، نتاج تهجين دماء العدو، من أجناس متعارضة. قائد مشهور! يبدو أنه عندما نقض نذوره سعى لتخفيف هذا الخطأ باختياره دائمًا نساء كافرات. لقد أضاف إلى خطيئة نجاسته التجارة المخزية مع إناث عدوات للرب الحقيقي.

أعجب به خايمي باعتباره رائدًا أنقذه من شكوكه. ما الغريب أن يرتبط بتشويثًا، على قدم المساواة مع النساء الأخريات في العادات، المعتقدات والتعليم، إذا كان أشهر فرد في عائلة فيرر قد عاش، في عصر التعصب، خارج القانون تمامًا، مع إناث كافرات؟ لكن تحيزات

العائلة توقظ داخل خايمي الندم، وهو يتذكر فقرة في وصية القائد. ترك ممتلكات لأبناء إماءه المولودين من أعراق أخرى؛ لأنهم كانوا من دمه، وكان يريد أن يجنبهم معاناة البؤس، لكنه منعهم من استخدام لقب والدهم، اسم عائلة فيرر، التي كانت تحتفظ دائماً بمشكلات التهجين المخزي داخل بيتها في مايوركا.

عندما تذكر هذا، ابتسم خايمي في الظلام. من يستطيع الإجابة من الماضي؟ ما الألغاز التي لم تكن مخبأة في جذور أصل سلالتهم، هناك في العصور الوسطى، عندما كان آل فيرر وأثرياء كنيس بليار يتاجرون معاً ويُحمِلون سفنهم في ميناء بي؟ كان لدى عدد من أفراد عائلته، وحتى هو، كذلك آخريين من نبلاء مايوركا القدامى، شيء يهودي في وجوههم. كان نقاء الأجناس وهماً. كانت حياة الشعوب تكمن في الحركة، نسل ضخم من الاختلاط والفوضى.. لكن آه، التحيز المتغطرس للعائلة! انفصال خلقته العادات!

هو نفسه، الذي تظاهر بالسخرية من تحيزات الماضي، أحس بشعور لا يقاوم بالغرسة وهو بجانب دون بنيتو، الذي كان من المقرر أن يكون حماه. اعتبر نفسه أعلى منه؛ تسامح معه بلطف يُرثى له؛ كان قد ثار داخله عندما تحدث التشويثا الثري عن صداقته المزعومة مع دون أوراثيو. لم يكن صحيحاً؛ لم يتعامل آل فيرر مع هؤلاء الأشخاص أبداً. بينما ذهب أجداده إلى الجزائر مع الإمبراطور، ربما كان أجداد كاتالينا منعزلين في حي كالاترaba، يصنعون أشياء فضية، يرتجفون من فكرة أن الفلاحين قد ينزلون إلى پالما في الحرب، وينحنون شاحبين خوفاً أمام

كبير المحققين -أحد أفراد عائلة فيرر بلا شك- لكسب حمايته.

في الخارج، في غرفة الاستقبال، كانت هناك صورة لأحد أسلافه الأقل بعدًا، رجل نبيل ذو وجه حليق وشفيتين رفيعتين باهتتين، شعر مستعار أبيض وسترة حريرية حمراء، وفقًا للخرطوش الموجود على القماش، كان عضو مجلس بلدي دائمًا لمدينة پالما. أرسل الملك كارلوس الثالث خطابًا عمليًا إلى الجزيرة يحظر إهانة اليهود القدامى الكادحين والصادقين، مهّدًا كل من يسميهم تشويتا بعقوبة السجن. استشاط المجلس غضبًا من هذا التصرف السخيف للملك، اللطيف للغاية، وحل عضو المجلس البلدي فيرر الأمر بسلطة اسمه. «أُرسف الخطاب؛ قُبِل، لكنه لم يُنفذ. لماذا يحتاج التشويتا إلى الكرامة مثل أي واحد منا؟ طالما أنهم لا يلمسون الحقيقة أو المرأة، فهم راضون».

ضحك الجميع، قائلين لأنفسهم إن فيرر يتحدث بسبب تجربته الخاصة، فقد كان يهوى بشدة زيارة (الشارع)، حيث طلب عمل من صائغي الفضة ليتمكن من التحدث إلى الصائغات.

أيضًا كان في غرفة الاستقبال صورة لآخر من أسلافه، قاضي التحقيق دون خايمي فيرر، الذي يحمل الاسم نفسه. وجد في عُلية المنزل، عدة بطاقات زيارة، صفراء بفعل الزمن، باسم الكاهن الثري: بطاقات منقوشة بشعارات، بدأوا استخدامها في القرن الثامن عشر.

كان في وسط البطاقة صليب خشبي مع سيف وغصن زيتون؛ على كلا الجانبين درعان، أحدهما به صليب المكتب المقدس، والآخر به تنانين

ورؤوس ميدوسا^(٤٣). كانت الأصفاد والسياط والجماجم والمساح والشموع تُكمل الزخرفة؛ في الأسفل تشتعل نار حول عمود بحلقة وتمثل غطاءً يشبه قمعاً مزيناً بالثعابين والضفادع ورؤوس مقرونة. بين هذه الزخارف، يرتفع نوع من التابوت الحجري، ويُقرأ عليه بخط إسباني قديم: «المحقق العميد دون خايمي فيرر». لا بد أن المايوركي المسالم الذي يجد بطاقة الزيارة هذه عند عودته إلى منزله قد شعر برعبٍ مروع.

كذلك، مر عبر ذاكرته آخر من أسلافه، ذلك الشخص الذي يذكره بابلو بايس بغضب عندما ذكر حرق التشويتا وكُتِب الأب جاراو. كان فيرر أنيقاً وشهماً، يُثير حماسة سيدات پالما في أثناء الإعدام بالحرق الشهير، بثياب جديدة مطرزة بالذهب من قماش فلورنسا، فارس على جواد بهيٍّ مثل سيده ويحمل راية المحكمة المقدسة. يتحدث اليسوعي بحدة ملحمة تُظهرها هيئته الأنيقة. عند حلول المساء، شاهد الرجل النبيل عند سفح قلعة بيبّر كيف تشتعل النيران في جسد رافايل بايس الضخم وكيف انفجرت أحشاؤه وسقطت في المجرمة، وهو مشهد ألهاه عن وجود بعض السيدات، مما جعل حصانه يدور على شكل نصف دائرة بجانب أبواب العربات. كان القبطان بايس على حق: كان كل هذا بربرياً. لكن عائلة فيرر كانت عائلته؛ الاسم والممتلكات التي ضاعت فعلاً هو مدين لهم بها. وكان هو، آخر سليل عائلة فخورة بتاريخها، سيتزوج كاتالينا بايس، سليلة الرجل الذي أُعدم.

(٤٣) ميدوسا: أو ميدوزا بمعنى الحارسة أو الحامية، كما أنها تُدعى جورجونة وتعني المرعبة أو المخيفة أو المفزعة. وهي إحدى الجورجونات الثلاث في الأساطير اليونانية اللواتي يحولن كل من يقع نظرن عليه إلى حجر.

كانت النصائح التي سمعها في الطفولة والقصص البسيطة التي كانت مادو أنطونيا تسليه بها، تظهر الآن في ذاكرته مثل الأفكار المنسية، لكنها فتحت أحاديث عميقة. كان يفكر في التشويثا الذين -وفقاً للرأي الشعبي- لم يكونوا مثل الآخرين؛ كائنات من البؤس الدنيء والاتصال اللزج، الذين كان عليهم إخفاء فظاعات رهيبة. من يستطيع أن يؤكد له أن كاتالينا كانت مثل النساء الأخريات؟

في الوقت الحالي يفكر في بابلو بايس، المبهج والسخي للغاية، والمتفوق في صفاته على جميع أصدقائه في الجزيرة تقريباً. لكن بابلو كان بالكاد يعيش في مايوركا: فقد سافر كثيراً؛ لم يكن مثل أولئك الذين من عرقه، الساكنين في الوضع نفسه لقرون، يتكاثرون على كومة من دناءتهم وجبنهم، بدون قوة ولا تضامن للنهوض والحصول على الاحترام.

كان خايمي يعرف العائلات اليهودية الغنية في باريس وبرلين. حتى أنه طلب أن يعرفه على رجال إسرائيل المحترمين؛ ولكن عندما تواصل مع هؤلاء اليهود الحقيقيين، الذين حافظوا على دينهم واستقلالهم العرقي، لم يشعر بالاشمئزاز الغريزي الذي ألهمه به دون بنيتو المتدين وغيره من التشويثا في مايوركا. هل كانت البيئة هي التي أثرت فيه؟ هل كانت قرون الخضوع والخوف وعادة الانحناء قد جعلت من أولئك المايوركيين جنساً مختلفاً؟

انتهى الأمر بفيرر غارقاً في كآبة النوم، متدحرجاً في خضم تفكيره، مرتبكاً بشكل متزايد.

في صباح اليوم التالي، بينما يرتدي ملابسه، قرر القيام بزيارة معينة،
بجهد كبير من إرادته. كان هذا الزواج جريئًا وخطيرًا يتطلب تفكيرًا
طويلاً، كما أخبره صديقه المهرب.

فكر خايمي: قبل أن ألعب بطاقتي الأخيرة، سأقابل لا بابيسا خوانا،
التي لم أرها منذ سنوات عديدة؛ لكنها عمتي، أقرب أقربائي. بإنصاف،
يجب أن أكون وريثها. إذا أرادت! سيكون أن تقوم بإيماءة، وتنتهي كل
مشاكلي.

فكر في أفضل وقت لزيارة السيدة العظيمة. في المساء، كان
لديها اجتماعها الشهير مع الكهنة القانونيين والسادة المهمين، الذين
تستقبلهم بمظهر السيادة. كان هؤلاء هم الذين سيرثونها، كقادة
وممثلين لجمعيةات مختلفة ذات طبيعة دينية. كان لا بد أن يزورها على
الفور، ويفاجئها في وحدتها بعد القداس وتمارين الصباح.

تعيش السيدة خوانا في قصر بجوار الكاتدرائية. لقد ظلت عازبة،
كارهةً للعالم بعد بعض خيبات الأمل في شبابها، والتي كان والد
خايمي مسؤولاً عنها. كل عدوانية شخصيتها الصفراوية وحماس
إيمانها الجاف والمتغطرس كرستهما للسياسة وللدين. «من أجل الله
والملك»، كان يسمعها فيرر عند زيارتها وهو صبي.

في شبابها، كانت دونا خوانا تحلم ببطلات فونديه^(٤٤)؛ كانت
متحمسة لمآثر ولمصاعب دوقة بري^(٤٥)، راغبة في امتطاء الحصان،

(٤٤) فونديه: إقليم يقع غرب فرنسا، ويطل على المحيط الأطلسي.

(٤٥) بري: منطقة في وسط فرنسا.

مثل هؤلاء الإناث القويات في الدين والشرعية، مرتدية صليباً على صدرها وبجانب تنورة الفارسة سيف متدلّ. لكن هذه الرغبات لم تكن أكثر من تخیلات غامضة. في الواقع، لم تقم برحلة أخرى غير رحلة إلى كاتالونيا خلال حرب كارليست الأخيرة، لرؤية الشراكة المقدسة عن كثب التي استنفدت جزءاً من ممتلكاتها.

يؤكد أعداء لا بابيسا خوانا أنها عندما كانت شابة أخفت في قصرها كونت مونتمولين الطامح إلى التاج، وأنها كانت هناك على اتصال بالجنرال أورتيجا، النقيب العام للجزر. أضافوا إلى هذه النميمة حب دونا خوانا الرومانسي للطامح.

يتسم خايمي عند سماع هذه الأخبار. كله كذب. تحدث الجد دون أوراثيو، الذي كان ذا درايةٍ مراتٍ عديدةٍ إلى حفيده عن مثل هذه الأحداث. لا بابيسا كانت تحب والد خايمي فقط. كان الجنرال أورتيجا حالماً، استقبلته دونا خوانا بغموضٍ عاطفي، مرتديةً ملابس بيضاء في غرفة شبه مظلمة، تتحدث إليه بصوتٍ عذبٍ خيالي، كما لو كان ملاكاً من الماضي، عن الحاجة إلى إعادة إسبانيا إلى عاداتها القديمة وطرد الليبراليين وإعادة تأسيس حكومة الفرسان. «من أجل الله ومن أجل الملك!»، قُتل أورتيجا رمياً بالرصاص على ساحل كاتالونيا عندما فشل الإنزال في حرب كارليست، وبقيت لا بابيسا في مايوركا، مستعدة لمنح أموالها لشراكات مقدسة جديدة.

يعتبرها كثيرون مخربة بعد تبذيرها في الحرب الأهلية الأخيرة، لكن خايمي كان يعرف الثروة الحقيقية للسيدة الوريعة. كانت حياتها

بسيطة مثل حياة فلاحه؛ كان لديها عقارات ممتدة متبقية في الجزيرة، وجميع مدخراتها كانت تستثمرها في هدايا للكنائس والأديرة أو في التبرعات لخزينة سان بدرو. وقد تعرض شعارها القديم «من أجل الله ومن أجل الملك» للبتر؛ فلم تعد تفكر في الملك.

من بين حماسها القديمة للطامح دون كارلوس كانت تُبقي له صورة كبيرة فقط مع إهداء يزين الجزء الأكثر عتمة من قاعة الاستقبال. كانت تقول عنه:

- فتى جيد، فارس جيد، لكن تقريباً مثل الليبراليين. آه، الحياة في أرضٍ غريبة! كيف تُغير الرجال؟! يا لها من خطايا!

الآن كان حماسها لله وحده، وكان مالها في طريقه إلى روما. كان الوهم الأسمى يحرك حياتها. ألن يرسل لها الأب القديس (الوردة الذهبية) قبل وفاتها؟ كانت هدية مخصصة للملكات فقط فيما مضى، لكن بعض الورعات الثريات من أمريكا الجنوبية كن يحققن الآن هذا الامتياز. وكانت تُكثر من الهبات، وتعيش في فقر مقدس لتتمكن من إرسال مزيد من المال إلى الفاتيكان. (الوردة الذهبية) ثم تموت!

وصل فيرر إلى منزل لا بابيسا. مدخل البيت شبيه بمدخل بيته، وإن كان أكثر عناية وأكثر نظافة، خاليًا من الحشائش على الرصيف، بدون تشققات أو قشور على الجدران، مع نظافة رهبانية. في الأعلى فتحت الباب خادمة صغيرة شاحبة، ترتدي زياً أزرق مثل الأخوية وشريطاً أبيض. لم تستطع هذه الفتاة كبح إيماءة المفاجأة عندما تعرفت على خايمي.

تركته في قاعة استقبال مليئةً بـصور مثل القاعة الموجودة في منزل
فِبرر، وركضت بهرولة فأر خفيفة إلى الغرف الداخلية، لتعلن عن هذه
الزيارة الاستثنائية التي كدرت سلام القصر الرهباني.

مرت دقائق طويلة من الصمت. سمع خايمي خطى خفية في الحُجر
المجاورة؛ رأى مجموعة الستائر تتحرك قليلاً، كما لو كان يحركها
زفير ناعم؛ فخمن وجود أجساد تتجسس خلفها، عينان مختبئتان تراقبه.
عادت الخادمة إلى الظهور، وهي ترحب بالدون خايمي بلطفٍ شديد.
كان ابن أخ السيدة. رافقته إلى القاعة الكبيرة، واختفت.

تسلى فِبرر في أثناء انتظاره متأملاً هذه الغرفة الواسعة ذات الفخامة
القديمة. هكذا كان منزله في زمن جده. كانت الجدران مغطاة باللون
القرمزي الدمشقي الغني، وتبرز عليها لوحات دينية قديمة لفُرشٍ
إيطالية ناعمة. كان الأثاث من الخشب الأبيض والذهبي، مع منحنيات
دقيقة، مُنجَداً بالحرير السميك المطرّز. على موائد الحائط، منعكسة في
المرايا الزرقاء العميقة، تمتزج صور متعددة الألوان للقديسين وقلادات
من القرن السابع عشر مع صور أسطورية. كانت قبة السقف عليها رسم
جداري مائي لمجموعة من الآلهة والإلهات جالسين على السحب.
يتناقض عريهم الوردي وإيماءاتهم الجريئة مع الوجه المؤلم للمسيح
العظيم الذي بدا كأنه يترأس الغرفة، محتلاً الجزء الأكبر من الجدار
فوق قاعة الاستقبال بين بابين. تعترف لا بابيسا بخطيئة هذه الزخارف
الأسطورية؛ لكنها ذكريات الزمن الجيد، عندما كان يحكم الفرسان،
فكانت تحترمهم؛ محاولةً عدم رؤيتهم.

رُفِعَت مجموعة ستائر دمشقية ودخلت خادمة عجوز ترتدي الأسود، تنورة مستقيمة وصدريّة فقيرة، مثل فلاحه. شعرها الرمادي مغطى جزئياً بمنديل داكن، والذي منحه الزمن والشحوم صبغة حمراء. أسفل التنورة تطل قدمها مرتديتين الجوخ، مع جوارب بيضاء سميكة. أسرع خايمي للنهوض من مقعده. تلك الخادمة العجوز كانت لا بابيسا. الكراسي في حالة فوضى دائمة تشي بالاجتماعات التي تُعقد هناك كل مساء. كان ينتمي كل مقعد وفقاً للقانون العرفي إلى شخص ذي شأن، ويظل ثابتاً في المكان نفسه. جلست دونا خوانا عند دخولها على كرسي بذراعين يشبه العرش، المقعد الذي تترأسه مساء كل يوم خلال اجتماعها الدائم مع الكهنة القانونيين والأصدقاء القدامى والسادة أصحاب الأفكار السديدة، مثل ملكة تستقبل بلاطها.

قالت باقتضاب إلى ابن أخيها:

- اجلس.

مدت يديها، بحكم آلية العادة، على مجمرة فضية ضخمة كانت فارغة، وحدقت في خايمي بعينيها الرماديتين الصغيرتين ذواتي النظرة الحادة، المعتادتين على غرس الخوف. كانت هذه النظرة المتسلطة إنسانية، حتى ارتجفت بعاطفة دامعة. منذ ما يقرب من عشر سنوات لم ترَ ابن أخيها.

- أنت أنقى فبرر. أنت تشبه جدك.. مثل كل فرد في عائلتك!

وكانت تخفي تفكيرها الحقيقي؛ صمتت عن الشبه الوحيد الذي

حركها: تشابه خايمي مع والده، عندما كان ضابطاً في البحرية وجاء لرؤيتها في العصور القديمة. كل ما ينقصه ليكون مطابقاً لوالده هو زيه العسكري ونظارته.. آه، وحش الليبرالية والجحود!

عادت عيناها إلى قساوتهما المعتادة؛ بدت ملامحها أكثر جفافاً وشحوباً وبروزاً.

قالت بفضافة:

- ماذا تريد؟ لأنك بالتأكيد لم تأتِ من أجل متعة رؤيتي!

أخفض خايمي عينيه بنفاق طفولي، خائفاً من الوصول إلى مطلبه الحقيقي، شرع في قصته من بعيد. لقد كان جيداً، كان يؤمن بكل قديم، ويريد أن يحافظ على هيبة عائلته ويزيدها.. لم يكن قديساً، كان يعترف بذلك؛ كانت حياته المجنونة تستنفد ممتلكاته.. لكن شرف المنزل لا يمس دائماً! من حياة الخطيئة والخراب هذه خرج بشيئين ممتازين: الخبرة والنية الراسخة للتصحيح.

- عمتي، أريد أن أغير طريقة معيشتي؛ أريد أن أكون شخصاً آخر. وافقت العمة مع لفطة غامضة. جيد جداً؛ هذا ما فعله القديس أوغسطينوس وغيره من القديسين الذين أمضوا شبابه في إجازة؛ ليصبحوا فيما بعد من علامات الكنيسة.

شجعت بهذه الكلمات ابن أخيها. من المؤكد أنه لن يكون بمثابة علامة في أي شيء، لكنه أراد أن يكون رجلاً مسيحياً صالحاً؛ سيتزوج، وسيُعلم أبناءه لاستمرار تقاليد المنزل؛ مستقبل جميل. لكن للأسف!

حياة فوضوية مثل حياتك يصعب إصلاحها عندما يحين الوقت لتوجيهها نحو الفضيلة. كان يحتاج إلى المساعدة. كانت العمة مفلسة. كانت العقارات في أيدي الدائنين؛ كان منزلها صحراء: لقد حمت نفسها ببيع ذكريات الماضي. هو -فرد من آل فيرر- سيجد نفسه في منتصف الشارع إذا لم تقدم إليه يد رحيمة الدعم. وقد فكر في عمته -التي كانت، بعد كل شيء، أقرب أقربائه، مثل والدته- لإنقاذه.

جعلت هذه الأمومة المفترضة دونا خوانا تحمر خجلًا قليلًا، وزادت من تألق عينيها القاسي. آه، الذاكرة وذكرياتها المؤلمة!

قالت لا بابيسا ببطء، بصوتٍ يصفر من بين أسنانها المتباعدة والمائلة إلى الصفرة، لكنها لا تزال قوية:

- وهل تتوقع مني خلاصك؟ أنت تضيع وقتك يا خايمي. أنا فقيرة.. ليس لدي شيء تقريبًا. فقط ما هو ضروري للعيش وعمل بعض الصدقات.

قالتها بحزم لدرجة أن فيرر فقد الأمل ورأى أنه من غير المجدي الإصرار. لم ترغب لا بابيسا في مساعدته.

قال باستياء:

- حسنًا. لكن في غياب دعمك، لا بد لي من إيجاد طريقة أخرى للخروج من أزماتي، ولديّ واحدة. حضرتك الآن الأكبر في عائلتي، ويجب أن أطلب نصيحتك. لديّ زواج مخطط يمكن أن ينقذني: الزواج من شخص ثري، لكنها ليست من طبقتنا، بل من أصل متواضع. ماذا عليّ أن أفعل؟

توقع من عمته حركة مفاجأة وفضولاً. ربما كان إعلان زواجه من شأنه أن يلينها. تقريباً كان متأكداً من أنها ستدعن لكل شيء، وهي خائفة من مثل هذا الخطر الهائل على شرف منزلها ودمها، وتمنحه حمايتها. لكن تفاجأ خايمي -المرعوب- عندما رأى شفاه المرأة العجوز الشاحبة تتجعد بابتسامة باردة.

قالت:

- أنا أعلم. أخبروني بكل شيء هذا الصباح في سانتا إولاليا، عند مغادرة القديس. بالأمس كنت في بايدموسا. أنت تتزوج.. تتزوج.. بتشويتا.

استغرق الأمر جهداً لإخراج الكلمة، وارتجفت وهي تقولها. بعد ذلك، ساد صمت طويل في القاعة، سكون مأساوي ومطلق من الذي يعقب الكوارث الكبيرة، كما لو أن المنزل قد انهار للتو، وتلاشى صدى آخر جدار منهار.

تجرأ خايمي على السؤال بخجل:

- وما رأيك؟

قالت لا بابيسا بيرود:

- افعل ما تريد. أنت تعلم أننا لم نر بعضنا منذ سنوات عديدة، والطريقة نفسها يمكننا أن نتابع لبقية حياتنا. أنا وأنت الآن مثل دم آخر؛ نحن نفكر بشكل مختلف. لا يمكننا أن نفهم بعضنا. أصر:

- إذن هل يجب أن أتزوج؟

- اسأل نفسك ذلك. يسير آل فيبرر لسنوات عبر تلك المسارات، لا يفاجئني أي شيء منها.

كان خايمي يخمن في عيني عمته وصوتها متعة مكبوتة، وشهوة الانتقام، وفرحة رؤية أعدائها يسقطون فيما كانت تعتبره عارًا، وأزعجه هذا.

قال مقلدًا برودة دونا خوانا:

- وإذا تزوجت، فهل يمكنني الاعتماد عليك؟ هل ستأتين إلى حفل زفافي؟

وضع هذا حدًا لهدوء لا باييسا، وجعلها تقف بغطرسة. حضرت في ذاكرتها القراءات الرومانسية لشبابها. تحدثت مثل ملكة غاضبة في نهاية فصل من رواية تاريخية.

- أيها السيد، أنا خنوبارت من ناحية والدي. كانت والدتي من عائلة فيبرر، لكن كلاهما جيد؛ الواحد مثل الآخر. إنني أنكر الدم الذي سيختلط بدم الأشرار قتلة المسيح، وأحتفظ بدمي، مع دم والدي، الذي سينتهي معي طاهرًا وصادقًا.

أشارت إلى الباب بإيماءة متعجرفة في ختام المقابلة. ولكن بعد ذلك بدت كأنها تدرك كم كان احتجاجها غير متوقع ومسرحيًّا، وخفضت عينيها، وأصبحت أكثر إنسانية، واتخذت مظهرًا من الوداعة المسيحية.

- وداعًا يا خايمي. قد يلهمك الرب!

- وداعًا يا عمتي.

مد يده إليها بدافع العادة، لكنها سرعان ما سحبت يدها اليمنى، وأخفتها خلف ظهرها. ابتسم فيرر عندما تذكر بعض الأخبار من الثرثارين. هذا التراجع لا يعني الازدراء ولا الكراهية. كان السبب أن لا بابيسا تعهدت ألا تلمس أيدي رجال آخرين غير الكهنة في حياتها.

عندما رأى نفسه في الشارع انفجر في السباب في صمت، وهو ينظر إلى شرفات البيت الكبير الدائرية. خبيثة! كيف كانت سعيدة بزواجه! عندما يتحقق هذا، ستتظاهر بالسخط والفضيحة أمام أعضاء اجتماعاتها. ربما تمرض، حتى يشعر الجميع في الجزيرة بالأسف تجاهها، ومع ذلك كانت فرحتها هائلة، فرحة انتقام تحتضنه لسنوات عديدة، رؤية فيرر -ابن الرجل المكروه- ينغمس في ما كانت تعتبره أبشع عار... وهو -مدفوعًا بقلق الخراب- مضطر أن يمنحها هذه المتعة بالزواج من ابنة بايس! آه، يا للبؤس!

تجول حتى بعد منتصف الظهيرة في الشوارع شبه الخاوية بجوار المودينا والكاتدرائية. كان خور معدته يوجه خطواته غريزيًا نحو منزله. أكل صامتًا، لا يعرف ما كان يأكله، ولا ينظر إلى مادو، القلقة منذ اليوم السابق، والتي تحوم حوله متلهفة لبدء محادثة.

بعد تناول الطعام، خرج إلى رواق صغير يطل على الحديقة، مع درابزينه المتهالك ذي الأعمدة تعلوه ثلاثة تماثيل نصفية رومانية. عند قدميه تمتد أوراق أشجار التين، والأوراق المطلية لأشجار ماغوليا،

والكرات الخضراء لأشجار البرتقال. كانت تقطع جذوع أشجار النخيل الفضاء الأزرق أمامه، وخلف شرفات الجدار المدببة يمتد البحر مضيئاً مع ارتجافات الحياة، كما لو أن المراكب تدغدغ جلده الناعم، وأشروعها في مهب الريح. كان الميناء إلى اليمين مليئاً بالصواري والمداخن الصفراء؛ وأبعد من ذلك تتقدم الكتلة المظلمة لأشجار صنوبرٍ يَبِيرُ في مياه الخليج، وعلى قممها القلعة القديمة مستديرة كحلبة مصارعة الثيران، مع برج التكريم الخاص بها المنفصل والمعزول، دون أي رابطة أخرى غير جسر رائع. في الأسفل تمتد قرية تَرْنُو الصغيرة الحديثة والحمراء، وأبعد، في طرف الرأس، ميناء بي القديم، مع برج الإشارات ومدفعيات سان كارلوس.

على الجانب الآخر من الخليج -ضائعاً في البحر في ضباب الأفق الطافي- رأس له لون أخضر داكن وصخور ضاربة إلى الحمرة قاتمة وغير مأهولة.

تبرز الكاتدرائية فوق زرقة السماء بدعوماتها وأقواسها، مثل سفينة حجرية بصواري مقطوع طرفها تقذفها الأمواج بين المدينة والساحل. بعد المعبد، يُظهر حصن المودينا القديم أبراجه المغاربية الحمراء. في قصر الأسقف، يلعب مثل صفائح من الصلب المائل إلى الحمرة زجاج برج المراقبة، كما لو كان يعكس حريقاً. بين هذا القصر والسور البحري، في خندق عميق مليء بالعشب، تتسلق أكاليل شجيرات الورد فوق جدرانها، ويتكوم عدد من المدافع: بعضها قديم جداً مثبت على عجلات؛ وأخرى حديثة متناثرة على الأرض منتظرة لسنوات

لحظة تحديد موقعها. تبدو الأبراج المصفحة صدئة، وكذلك عربات المدافع. تبدو المدافع بعيدة المدى المطلية باللون الأحمر والغارقة في العشب كأنها أنابيب نفايات. كان النسيان وصدأ الهجر يُشيعان هذه القطع الحديثة. يبدو أن الجو التقليدي والشيخوخة التي غلفت الجزيرة -وفقاً لفبرر- تؤثر على هذه الأدوات الحربية التي صارت بالية بعد وقتٍ قصير من ولادته وقبل أن يتكلم.

غير متأثر ببهجة الشمس وبالخفقان المضيء للاتساع الأزرق وبزقزقة العصافير التي ترفرف عند قدميه، كان يسيطر على خايمي الحزن الشديد واليأس المشبوط.

لماذا نقاتل مع الماضي؟ كيف التحرر من سلسلته؟ كل واحد عند ولادته يجد المكان والإيماءة المحددة لأجل مسار حياته، ولا جدوى من الرغبة في تغيير الوضع والموقف.

في كثير من الأحيان، في بداية شبابه، عند رؤية المدينة ومحيطها الضاحك من القمة، كان يشعر أن الأفكار الحزينة تلاحقه. في الشوارع التي تغمرها الشمس أو تحت قشور الأسطح، يتحرك الحشد البشري، مدفوعاً باحتياجات وأفكار اللحظة التي يعتبرها شديدة الأهمية. يصدق الجميع مع أكثر درجات سذاجة وعبث الأنانية أن إرادة عليا وقديرة ستراقب وتوجه مجيئهم وذهابهم، تماماً مثل تلك الموجودة في النقايات^(٤٦) في قطرة الماء. خارج المدينة، كان خايمي يرى بخياله حوائط ترابية رتيبة، وأشجار سرو تطل أطرافها من فوقها، وبلدة

(٤٦) النقايات: حيوانات مجهرية، تتكون من مادة هلامية مغلفة بغشاء رقيق.

مزدحمة بالمباني البيضاء، مع نوافذ مثل فتحات الفرن، وبلاطات تبدو أنها تغطي مداخل الكهوف. كم كان عدد سكان المدينة القاطنين في ساحاتها وشوارعها الواسعة؟ ستين ألفاً... ثمانين ألفاً. آه! في البلدة الأخرى الواقعة على مسافة قصيرة المزدحمة الصامتة والمتكدسة ببيوتها البيضاء الصغيرة وسط أشجار السرو الغامضة، كان السكّان غير المرئيين أربعمئة ألف أو ستمئة ألف وربما مليون.

في وقتٍ لاحق -في مدريد- فكر ذات مساء في الشيء نفسه عندما يسير مع امرأتين في ضواحي المدينة.

كانت قمم التلال المجاورة للنهر تحتلها بلدات صامتة تظهر بين مبانيها البيضاء مجموعات حادة من أشجار السرو. وعلى الجانب المقابل من المدينة الكبيرة هناك أيضاً معسكرات صمت ونسيان أخرى. تعيش المدينة داخل طوق محكم من حصون اللا شيء. كان نصف مليون كائن حي يتفضون في الشوارع، معتقدين أنهم منفردون في السيطرة وقيادة الحياة، دون أن يتذكرون أو يعرفون أربعة أو ستة أو ثمانية ملايين كائن مشابه ظلوا غير مرئيين في المقابر المجاورة.

يفكر أيضاً في باريس، حيث يعيش أربعة ملايين من الجيران المستيقظين محاطين بعشرين مليوناً أو ثلاثين من السكّان السابقين النائمين إلى الأبد؛ وتطارده الفكرة الحزينة نفسها في كل المدن الكبرى. الأحياء ليسوا وحدهم في أي مكان. الأموات يحيطون بهم في كل مكان، وبما أنهم أكثر وليس لديهم حدود، فإنهم يثقلون حياتهم بثقل الوقت والعدد.

لا؛ الموتى لا يمضون سريعاً كما يقول المثل الشعبي. الموتى يظلون ساكنين على حافة الحياة، يتجسسون على الأجيال الجديدة، يُشعرونهم بسلطة الماضي مع حنين قاسٍ داخل أرواحهم في كل مرة يحاولون فيها الابتعاد عن الدرب الذي يميزه الروتين.

يا له من طغيان! يا لها من قوة لا حدود لها! لا جدوى من تشتيت الأعين وشل الذاكرة؛ إنهم موجودون في كل مكان، ويشغلون جميع طرق حياتنا، ويظهرون لنا في الطريق لتذكيرنا بفوائدهم، مما يدفعنا إلى الامتنان المهين. يا لها من عبودية! البيت الذي نعيش فيه بناه الموتى؛ والديانات هم مَنْ وضعوها. القوانين التي نطيعها أملاها الموتى، وصنيعهم هو أيضاً شغفنا وأذواقنا، الغذاء الذي يدعمننا، كل ما تنتجه الأرض المحروثة بأيديهم التي أصبحت الآن تراباً. الأخلاق والعادات والأحكام المسبقة والشرف.. كله من صنيعهم. لو فكروا بشكلٍ مختلف، فسيكون صنيع آخر هو التنظيم الفعلي للرجال. الأمور اللطيفة التي تُرضي عقولنا تكون هكذا؛ لأن الأموات يريدون ذلك؛ البغيضون وعديمو النفع ينغمسون في دنائتهم بإرادة أولئك الذين لم يعودوا موجودين؛ ما هو أخلاقي وما هو فاسق هي أحكام أصدروها منذ قرون.

الرجال الذين يجاهدون لقول أشياء جديدة لا يفعلون شيئاً أكثر من تكرار الشيء نفسه الذي قاله الأموات منذ قرون وقرون. ما نعتبره أكثر عفوية وشخصياً فينا يُمليه علينا معلمون خفيون ممددون في مرآدهم في الأرض، الذين بدورهم تعلموا الدرس من الموتى السابقين. في

نقطة الضوء في أعيننا تحترق روح أجدادنا، تمامًا كما هو الحال في خطوط ملامحنا تتوالد وتنعكس ملامح الأجيال المختفية.

ابتسم فبرر بحزنٍ شديد. نعتقد أننا نفكر من جهتنا، وفي تلافيف أدمغتنا تتحرك قوة عاشت في كائنات حية أخرى، على غرار نُسغ^(٤٧) التطعيم الذي ينقل الطاقة من الأشجار القديمة والمحتضرة إلى زرع جديد. ما نقوله أحيانًا بشكلٍ عفوي، باعتباره آخر حادثة تفكيرنا، هو فكرة من الآخرين راسخة في أدمغتنا منذ الولادة، حيث تكسر فجأةً غلافها. الأذواق والأهواء والفضائل والعيوب والتجانس والنفور، كله موروث، كله صنعة المختفين الذين يعيشون فينا.

يا له من رعب كان يفكر به خايمي في قوة الموتى! كانوا يختبئون لجعل استبدادهم أقل قسوةً، لكنهم لم يموتوا حقًا. كانت أرواحهم قابضة ويقتطع في حدود مجال حياتنا، تمامًا كما كانت تشكل أجسادهم حقلاً راسخًا حول التجمعات البشرية. يتجسسون علينا بأعينٍ صارمة، ويتبعوننا، ويدفعوننا جانبًا بمخلب غير مرئي عندما نحاول الانحراف قليلًا عن الطريق. كانوا يجتمعون جميعهم معًا لسحب قطعان الرجال الذين انطلقوا لغزو نموذج جديد وغير عادي بقوة شيطانية، وهم يستعيدون برد فعل عنيف هدوء الحياة، الذي يحبونه صامتًا ومريحًا، مع حفيف الأعشاب الذابلة ورفرفة الفراشات البيضاء: هدوء حلو لمقبرة قابضة أسفل الشمس.

كانت روح الموتى تملأ العالم. الموتى لا ينصرفون؛ لأنهم السادة.

(٤٧) نُسغ: سائل غذائي يجري في نسيج النباتات لتغذيته.

الموتى يحكمون، ولا جدوى من مقاومة أوامرهم.

آه! رجل المدن الكبرى، الذي يعيش في سرعة شديدة، لا يعرف من صنع منزله، ومن حضر خبزه، ولا يرى أعمالاً أخرى للطبيعة الحرة غير الأشجار الفقيرة التي تزين الشوارع، يتجاهل استبداد الموتى. إنه لا يعرف حتى أن حياته تمضي بين ملايين وملايين الأجداد الذين يتجمعون على بعد خطوات منه ويتجسسون عليه ويوجهونه. يطيع ميولهم بشكل أعمى، ولا يعرف أين ينتهي طرف الحبل المربوط بروحه؛ إنه يعتقد أن كل أفعاله -المسير المسكين!- نتاج إرادته، بينما لا تكون أكثر من فروض من القادرين غير المرئيين.

كان خايمي، منغمساً في الحياة الرتيبة لجزيرة هادئة، متعرفاً على أسلافه واحداً تلو الآخر، مدرّكاً أصل وتاريخ كل ما كان يحيط به - الأشياء، الملابس والأثاث - ومن ذلك المنزل الذي كان يبدو أنه يمتلك روحاً، يستطيع الانتباه إلى هذا الطغيان أفضل من الباقين.

نعم؛ الموتى يحكمون. سلطة الأحياء ومستجداتهم المذهلة، كله وهم! خداع يجعلنا نتأقلم مع الحياة!

فكر فيرر، وهو ينظر إلى البحر، الذي يتميز أفقه بعمود دخان ضعيف لسفينة بخارية، في عابرات المحيطات الضخمة، والمدن العائمة، ووحوش السرعة، وفخر الصناعة البشرية، التي يمكنها الإبحار حول العالم في وقتٍ قصير.. كان أجداده البعيدون في العصور الوسطى، الذين يذهبون إلى إنجلترا على متن سفينة بحجم قارب صيد، يمثلون شيئاً فوق العادة. وقباطنة الحاضر العظماء، مع قطعانهم التي لا

نهاية لها من الرجال، لم ينجزوا مآثر أعظم من القائد بريامو مع حفنة من البحارة.

آه من الحياة! يا لها من حيل، ويا لها من أوهام نطرزها فوقها لنُخفي رتابة حبكتها! ما هو محدود من تأثيراتها ومفاجأتها مزعجة. أن تعيش ثلاثين عامًا مثل ثلاثمائة. يُحسّن الرجال الألعاب المجدية لأجل أنانيتهم ورفاهيتهم والآلات ووسائل الحركة؛ ولكن بصرف النظر عن هذا، ما كان يُعاش من قبل يُعاش الآن. العواطف والأفراح والمخاوف هي نفسها: لا يتغير الحيوان البشري.

كان يعتقد أنه رجل حر، يمتلك روحًا أسماها (حديثه)، تخصه، كلها تخصه، والآن اكتشف فيها خليطًا مرتبًا من أرواح أسلافه. كان يمكنه التعرف عليهم لأنه درسهم، لأنهم كانوا محفوظين في غرفة مجاورة، في خزانة المحفوظات، مثل تلك الزهور المجففة التي تُحفظ مسحوقة بين صفحات كتاب قديم. لا يستطيع غالبية البشر -الذين يحتفظون فقط بذاكرة أجداد أجدادهم، على أكثر تقدير، والعائلات التي لا تعرف تاريخ ماضيها بالتفصيل عبر القرون- أن يدركوا حياة الأجداد التي تدوم في أرواحهم، معتبرين الصرخات التي يطلقها الأسلاف داخلهم وحيا خاصًا بهم. جسدنا هو لحم أولئك الموتى؛ أرواحنا شظايا أرواح موتى آخرين.

كان خايمي يشعر أن الجدد الوقور دون أوراثيو يعيش داخله، ومعه شكوك المحقق دكانو، صاحب البطاقة المرعبة، وأرواح القائد الشهير والأسلاف الآخرين. احتفظت عقلية الرجل المعاصر الخاصة به بشيء

من عقلية ذلك النائب الدائم في البلدية الذي كان يعتبر يهود الجزيرة المتحولين عرقاً منفصلاً ومنحطاً.

الموتى يحكمون. الآن فسر الاشتمزاز الذي يشعر به عند الاتصال مع ذلك الدون بنيتو البشوش والمهذب.. وكانت هذه المشاعر لا تقاوم! فرضها عليه آخرون كانوا أقوى منه. كان الموتى يحكمونه، وكان عليه أن يطيع.

هذا التشاؤم جعله يتذكر وضعه الحالي. كل شيء ضاع! لم يكن جيداً في الأعمال الصغيرة، من أجل المعاملات والترتيبات التي تُنجح حياة الأزمات. لقد عدل عن ذلك العُرس الذي كان خلاصه الوحيد، وسيسقط عليه الدائنون بمجرد علمهم بهذا التخلي الذي حطم آمالهم. سيجد نفسه مطروداً من منزل أجداده، وسيتعاطف الناس معه بألم أكثر من الإهانة. شعر بالعجز عن مشاهدة الانهيار النهائي لعرقه ولاسمه. ماذا يفعل؟ إلى أين يذهب؟

أمضى جزءاً كبيراً من المساء يتأمل البحر، متتبّعاً مسار الأشرطة البيضاء التي تختبي خلف الرأس أو ضائعة في أفق الخليج الطويل.

بعد ابتعاده عن الشرفة، وجد فيرر نفسه -دون أن يعرف كيف- يفتح باب المصلى، باباً قديماً ومنسياً، عندما صرّ على مساميره الصدئة نثر الغبار وخيوط العنكبوت. كم من الوقت مضى منذ أن دخل هناك؟! في هذه البيئة الكثيفة للغرفة المغلقة، اعتقد أنه يشعر برائحة غامضة من خلاصة عطور، من زجاجة عطر مفتوحة ومهملة؛ رائحة جعلته يتذكر سيدات العائلة المهيئات اللواتي كانت صورهن في قاعة الاستقبال.

من خلال شعاع الضوء الذي يتسلل عبر نوافذ القبة، ترقص ملايين من جزيئات الغبار التي ألهمتها الشمس في دوامة تصاعدية. يتألق المذبح -المنحوتة القديمة- بشكلٍ خافت في شبه الضوء مع انعكاسات الذهب القديم. فوق المنضدة المقدسة هناك بعض المنافض ودلو، منسيين هناك منذ سنوات، منذ آخر عملية تنظيف.

يبدو أن اثنين من كراسي الركوع من المخمل الأزرق القديم لا يزالان يحتفظان بأثر السادة والأجساد الرقيقة التي لم تعد موجودة. كان على مكاتبهم -كأنهما منسيان- كتابا صلاة بأطرافٍ متأكلة بسبب الاستخدام. تعرف خايمي على أحد هذين الكتابين. كان ملكًا لأمه، السيدة المسكينة الشاحبة والمريضة التي كانت تُقسم حياتها بين الصلاة وعشق ابنها الذي تحلم من أجله بعظمة كُبرى. ربما كان الآخر يخص جدته، تلك الأمريكية من زمن الرومانسية، التي كانت تبدو أنها تهز المنزل الكبير بملامسة فساتينها البيضاء وهمسات قيثارها.

هذا الظهور من الماضي، لا يزال كامناً في الكنيسة الصغيرة المهجورة، ذكرى هاتين السيدتين، إحداهما الورعة تمامًا، والأخرى المثالية الأنيقة الحالمة، انتهت إلى إزعاج فيرر. والتفكير أنه قريباً ستأتي أيدي الربا الكبيرة لتدنيس كثير من الأشياء الموقرة! وهو لن يكون قادرًا على مشاهدة ذلك. وداعًا! وداعًا!

عند الغسق، بحث عن توني كلايس في بورن. طلب منه المال، بثقة ودية كان يوحي بها إليه المهرب.

- لا أعرف متى يمكنني إعادته لك. سأغادر مايوركا. فليغرق كل شيء، لكنني لن أراه.

أعطى كلابس خايمي أموالاً أكثر مما طلب. بقي توني على الجزيرة، وبمساعدة القبطان بايس سيحاول تسوية شؤونه، إذا كان ذلك لا يزال ممكناً. يفهم القبطان الأعمال، ويعرف كيفية كشف أكثر الأمور إرباكاً. كان هو وفيرر على خلاف منذ اليوم السابق؛ لكن لم يكن الأمر مهماً؛ فبايس كان صديقاً حقيقياً.

أضاف فيرر:

- لا تخبر أحداً أنني سأغادر. يجب أن تعرف أنت فقط... ويا بلو. أنت محق في قولك إنه صديق مخلص.

- متى تغادر؟!

كان ينتظر أول باخرة تغادر إلى إبيزا. لا يزال يمتلك شيئاً هناك: كومة من الصخور مع الأعشاب والأرانب؛ برجاً متهاكاً من زمن القراصنة. لقد عرف ذلك عن طريق الصدفة منذ اليوم السابق: أخبره بعض الفلاحين من إبيزا كان قد التقى بهم في بورن.

- هو نفسه أن تكون هناك مثل أي مكانٍ آخر... ربما أفضل بكثير. سأقتنص واصطاد. سوف أعيش بدون رؤية الناس.

ضغط كلابس -متذكراً نصيحته في الليلة السابقة- على يد خايمي بارتياح. انتهى أمر التشويث! كانت روح الفلاح داخله سعيدة بهذا الحل.

- أنت بخير في الذهاب. غير ذلك... غير ذلك كان جنوناً.

الجزء الثاني

يتأمل فيرر صورته، وهي خيال شفاف، مع محيط عائم بسبب ارتعاش المياه، حيث يمكن من خلاله رؤية قاع البحر مع بقع لبنية من الرمال وكتل داكنة منفصلة عن الجبل مغطاة بقشور نباتية.

تتموج أعشاب البحر بشعرها الأخضر مرتجفة؛ وتتجمع ثمار مستديرة تشبه التين الشوكي بيضاء على حواف الصخور؛ وتبدو الزهور كأنها من عرق اللؤلؤ تتلألأ في أعماق المياه الخضراء؛ ومن بين هذه النباتات الغامضة تبرز نجوم البحر بأطرافها الملونة، يتكور القنفذ مثل بقعة سوداء مليئة بالأشواك، وتطفو اليعاسيب بتململ، وشرر فضي وأرجواني من ذيول وعوامات تمر بسرعة بين زوايا من فقاعات، تخرج من كهف لتضيع في فم آخر من الغموض الذي لا يُدرَك غوره.

ينحني خايمي على جانب قارب صغير سقط شراعه. أمسك المقود بإحدى يديه، وهو عبارة عن سلك طويل به عدة صنابير تكاد تلامس قاع البحر.

كان الوقت يقترب من منتصف النهار. القارب الصغير في الظل. ويمتد خلف خايمي ساحل إبيزا البري في تجاويف كبيرة بنقاط بارزة وثغرات عميقة. أمامه ترتفع بدرا -صخرة منعزلة- معلّم عظيم يبلغ

ارتفاعه ثلاثمائة متر، والذي يبدو في عزلته أكثر ضخامة. عند سفحه، يمنح ظل العملاق للمياه لونًا كثيفًا وشفافًا في الوقت نفسه. وراء ظلها المزرق، كان البحر المتوسط هائجًا مع فوران ذهبي تحت ضوء الشمس، وتبدو شواطئ إبيزا الحمراء المكشوفة كأنها تشع نارًا.

يأتي خايمي للصيد طوال الأيام الهادئة في قناة ضيقة بين الجزيرة وبِدرًا. في الأيام الجيدة، كان هناك نهر من المياه الزرقاء، مع صخور تحت الماء تطل رؤوسها السوداء فوق السطح. سمح العملاق بالاقتراب، دون أن يفقد مظهره المهيّب والقاسي والعدائي. بردت الرياح، وتوجت الرؤوس نصف المغمورة بالرغوة، وهي تُطلق زئيرها؛ تخللت جبال المياه الصماء والحيوية في المضيق البحري، وكان من الضروري رفع الشراع والفرار في أسرع وقت ممكن من هذا الزقاق، فوضى صاخبة من الدوامات والتيارات.

في مقدمة القارب كان العم يتولر، بحار قديم أبحر على متن سفن من دول مختلفة، وكان رفيق خايمي منذ وصوله إلى إبيزا. «ما يقرب من ثمانين عامًا يا سيدي»، ولم يترك يومًا واحدًا دون الإبحار للصيد. لا أمراض ولا خوف من سوء الأحوال الجوية. كان وجهه مسمرًا من الشمس والهواء المالح، لكن مع قليل من التجاعيد. كانتا الساقان النحيلتان المكشوفتان تحت السروال المشمر لهما جلد نضر ومشدود لطرفين قوين. كشفت البلوزة -المفتوحة على الصدر- عن لبدة رمادية من الشعر، لها لون رأسه نفسه، مغطاة بقبعة سوداء -ذكرى من رحلته الأخيرة إلى ليفربول- مع شرابة حمراء في الأعلى وشريط عريض به

مربعات صغيرة بيضاء وحمراء. كان وجهه مزيناً بسوالف رفيعة وأقراط نحاسية تتدلَّى من أذنيه.

كان خايمي - عند لقائه - فضولياً بشأن هذه الحلي.

قال بنتولرا بلهجته الإيبيرية، وهو يتغني بالكلمات بصوتٍ خفيض عذب:

- عندما كنت فتى، كنت صبي بحار على متن سفينة شراعية إنجليزية. كان صاحبها مالطياً متعجباً للغاية، وله سوالف وأقراط. وقلت لنفسي: «عندما أصبح رجلاً، يجب أن أكون مثل السيد»، على الرغم من أنك تراني هكذا الآن، إلا أنني كنت متأنقاً جداً وأحب تقليد الأشخاص الذين يستحقون.

في الأيام الأولى التي اصطاد فيها خايمي في بدرا، نسي أن ينظر إلى الماء وعدة الصيد التي في يده، من أجل أن ينظر إلى العملاق الذي يرتفع فوق البحر، منفصلاً عن الساحل.

كانت الصخور تتكدس، ملحومة بعضها ببعض، وعندما تصعد في الفضاء، تجبر المتفرج على إلقاء رأسه للخلف للوصول إلى القمة الحادة بعينه. من السهل الوصول إلى الصخور على حافة الماء. يتغلغل البحر بينها، غارقاً في الأروقة المنخفضة للكهوف تحت الماء، كان ملجأً فيما مضى للقراصنة، والآن مستودعات للمهربين في بعض الأحيان. يمكن السير قفزاً من صخرة إلى أخرى، بين الكبائن والنباتات البرية الأخرى، على طول جزء من حافة بدرا؛ ولكن في مكان أبعد في الصخرة كانت ترتفع مستقيمة، ملساء، لا يسهل الوصول إليها، بجدران

رمادية مصقولة ذات رؤوس. على ارتفاع هائل كانت هناك بعض الهضاب مغطاة باللون الأخضر، وخلفها الصخرة تعلو مرة أخرى في قطعها الرأسي، حتى تصل إلى القمة، حادة مثل الإصبع. يقوم بعض الصيادين بتسلق جزء من هذه القلعة، مستغلين الزوايا الناتئة من الحجر كمسارات للوصول إلى الهضاب الأولى. ووفقاً لما قاله العم بنتولرا، فإن راهباً واحداً فقط هو من ذهب إلى أبعد من ذلك، ونفته الحكومة باعتباره محرّضاً كارليستياً، قام ببناء صومعة كويّس على ساحل إيزا.

وتابع العجوز:

- لقد كان رجلاً فظاً وجريئاً. يقولون إنه وضع صليباً في الأعلى، لكن الرياح العاتية أزالته منذ وقتٍ طويل.

رأى فيبرر قفراً فوق تجاويف الصخرة الرمادية الضخمة، المظلمة بخضار الأبهل والصنوبر البحري، وبعض النقاط الملونة، المشابه للبراغيث الحمراء أو الضاربة إلى البياض، التي تتحرك باستمرار. كانوا ماعزٍ بدرا؛ ماعزًا بريًا بسبب العزلة، تخلوا عنها منذ سنوات عديدة وتكاثرت بعيداً عن الإنسان، بعد أن فقدت كل عادات الحياة المنزلية، وهي تهرب إلى أعلى الجبل بقفزات مذهلة بمجرد اقتراب قارب إلى الصخرة. في الصباح الهادئ كان يمتد صوتها، الذي يضخمه الصمت الريفي فوق سطح البحر.

ذات فجر، أطلق خايمي -الذي أحضر بندقيته- رصاصتين على مجموعة من الماعز على مسافة بعيدة، وهو متأكد أنها لم تُمس، من أجل متعة رؤيتها تقفز في فرارها. ملأت الفرقة -التي تضخمت بسبب

صدى القناة- الفضاء بالصراخ والخفقان. كان هناك المئات من طيور النورس العجائز والضخام التي تركت مأويها خائفة من الضوضاء. طردت الجزيرة الصغيرة المرتجة سكّانها المجنحين. في الأعلى، مثل النقاط السوداء تطير طيور أخرى هاربة نحو الجزيرة الكبيرة: الصقور التي تلجأ إلى بدرا لتصاد حمام إبيزا وتورميترا.

أشار البحّار القديم إلى فيرر على بعض الكهوف المفتوحة مثل النوافذ في جدران الجزيرة الأكثر استقامة والتي يصعب الوصول إليها. لا الماعز ولا الرجال يمكنهم الوصول إليها. يعرف العم بنتولرا ما كان مُخبأً في أعماق مداخلها السوداء. كانوا خلايا؛ خلايا عمرها قرون وقرون، ملاجئ طبيعية للنحل التي -وهي تعبر المضيق بين إبيزا وبدرا- لجأت إلى هذه الكهوف التي يتعذر الوصول إليها بعد أن حلقت فوق حقول الجزيرة. في وقتٍ معين من العام رأى خيوطاً من الضوء تتلألًا بجوار هذه الأفواه كانت تتعرج أسفل الصخور. كان العسل الذي تُذيه الشمس في مدخل الكهف ويقطر بلا فائدة خارج المخزن.

جذب العم بنتولرا عدة صيده بصوتٍ خشنٍ راضٍ:

- وهناك ثمانية!

كان نوع من جراد البحر الرمادي الداكن المتدلي من الصنارة يتلوى ويحرك ساقيه. يرقد آخرون ممائلون بلا حراك في قُفة بجانب العجوز.

- عم بنتولرا، ألا تغني القداس؟

- إذا سمحت بذلك.

يعرف خايمي عادات العجوز، وهوأيته بترنيم أناشيد القداس
تزيد في كل مرة يشعر فيها بالسعادة. بعد تقاعده من الرحلات البحرية
الطويلة، كان متعته هي الغناء أيام الأحد في كنيسة بلدة سان خوسيه أو
في كنيسة سان أنطونيو، وامتدت هذه الهواية فيما بعد إلى كل اللحظات
السعيدة في حياته.

قال بلهجة تفوق، كما لو كان سيمنح رفيقه أعظم الملذات:

- ها أنا ذا... ها أنا ذا.

رفع يده إلى فمه وانتزع أسنانه ودسها في حزامه. تجعد وجهه
حول فمه الغائر، وبدأ في غناء عبارات الكاهن وإجابات مساعده. اتخذ
صوته المرتعش الطفولي صوتًا عميقًا عندما انزلق فوق الامتداد المائي
وأصبح متكررًا بسبب أصداء الصخور. كان ماعزٍ بدرا يُجيب من وقتٍ
لآخر بثُغاء مفاجئٍ رقيق. يضحك خايمي من حُميا العجوز، الذي
-وهو يُظهر نفاد صبره- يضع يداً على قلبه دون أن يُفعل من الأخرى
حبل المِقود. لقد ظلا على هذا الحال لفترةٍ طويلة، وكان فيرر منتبهاً
لعدته، والتي لم يشعر فيها بأدنى حركة. كل الصيد كان للعجوز. جعله
هذا في مزاج سيئ، وتضايق فجأةً من أناشيده.

- كفى يا عم بتتولرو... كفى الآن!

قال العجوز بصراحة:

- لقد أحببت ذلك، أليس كذلك؟ أنا أيضًا أعرف أمورًا أخرى؛

أعرف عن القبطان ريكّر حادثة.. لا حكايات. رآها والدي.

أظهر خايمي لفظة احتجاج. لا؛ لا شيء عن القبطان ريكر. كان يعرف مآثره عن ظهر قلب. في غضون ثلاثة أشهر كانا يخرجان فيها إلى البحر معاً، نادراً ما كان اليوم ينتهي دون قصة عن حادثة. لكن العم يتولرو - مع عدم وعيه الشيخوخي - مقتنع بأهمية كل ما لديه، بدأ قصته فعلاً، وألقى خايمي - وهو يدير ظهره - جسده على الحافة، ناظرًا إلى أعماق البحر؛ لكي لا يسمع مرة أخرى ما كان يعرفه عن ظهر قلب.

القبطان أنطونيو ريكر! بطل من جزيرة إبيزا، وبحار كبير مثل بارثلو.. ولكن بما أن بارثلو كان مايوركيًا والآخر إبيزي، فقد ذهبت إليه جميع مراتب الشرف والدرجات. إذا كان هناك عدالة، فينبغي أن يتلع البحر الجزيرة المتغطرة، زوجة الأب بالنسبة لإبيزا. فجأة تذكر الرجل العجوز أن فيرر مايوركي، وبقي في صمت مشوش لبضع لحظات. أضاف معتذرًا:

- هذا مجرد قول. الناس الطيبون في كل مكان. حضرتك واحد منهم. لكن لنعد إلى القبطان ريكر...

كان رئيس مركب شراعي مسلح للقرصنة - سان أنطونيو - يقوده الإبيزيون، في حرب مستمرة مع جاليوت^(٤٨) المغاربة الجزائريين وسفن إنجلترا عدو إسبانيا. كان اسم ريكر معروفًا في جميع أنحاء البحر المتوسط. وقع الحدث في عام ١٨٠٦. في يوم الثالث، في الصباح، ظهرت فرقاطة تحمل العلم الإنجليزي على مرأى من مدينة إبيزا، تغير

(٤٨) جاليوت: مركب شراعي.

اتجاهاتها، خارج نطاق مدافع القلعة. كانت فيليثداد - سفينة إيطالي
ميجيل نوفلي - الملقبة بـ (البابا)، من سكان جبل طارق وقرصاناً في
خدمة إنجلترا. لقد جاء يبحث عن ريكِر؛ ليقبل من احترامه، وهو
يبحر متغطراً على مرأى من مدينته. أُنذرت الأجراس بالخطر، دقت
الطبول، وتكدس سكان الحيّ عند أسوار إبيزا وحيّ مارينا. كان يُصلَح
بدن سان أنطونيو على الأرض؛ ولكن ريكِر - مع رجاله - رموا بها في
الماء. كانوا قد فكوا مدافع المركب الشراعي الصغيرة، وربطوها على
عجل بالحبال. أراد جميع مَنْ في البحرية الإبحار، لكن القبطان اختار
خمسَين رجلاً فقط، وسمع قداساً معهم في كنيسة سان تلمو. عند ذهابه
لرفع الأشرعة، ظهر والد ريكِر وهو بحار قديم، ودخل السفينة متغلباً
على مقاومة ابنه.

استغرق الأمر من سان أنطونيو ساعات طويلة ومناورات بارعة
للاقتراب من فرقاطة (البابا). بدأ المركب الشراعي الفقير مثل
حشرة بجوار السفينة العظيمة، التي يقودها الأشخاص الأشجع
والأكثر مغامرة الذين تجمعوا على أرصفة جبل طارق: المالطيون
والإنجليزيون والرومانيون والبندقيون والليورنيون^(٤٩) والسردينيون
والراجوزيون^(٥٠). قتل الإطلاق الأول لمدافع السفينة خمسة رجال
على سطح المركب الشراعي، بمن فيهم والد ريكِر. ويأخذ هذا الأخير
الجبّة الممزقة - وهو ملطخ بدمه - ويهرب لإخفائها في الشرم. «لقد

(٤٩) الليورنيون: نسبة إلى ليورنا، وهي مدينة في إيطاليا في منطقة توسكانا.

(٥٠) الراجوزيون: كانت جمهورية بحرية تركزت في مدينة دوبروفنيك التي تقع اليوم في جنوب
كرواتيا.

قتلوا أبانا! يتأوه إخوة ريكر. «هلموا بنا!»، يصرخ الأخير بعنف. «إلى القوارير! هجوم!».

تسقط (القوارير)، سلاح القراصنة الإبيزيين المخيف، زجاجات نارية عندما تنكسر على سطح العدو تشتعل النيران به، على سفينة (البابا). تشتعل الجبال، ويحترق القسم العائم، ومثل الشياطين يخرج ريكر ورجاله من بين النيران، المسدس في يد، وفأس الهجوم في اليد الأخرى. تتساقط الدماء على سطح السفينة وتتدحرج الجثث في البحر ورؤوسها محطمة. تم العثور على البابا مختبئاً ونصف ميت من الخوف في خزانة في غرفته.

وضحك العم بنتولرو ضحكته الطفولية عندما تذكر هذه التفصيلة المثيرة للضحك لانتصار ريكر العظيم. في وقتٍ لاحق، عندما نُقل البابا إلى الجزيرة، نظر إليه أهل المدينة والفلاحون الذين حضروا في عجلة كحيوانٍ غريب. كان هذا هو القرصان، رعب البحر المتوسط! وقد وجدوه عالقاً بين الألواح خوفاً من الإبيزيين! لقد شكلوا عملية لشنقه في جزيرة لوس أوركادوس، وهي جزيرة صغيرة حيث المنارة فيها الآن، في مضيق فروس؛ لكن جودوي أمر بتبادله مقابل عدة سجناء إسبان.

رأى والده هذه الأحداث العظيمة: لقد كان صبي بحار في مركب ريكر الشراعي. ثم سقط أسيراً للجزائريين، وهو من آخر العبيد، قبل أن يصل الفرنسيون إلى الجزائر. كان هناك وسط خطر الموت ذات يوم عندما أبادوهم جميعاً بسبب قتل مغربي فاسد، ظهرت جثته محشوة

في مرحاض. يتذكر العم يتولرو أيضاً القصص التي رواها والده عن وقت قراصنة إيزا ووصول قوارب مُستولى عليها إلى مينائها، مع أسرى مغربيات ومغاربة. كان الأسرى يمثلون أمام (كاتب الغنائم) كشهود على الحدث، وكانوا مطالبين بأداء يمين الصدق «في سبيل الله أكبر والنبي وقرآنه، ذراعه مرفوعة والسبابة، وتنظر وجههم إلى شروق الشمس». في هذه الأثناء، قام قراصنة إيزا القساة -عند تقسيم الغنيمة- بتخصيص صندوق لشراء أغطية المذابح التي ستصبح ضمادات جروحهم المستقبلية، وترك جزء آخر من المكاسب «لكاهن يقيم القداس كل يوم بينما هم خارج الجزيرة».

انتقل العم يتولرو من ريكِر إلى سادة شجعان آخرين من كورسيكا سابقين له؛ لكن خايمي -منزعجاً من ثروته، التي غلبت عليها الرغبة في إبهار جزيرة مايوركا، المجاورة والعدوة- انتهى به الأمر إلى نفاذ صبر.

- إنها الساعة الثانية عشرة يا جدي! لنذهب؛ لم يعودوا يوخزون.

نظر العجوز إلى الشمس التي تتخطى قمة بدر. لم يكن الوقت قد تعدّى منتصف الظهيرة بعد، لكنه أوشك. ثم نظر إلى البحر؛ كان السيد على حق: لم تعد الأسماك توخز، لكنه كان راضياً عن الرحلة.

سحب الحبل بذراعيه الهزيلتين، رافعاً شراع القارب الصغير مثلث الشكل. مال على أحد الجانبين، اهتز قليلاً دون أن يتحرك من مكانه، وفجأةً بدأ يقطع المياه بضجة ناعمة. غادرا القناة، تاركين وراءهما بدر وهما يتبعان ساحل إيزا. يُمسك خايمي الرافعة، بينما كان العجوز

-محفوظاً بسلة الصيد بين ركبتيه- يُعُد ويلمس القطع بلذة لثيمة.

دارا حول رأس جزء جديد من الساحل وظهره. يبرز -فوق تل من الصخور الحمراء، يُقطع من حين لآخر ببقع داكنة من الدغل- برج أصفر عريض، أسطوانة مسطحة، لا يوجد بها فجوات على جانب البحر أكثر من النافذة، ثقب أسود مع محيط غير منتظم. في الجزء العلوي من البرج، فجوة تُستخدم في الماضي لمدفع صغير تُعيد قطعه فوق السماء الزرقاء. على جانب واحد من الرأس العالي، المقطوع بحدة فوق البحر، وتنحدر الأرض، مغطاة باللون الأخضر مع أحراج وارفة منخفضة، وتطل من بينها الرقعة البيضاء لبيت ريفي بسيط.

توجه القارب نحو البرج، وعندما اقترب منه، انحرف باتجاه شاطئ مجاور، واصطدمت مقدمته في قاع به حصى صغير. أنزل العجوز الشراع واقترب بالقارب إلى صخرة معزولة في منتصف الشاطئ، تتدلى منها سلسلة. ربط القارب بها، ثم قفز هو وخايمي إلى الأرض. لم يرد أن يضع القارب على اليابسة؛ كان يعتزم العودة إلى البحر ذلك المساء، بعد تناول الطعام: مسألة وضع بعض الصنابير المسلسلة في الماء، التي سيجمعها في صباح اليوم التالي. هل سيصاحبه السيد؟ قام فبرر بإيماءة رفض، ودّعه العجوز حتى صباح اليوم التالي. سينبهه من الشاطئ وهو يغني صلاة الدخول بينما لا تزال هناك نجوم في السماء. لا بد أن يفاجئهما الفجر في بدرا. لنر ما إذا كان السيد سيخرج من برجه سريعاً!

ابتعد العجوز إلى الداخل، حاملاً سلة السمك المتدلّية من ذراعه.

- أعطِ نصيبي إلى مارجاليدا أيها العمِ بِنْتُولِرو، وأحضروا لي طعامي سريعاً.

أجاب البحار بحركة من كتفيه دون أن يدير وجهه، وسار خائمي على حافة الشاطئ باتجاه البرج. تخطو قدماه -المرتديتان الحذاء الكتاني- على الحصى الصغير، حيث تضيع آخر ارتعاشات البحر. من بين الحجارة الصغيرة المائلة إلى الزرقة كانت شظايا من طين مطبوخ: قطع مقابض؛ أسطح مقعرة من مصنع فخار، مع بقايا زخارف نائية ربما تنتمي إلى أوانٍ دائرية؛ كُرات صغيرة غير منتظمة من الأرض الرمادية، فبسبب التآكل من المياه المالحة يمكن تخمين وجوه عديمة الشكل، وقسمات تقلصت بمرور القرون. كانت بقايا غامضة من أيام عاصفة؛ شظايا من سر البحر العظيم التي عادت إلى النور بعد إخفائها آلاف السنين؛ التاريخ المشوش والأسطوري الذي عادت به الأمواج غير المتناسقة إلى شواطئ هذه الجزر، ملجأ في العصور البعيدة للفينيقيين والقرطاجيين والعرب والنورمانديين. تحدث العمِ بِنْتُولِرو عن عملات فضية رقيقة كخبز الذبيحة، وجدها الصبيان في أثناء اللعب على الساحل. حكى له جده، عندما كان طفلاً، عن مغارات تحت الماء تحتوي على كنوز، وكهوف المسلمين والنورمانديين التي كانت محاطة بالحجارة، وفُقد لاحقاً سر المخبأ.

بدأ خائمي في صعود المنحدر الصخري في طريقه إلى البرج. يرفع الأثل نباتاته الخشنة والصاخبة من أشجار الصنوبر القزمة، والتي بدا أنها تتغذى على الملح الذائب في المحيط، وتُغرق جذورها في

الصخور. تكشف الرياح في الأيام العاصفة -عندما تتحرك الرمال- عن جذورها المتعددة والمتشابكة، ثعابين سوداء ورقيقة تشبك بها مراتٍ كثيرة أقدام فيرر. وعند سماع صدى خطواته كانت تستجيب في الشجيرات ضجة ركض مخيف وطققة أوراق، ليمر بين شجيرة وشجيرة، بسرعة عمياء، ربطة من الشعر الرمادي مع ذيل على شكل زر. أدى هروب الأرانب إلى ركض السحالي ذات اللون الزمردي الممددة بتكاسل في الشمس.

إلى جانب هذه الضجة سمع خايمي قرع طبول خافتاً وصوت رجل يغني قصة إيبيزية رومانسية. يتوقف من وقتٍ لآخر كأنه متردد، وهو يكرر الأبيات نفسها بإصرار؛ ليتمكن من الانتقال إلى أبياتٍ جديدة، وهو يُطلق في نهاية كل مقطع -حسب عادة البلد- قرعة غريبة تشبه نعيق الطاووس، كركرة عنيفة وحادة مثل التي تصاحب أغاني العرب.

عندما كان فيرر في القمة، رأى الموسيقيّ جالساً على حجر خلف البرج متأملاً البحر.

كان فتى التقى به بعض مرات في بيت المايوركي، منزل مستأجره القديم بيب. كان لديه الدف الإيبيزي متكئاً على إحدى الفخذين، وهو عبارة عن طبلية صغيرة مطلية باللون الأزرق مع أزهار وأغصان ذهبية. استقرت الذراع اليسرى على الآلة واستقر الوجه على يدٍ، تكاد تخفيه راحتها وأصابعها. ويده اليمنى المسلحة بالمقرعة، يضرب ببطء إحدى دفات الطبل، وهكذا ظل بلا حراك، في موقف تأملي، مع تركيز أفكاره على ارتجاله، متأملاً أفق البحر الهائل من خلال أصابعه.

يُطلقون عليه اسم المغني، مثل كل أولئك الذين يغنون أبياتاً جديدة في حفلات الرقص والغناء في الجزيرة. كان شاباً طويلاً شاحباً ضيق الأكتاف، لم يبلغ من العمر الثامنة عشرة. عندما يغني، يسعل وتنتفخ رقبته الهشة ذات البياض الشفاف، ويحمر وجهه. عيناه كبيرتان، كعيني امرأة، مع مجرى دمع وردي بارز للغاية. يرتدي ملابس احتفال في جميع الأوقات: كان بنطاله من المخمل الأزرق، الشريط والعقدة التي كانت بمثابة ربطة عنق من اللون الأحمر المشتعل، وعلى هذا الثوب الأخير كان يرتدي منديلاً صغيراً أنثوياً ملفوفاً حول رقبته، مع طرف مطرز في المقدمة. تطل وردتان من على أذنيه، وتحت حافة لبدته كانت موجات شعره اللامعة من الدهن ملقاة إلى الوراء ومزينة بشريط منمق، منفلة في قصة مجعدة. رأى فيرر هذه الزخارف الأنثوية تقريباً، عيناه الكبيرتان وبشرته الشاحبة، وشبهه بعذراء منهكة من أولئك اللاتي مثلهن الفن الحديث. لكن هذه العذراء أظهرت انتفاخاً مزعجاً في حافة حزامها الأحمر. كانت بلا شك سكيناً أو قبضة مسدس من الأنواع التي تصنعها حدادة الجزيرة. الرفيق الذي لا انفصل عن كل فتى إبيزي.

عند رؤية خايمي، نهض المغني، تاركاً الطبله معلقة من شريط متصل بذراعه اليسرى، بينما بيده اليمنى -التي لا تزال تمسك العصا- يلمس حافة قبعته.

- نهارك سعيد!

يُعجب فيرر مع ذلك - كما يوركي طيب يؤمن بضراوة سكان إبيزا - بمظهرهم اللطيف عند لقائهم على الطرق. يقتلون بعضهم دائماً من

أجل أمور الحب، لكن الغريب يُحترم، بالعناية المعهودة نفسها التي يُظهرها العربي للرجل الذي يطلب الضيافة تحت خيمته.

بدا المغني محرّجاً؛ لأن السيد المايوركي تفاجأ به بجوار منزله، على أرض كانت ملكه. تلعثم في الأعذار. جاء ليجلس هنا؛ لأنه يحب أن يتأمل البحر من علو. شعر بتحسن في ظل البرج؛ لم يزعجه أي صديق بوجوده، وكان له الحرية في تأليف أبيات من قصيدة رومانسية للحفل الراقص القادم في بلدة سان أنطونيو.

ابتسم خايمي عندما سمع أعذار المغني الخجولة. بالتأكيد كانت أبياته مخصصة لإحدى الفتيات. أحنى الصبي رأسه: «أجل يا سيدي». «ومَن هي؟».

قال الشاعر:

- زهرة اللوز.

«زهرة اللوز! اسم جميل». وبتشجيع من السيد، واصل الفتى الحديث. زهرة اللوز كانت مارجاليدا، ابنة السيد بيب من بيت المايوركي. كان هو مَن أطلق عليها هذا الاسم، عندما رأى أنها بيضاء وجميلة مثل الزهور التي تزهر بها شجرة اللوز عندما ينتهي الصقيع وتأتي من البحر الأنفاس الدافئة التي تُعلن عن الربيع. يكرر جميع الفتيان المحيطين هذا الاسم، ولم تكن مارجاليدا معروفة باسم آخر. اعترف المغني بامتلاكه قدرة معينة على اختراع ألقاب جميلة. ما كان يقوله كان يبقى إلى الأبد.

استقبل فِيرر كلمات الصبي هذه مبتسمًا. إلى أين يذهب ليلتحجّ
إلى الشَّعر؟ ثم سأله إذا كان يعمل، فأجاب الفتى بالنفي. لم يكن يرغب
والداه في ذلك: فقد رآه طبيب المدينة في يوم السوق، ونصح عائلته
بتجنبيه أي تعب. وهو -مقتنعًا بالنصيحة- يمضى أيام العمل في الحقول
المفتوحة، في ظل شجرة، وهو يستمع إلى غناء العصافير، ويتجسس
على الفتيات التي تمر عبر الطرق؛ وعندما تغلي في رأسه قصيدة غزلية
جديدة، يجلس على شاطئ البحر ليشحذ ذهنه ببطء، ويثبتها في ذاكرته.
ودعه خايمي. يمكنه أن يواصل عمله الشَّعري.

لكنه توقف بعد خطوات قليلة، وأدار رأسه عندما لم يسمع صوت
الطبل مرة أخرى. سار المغني بعيدًا إلى أسفل التل، خائفًا من إزعاج
السيد بموسيقاه، وذهب يبحث عن مكان آخر منعزل.

وصل فِيرر إلى البرج. كل ما يبدو من بعيد طابق أرضي كان
مبنى مصممًا. الباب في مستوى النوافذ العلوية نفسه؛ وهكذا يمكن
للحراس القدامى تجنب مفاجأة من القراصنة، باستخدام سلم لدخولهم
وخروجهم، حيث ينسحبون إلى الداخل بمجرد حلول الليل. صنع
خايمي دَرَجًا خشبيًا خشنًا للوصول إلى غرفته، لكنه لم يُزلّه أبدًا. كان
البرج -المبني من الحجر الرملي- متآكلًا إلى حدٍّ ما من الخارج بفعل
رياح البحر. تدرجت عدة أحجار منحوتة من تجويفها، وكانت هذه
الفجوات مثل الدرجات الخفية لتسلق البرج.

صعد المنعزل إلى حجرته. كانت غرفة دائرية، ليس بها فتحات
أكثر من الباب والنافذة الخلفية، فتحات تبدو كأنها أنفاق في السماكة

المفرطة للجدران. كُلت الجدران -من الداخل- بعناية باستخدام الجير الإبيزي المبهر، والذي يعطي شفافية ونعومة لبنية لجميع المباني، مما يضفي مظهر البيوت المبهجة على أكواخ الريف القذرة. كان في القبو فقط، الذي تم قطعه بواسطة كوة كاشفة للدرج القديم الذي يؤدي إلى المصطبة، السخام المتبقي من النيران التي تشتعل في الماضي.

رُبطت بعض الألواح بشكلٍ سيئٍ بواسطة الصلبان الخشبية التي كانت بمثابة تعزيزات أغلقت الباب والنافذة والكوة. لم يكن هناك زجاج في البرج. لا يزال الصيف، ترك فيرر -مترددًا بشأن وجهته، أو بالأحرى غير مبالٍ- العمل على التجهيز النهائي لوقتٍ لاحق.

بدا له هذا الانعزال جميلًا وجذابًا على الرغم من قسوته. يلاحظ فيه يد بيب المساعدة ورشاقة مارجاليدا. ويتتبع خايمي إلى نصوع الحوائط، ونظافة الكراسي الثلاثة والمائدة الخشبية والأثاث الذي قامت بتنظيفه ابنة المستأجر السابق. بعض معدات الصيد تمتد شباكها على طول الجدران في تموجات نسيجية. وخلفه تُعلق البندقية وحقيبة من الذخيرة. تم تجميع أصداغ بحرية طويلة ومضغوطة لها شفافية اللجأة^(٥١) المصبوغة بلون الكراميل على فترات متتالية، مكونين مراوح. لقد كانت هدية من العم بتولرا، بالإضافة إلى حلزونين ضخمين يزينان الطاولة، بيضاوين، مليئين بالأسنان وداخلهما لون وردي رطب مثل جسد الأنثى. بالقرب من النافذة، يظل فراش من القش ملفوفًا مع وسادته وملاءاته، وهو سرير ريفي ترتبه مارجاليدا أو والدتها كل مساء.

(٥١) اللجأة: نوع من السلاحف البحرية.

ينام خايمي هناك بهدوء أكثر مما ينام في قصره في پالما. في الأيام التي لم يوقظه فيها العم بتتولرا عند الفجر وهو يغني قداسًا من الشاطئ أو يصعد التل لإلقاء بعض الحجارة على باب البرج، يظل معتزلاً على فراشه القشّي حتى الصباح. يصل صوت البحر الرتيب إلى أذنيه، الأم العظيمة الهادئة. ضوء غامض، مزيج من ذهب الشمس والأزرق المائي، يتسلل من خلال الشقوق، وهو يرتجف على بياض الحوائط. تصرخ طيور النورس في الخارج، وهي تمر من أمام النوافذ مع رفرفة مرحة من أجنحتها رسمت ظلالاً سريعة على الجدران.

في الليالي التي يرقد فيها مبكراً، يتأمل المنعزل بعينين مفتوحتين، وهو يرى تسلل ضوء النجم المنتشر أو وهج القمر عبر الألواح الخشبية المفتوحة قليلاً. كانت تلك نصف الساعة التي يرى فيها الماضي كله بإحساس خارق للطبيعة؛ قاعة انتظار النوم تمر من خلالها الذكريات البعيدة. يهيمهم البحر، وتنطلق صفارات حادة من طيور الليل الكبيرة، وتشتكي طيور النورس بنحيب أطفال معذبة. ماذا سيفعل أصدقاؤه في تلك الساعة؟ ماذا سيقولون في مقاهي بورن؟ من منهم سيكون في الكازينو؟

في الصباح تجعله هذه الذكريات يتسم مع ملمح حزين. يبدو أن النور الجديد يجمع حياته، فيجعلها ألطف. وكان من الممكن أن يكون مثل الآخرين، يعشق الحياة في المدينة! كانت تلك الحياة الحقيقية.

تجول بنظره على الاستدارة الداخلية للبرج. قاعة حقيقية، أكثر هدوءاً بالنسبة له من تلك الموجودة في منزل أجداده. كل هذا ملكه،

دون خوف من الملكية المشتركة مع المقرضين والمرايين. حتى أنه كان لديه تحف جميلة لا يمكن لأحد أن يجادله فيها. بالقرب من الباب تتكئ على الجدار جرتان استخرجهما من شباك بعض الصيادين، وقطعتان من الطين الضارب إلى البياض زينهما البحر بأكاليل من الأصداف المتحجرة بشكلٍ غريب. في وسط الطاولة -بين المحار- هناك هدية أخرى من العم بنتولرا: رأس امرأة ميتة يعلوها نوع من تاج مستدير فوق شعرها المضفر. كان الطين الرمادي مرقطاً بكريات بيضاء صلبة، ومحبب بفعل القرون والمياه المالحة. لكن خايمي -عندما تأمل رفيقة العزلة هذه- تخيلها بقناعها الرديء، وهو يخمن ملامحها الهادئة وغموض عينيها الشرقتين، المشققتين على شكل لوزتين. يراها كما لو كان لا أحد يستطع رؤيتها. انتهت ساعاته الطويلة من التأمل الصامت بمحو القناع الخشن.. عمل قرون.

قال لمارجاليدا ذات صباح، بينما تنظف الغرفة:

- انظري إليها، إنها خطيبي. أليست جميلة؟ لا بد أنها كانت أميرة -صور أو عسقلان، لا أعرف على وجه اليقين؛ لكن ما أعرفه بلا جدال هو أنها كانت محجوزة لي. كانت تحبني قبل أربعة آلاف عام من ولادتي، وقد جاءت تبحث عني عبر القرون. كانت تمتلك سفناً، وتمتلك عبيداً، وتمتلك ثياباً أرجوانية وقصوراً بشرفات كانت حدائق؛ لكنها تخلت عن كل شيء للاختباء في البحر، منتظرة لقرون وقرون موجة تسحبها إلى الشاطئ ليصطحبها العم بنتولرو ويحضرها إلى منزلي. لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ أنتِ أيتها المسكينة لا تفهمين هذه الأمور.

تنظر إليه مارجاليدا مندهشة. ورثت الاحترام الذي يشعر به والدها اتجاه السيد، فهي تتخيل دون خايمي يتحدث بجدية فقط. يا للأشياء التي يراها في العالم! والآن أثرت كلماته عن العروس البالغة من العمر ألف عام في سذاجتها، وجعلتها تبتسم قليلاً، في الوقت نفسه الذي تنظر فيه بخوفٍ خرافي إلى سيدة الماضي العظيمة التي كانت مجرد رأس. عندما قال السيد ذلك! كان كل شيء يخصه غير عادي!

عندما تسلق فيبر البرج جلس بالقرب من الباب، متأملاً منظر وسط البلاد بأكمله الذي يسيطر على هذه الحفرة. في الجزء الأسفل من التل تمتد بعض الحقول المحروثة مؤخراً. كانت قطع من الجبل التي يملكها فيبر، والتي يحولها ييب إلى أراضٍ صالحة للزراعة. بعده تبدأ مزارع اللوز بأوراقها الخضراء الطازجة، وبساتين أشجار الزيتون القديمة الملتوية، التي يمتد حطبها الأسود مع مجموعات من الأوراق الرمادية الفضية. كان البيت -بيت المايوركي- عبارة عن مسكن شبه عربي، مجموعة من المباني مربعة مثل النرد، مع أسطح مستوية وبياض مذهل. مع زيادة احتياجات الأسرة وتوسعها، شُيّدت مباني بيضاء جديدة. كان كل منها عبارة عن غرفة، وكانوا جميعاً يشكلون منزلاً، تبدو أشبه بمحلات خيام، دون أن يخمن ظاهرياً أي منها يُستخدم لحياة السكان وأي منها لبهائم العمل.

وراء البيت تمتد الحرجة، مقسمة بواسطة بقايا حوائط حجرية جافة، ومصاطب ذات منحدرات عالية. لم تسمح رياح الجزيرة بصعود الأشجار، التي تنشر أغصانها حولها بإسهابٍ غزير، تكسب في امتدادها ما فقدته في العلو. تحتفظ جميع الفروع بأشواك عديدة.

كان لبعض أشجار التين المئات من الدعائم، وتمتد مثل خيمة خضراء هائلة مصممة لإيواء حلم عمالقة. كانت عرائش مراقبة طبيعية، حيث يمكن أن تختبئ فيها بلدة تقريباً. أغلق الجزء الأسفل من الأفق بالجبال المغطاة بأشجار الصنوبر مع بقع صلعاء كبيرة من الأرض الحمراء. تتصاعد أعمدة الدخان بين أوراق الشجر الداكنة. كان لهب الحطابين الذين يصنعون الفحم النباتي.

ثلاثة أشهر مرت على فيبر في الجزيرة. أثار وصوله دهشة بيب عربي، الذي لا يزال مشغولاً بإخبار الأقارب والأصدقاء عن مغامراته الرائعة، وجرأته غير المسبوقة، ورحلته الأخيرة إلى مايوركا مع الصبيان، والإقامة في پالما لبضع ساعات، وزيارته لقصر فيبر.. المكان الساحر الذي يحتفظ بكل فخم وفاخر يمكن أن يوجد في العالم.

فاجأت تصريحات خايمي الفظة الفلاح قليلاً.

- بيب، أنا مُفلس؛ أنت غني إذا قارنت نفسك بي. أتيت للعيش في البرج.. لا أعرف إلى متى. ربما إلى الأبد.

ودخل في تفاصيل الإقامة، بينما كان بيب يتسم بهيئة متشكك. مُفلس! كان جميع السادة العظماء يقولون الشيء نفسه، وما بقي لهم في محنتهم يمكن أن يجعل كثيراً من الفقراء أغنياء. كانوا مثل السفن التي تجنح في فورمنترا قبل أن تضع الحكومة المنارات. كان شعب فورمنترا يضيء -أناس بلا قانون وكافرون؛ لكونهم من جزيرة أصغر- النيران لخداع الملاحين؛ وعندما تضيع السفينة بسبب هؤلاء، لم تكن تضيع بالنسبة لسكان الجزر، فغنائهم جعلت كثيراً أثرياء.

مسكين فيبر! لم يرد أن يقبل المال الذي عرضه عليه دون خايمي .
كان سيزرع بعض الأراضي التي كانت ملكاً للسيد؛ سيقومان بتسوية الحسابات. ولأنه رأى تصميمه على السكن في البرج، فقد عمل بيب على جعله صالحاً للسكن، وأمر ابنه أيضاً بإحضار الطعام إلى السيد في الأيام التي لا يريد فيها النزول للجلوس على طاولته.

كانت هذه الأشهر الثلاثة عزلة ريفية بالنسبة لخايمي؛ لا يكتب رسالة ولا يفتح صحيفة، ولا يعرف من الكتب أكثر من ستة مجلدات أحضرها من پالما. بدت له مدينة إبيزا -الهادئة الساكنة مثل بلدة في المناطق الداخلية من شبه الجزيرة- حاضرة نائية. كان لا بد أن تختفي مايوركا الآن، والمدن العظيمة التي زارها أيضاً. في الشهر الأول من هذه الحياة الجديدة، أقلق حدث غير عادي هدوءه المريح. وصلت رسالة، ورقة عليها عنوان مطبوع لأحد مقاهي بورن وبضعة أسطر بخطٍ معيوب وعريض. كان توني كلايس هو من كتب إليه. كان يتمنى له السعادة في حياته الجديدة. استمر كل شيء في پالما على حاله. لم يكتب إليه پابلو بايس؛ لأنه كان غاضباً منه. يغادر دون أن يخبره! لكنه صديق جيد فقد كان مشغولاً بحل أموره. لديه قدرة شيطانية على ذلك. في النهاية، تشويتا! سينقل إليه مزيداً من الأخبار.

ثم مر شهران دون أن تصل رسالة أخرى لحسن الحظ. ما الذي يهمله في هذه الأخبار الخاصة بعالم لم يَنوِ العودة إليه؟ بالتأكيد لم يعرف ما يخبئه المستقبل له: لقد وصل إلى هناك وبقي هناك، دون مُتَع أخرى غير القنص وصيد الأسماك، مستمتعاً بشهوة حيوانية لعدم وجود

أفكار ورغبات أكثر من تلك التي لدى الإنسان البدائي.

وبقي بعيداً عن الحياة الإبيزية، دون أن يختلط بعاداتها. كان بين الفلاحين سيداً غريباً. يعاملون هؤلاء باحترام، ولكن باحترام بارد. إن الحياة التقليدية لهؤلاء الناس - القاسية والشرسة إلى حدٍّ ما - تجذبه بقوة كل ما هو غير عادي وبقوة المحيط الصلب. الجزيرة، المعتمدة على قوتها الخاصة، كان عليها أن تواجه لقرون وقرون قراصنة نورمان وملاحين عرباً وقوادس قشتالة وعدو دول أراجون وسفن الجمهوريات الإيطالية والسفن التركية والتونسية والجزائرية والقرصنة الإنجليزية في الآونة الأخيرة. فورمينترا، غير المأهولة بالسكان لعدة قرون، بعد أن كانت مخزن غلال للرومان، كانت بمثابة ملجأ غادر للأساطيل المعادية. كانت كنائس البلدات لا تزال عبارة عن حصون حقيقية ذات أبراج متينة، حيث يلجأ الفلاحون عندما يكتشفون من النيران أن الأعداء ينزلون. هذه الحياة التعيسة - من الخطر المستمر والنضال الذي لا نهاية له - خلقت شعباً معتاداً على إراقة الدماء؛ للدفاع عن حقوقهم والسلاح في أيديهم. لا يزال المزارعون والصيادون الآن المحبوسون في جزيرتهم، يتمتعون بالعقلية والعادات نفسها مثل أجدادهم. المدن لم تكن موجودة. كانت قُرى صغيرة متناثرة على بعد عدة كيلومترات، وليس لها نواة أخرى غير الكنيسة ومنازل الراهب والعمدة. كانت المدينة الوحيدة هي العاصمة، التي سُميت في الوثائق القديمة «ريال فوريرثا دي إبيزا»، مع حي لا مارينا الملحق بها.

عندما بلغ الفتى، دعاه والده إلى مطبخ بيت المزرعة بحضور جميع أفراد الأسرة.

أعلن بشكلٍ احتفاليّ:

- أنت رجل الآن.

وسلمه سكينًا ذات نصل قوي. كان الفتى المسلح فارسًا فقدَّ خوفه كابن. من الآن فصاعدًا سيدافع عن نفسه دون أن يبحث عن حماية عائلته. لاحقًا، عندما يجمع بعض المال، سيكمل زينة البطل بشراء مسدس صغير بزخارف فضية من حدّادي البلاد، الذين لديهم معامل حدادة في الغابة.

مدعوًا بهذين الدليلين على المواطنة الرجولية، اللذين لن يتخليا عنه ما دام على قيد الحياة، انضم إلى الفتيان الأخرى المجهزة بالقدر نفسه، وبدأت حياته الشابة واللطيفة: ألحان مصحوبة بصيحات الفرح، رقصات وغارات على أبناء الأبرشية الذين يحتفلون بعيد القديس الراعي، حيث يتسلي برميات حجارة دقيقة على الديك^(٥٢)، وخاصةً الاحتفالات والخطبات التقليدية والبحث عن عروس، أكثر العادات احترامًا على الإطلاق، مما أدى إلى نشوب شجارات وحالات وفاة.

لم يكن هناك لصوص في الجزيرة. غالبًا ما تحتفظ المنازل المعزولة في الريف بالمفتاح في الباب في أثناء غياب أصحابها. لم يقتل الرجال

(٥٢) في بعض القرى، يُوضع ديك حي في كيس مغلق، ويُربط الكيس أعلى عمود خشبي. ومن يتمكن من الوصول إلى القمة، يحصل على الديك. وكان الأولاد يستمتعون برمي الحجارة على كيس الديك هذا.

بعضهم لأسباب تتعلق بالمنفعة. كان الاستمتاع بالأرض موزعاً بشكل جيد، وحلاوة المناخ وكذلك قناعة الناس جعلتهم كرماء وقليلي التعلق بالأملاك المادية. الحب.. الحب فقط يدفع الرجال لقتل أنفسهم. كان السادة الريفيون متحمسين في محاباتهم وقاتلين في غيرتهم، مثل أبطال الروايات. لأجل فتاة ذات عيين سوداوين ويدين سمراوين يبحثون عن بعضهم ويستفزون بعضهم في عتمة الليل بصيحات التحدي؛ يصيحون من بعيد قبل أن يصل الأمر إلى الأيدي. يبدو السلاح الحديث الذي تنبعث منه قذيفة واحدة فقط في كل طلقة غير كافٍ بالنسبة لهم، وعلى رأس الخرطوشة يضيفون حفنة من البارود وأخرى من الرصاص، وهم يهاجمون كل شيء بقوة. إذا لم يفرق السلاح في أيديهم، كان المعتدي على يقين من أنه هزم خصمه.

يستمر التودد شهوياً وسنوات. كان المزارع الذي لديه فتاة في سن الخطبة يتقدم إليه الفتيان من الإقليم والأقاليم الأخرى في الجزيرة؛ لأن جميع سگان إبيز لديهم الحق نفسه في طلب يدها. يُقدر الأب عدد الخاطبين؛ عشرة، خمسة عشر، عشرين؛ أحياناً يصلوا إلى ثلاثين، ثم يقوم بحساب الوقت الذي يمكن أن يقضيه في السهرة قبل أن يغلبه النعاس، ومع مراعاة عدد المتقدمين، يقسم الدقائق على كل منهم.

مع حلول الليل، يحضر المتوددون بطرق مختلفة، بعضهم في مجموعات مدندنين مع صيحات وثرثرة، وبعضهم الآخر منعزلين هازين طنين اليمباو في أفواههم، وهي آلة مكونة من صفيحتين صغيرتين من الحديد تصر مثل دبور وتجعلهم ينسون تعب المسيرة. كانوا يجيئون

من بعيد. يسIRON ثلاث ساعات في رحلة الذهاب، وأخرى فى العودة، يسIRON من طرف الجزيرة إلى الطرف الآخر، يومى الخميس والسبت، أيام التودد، للتحدث لمدة ثلاث دقائق مع فتاة.

يجلسون فى الصيف فى الرواق، وهو نوع من الدهليز فى البيت الریفى، أو يدخلون إلى المطبخ إذا كان الشتاء. كانت الفتاة تنتظرهم ساكنة على مقعد حجرى. كانت تنزع القبعة التى من السعف ذات الشرائط الطويلة، والتى تمنحها فى الساعات المشمسة هيئة راعية فى أوبريت. ترتدى ثياب الاحتفال، التنورة الخضراء أو الزرقاء ذات الشنات الصغيرة، والتى تحتفظ بها بقية الأسبوع مشدودة بين الحبال ومتدلية من السقف لتحافظ على طياتها سليمة. ترتدى تحتها تنانير أخرى وأخرى، ثمانى تنانير أو عشرًا أو اثنتى عشرة، كل الملابس الأثوية فى المنزل، قمع صلب من الملابس والأقمشة يمحو آثار الجنس، ويجعل من المستحيل تخيل وجود واقع جسدى تحت كومة النسيج. تلمع صفوف الأزوار المتقنة على الأكمام المصطنعة للصدرية. على صدرها -الذى سحقه مشد الراهبة الذى يبدو أنه مصنوع من الحديد- تضىء السلسلة الذهبية الثلاثية ذات الحلقات الهائلة. تحت المنديل الذى يغطى رأسها، كانت تتعلق ضفيرة سمىكة بطرفها شرائط. كان الأبرىجاي -ثياب الأنثى الشتوية- على المقعد، والذى كان بمثابة قماش نُجود لبعض الاستدارات التى تبدو ضخمة مثل البالونات بسبب الصرة الهائلة من التنانير.

يتشاور المتقدمون من أجل حسن الترتيب للخطبة، وواحدًا تلو الآخر يذهبون للجلوس بجانب الفتاة يتحدثون معها فى الدقائق

المحددة. إذا نسي شخص ما -متحمسًا من المحادثة- رفقاءه -تاركًا الوقت يمر- يحذرونه بالسعال أو بالنظرات الغاضبة أو بكلمات التهديد. إذا أصر، كان أقوى أفراد الزمرة يأخذه من ذراعه ويسحبه بعيدًا ليحل محله آخر. في بعض الأحيان، عندما يكون عدد الخاطبين كثيرًا والوقت قصيرًا، تحدث الفتاة إلى اثنين في الوقت نفسه، باذلةً جهدًا لتكون ماهرة في عدم تفضيل أحدهما على الآخر. وهكذا تستمر فترة التودد حتى تُظهر تفضيلها لفتى، بغض النظر عن إرادة والديها. في هذا الربع القصير من حياتها، كانت المرأة ملكة. ثم عندما تتزوج، تزرع الأرض مثل زوجها، وكانت أكثر بقليل من بهيمة.

ينسحب الفتيان المزدريون، عندما لا يشعرون باهتمام كبير من قبل الفتاة، فينقلون حبههم إلى بعض فراسخ أبعد؛ لكن إذا كانوا في حالة حب فعليًا، فقد يستمرون في مطاردة المنزل، وكان على الشخص المفضل أن يتقاتل مع منافسيه السابقين، فيصل بأعجوبة إلى الزواج من خلال السكاكين والبنادق.

كان المسدس هو اللغة الثانية بالنسبة للإيزي. في رقصات الأحد يُطلق طلقات لإظهار حماسه للحب، وعند مغادرته بيت العروس يُطلق رصاصة وهو يعبر البوابة؛ ليُظهر لها ولأسرتها دليل التقدير، ثم يصرخ «طاب مساؤكم». على العكس من ذلك، إذا انسحب مُهانًا يرغب في إلحاق ضرر خطير بالعائلة، يقلب الحالة، وهو يمنحهم أولًا ليلة سعيدة، ثم يطلق النار من مسدسه؛ لكن في مثل هذا الظرف كان عليه المغادرة فورًا، حيث يرد أفراد المنزل فورًا على إعلان الحرب بطلقات أخرى أو بالعصي والحجارة.

عاش خايمي على حافة هذه الحياة القاسية والتقليدية، متأملاً من بعيد في عادات القرية التي لا تزال محفوظة في المنطقة النائية من الجزيرة. كانت بالكاد إسبانيا -التي يرفرف علمها كل أيام الآحاد فوق القرية الصغيرة المتضائلة لكل أبرشية- تتذكر هذه القطعة من أرضها المفقودة في البحر. كانت عدة أراضي أوقيانوسيا^(٥٣) البعيدة على اتصال أكثر تكررًا مع نوايات بشرية ضخمة من هذه الجزيرة، الخربة بسبب الحروب والسلب في الماضي، وهي الآن بئسة عندما أصبحت بعيدة عن طريق السفن العظيمة، ومحاطة بحزام من الجزر الصغيرة والصخور والمنخفضات، بين المضائق والقنوات والتي تجعل مياهها العميقة شفافة.

شعر فيرر في هذه الحياة الجديدة بلذة شخص يشغل مكانًا مريحًا ليحضر مشهدًا مثيرًا للاهتمام. كان بالنسبة له هؤلاء -الفلاحون والصيادون والمحاربون أحفاد القراصنة- رفقاء طيبين في الحياة. ينوي أن يتأملهم من بعيد، كشاهد فضولي، لكن عاداتهم استحوذت عليه ببطء، وهي تجره إلى عادات الحياة نفسها. لم يكن لديه أعداء، ومع ذلك، في أثناء التنزه عبر الجزيرة، عندما لا يحمل بندقيته على كتفه، يخفي مسدسًا في حزامه.. على سبيل الاحتياط.

في الأيام الأولى من إقامته في البرج، حيث أجبرته احتياجات الاستقرار على الذهاب إلى المدينة، احتفظ ببدلته؛ لكنه استغنى شيئًا

(٥٣) أوقيانوسيا: منطقة جغرافية تشمل أستراليا ونيوزيلندا وبولينزيا. وتمتد عبر نصف الكرة الشرقي والغربي.

فشيئاً عن ربطة العنق وياقة القميص والحذاء ذي الرقبة. جعله الصيد يفضل البلوزة وسراويل الفلاحين القطيفة. جعله الصيد مغرمًا بالمشي حافي القدمين مرتدياً نعالاً من الكتان على طول الشواطئ والصخور. غطت رأسه قبعة مثل التي يرتديها جميع الفتيان في أبرشية سان خوسيه. أُعجبت ابنة بيب -الخبيرة بعادات الجزيرة- بقبعة السيد ببعض الامتنان. كان الرجال من مختلف الأراضي المقسمة إليها إيزا منذ العصور القديمة يميزون بعضهم من خلال الطريقة التي يرتدون بها قبعاتهم وشكل حوافها، وهو اختلاف غير محسوس بالنسبة للأغراب عن الأرض. كانت قبعة دون خايمي مطابقة لقبعات جميع فتيان سان خوسيه وتختلف عن تلك المستخدمة من قبل سكان المدن الأخرى، وكلها تحمل أسماء القديسين؛ تكريماً للأبرشية التابعة لها.

مارجاليدا الساذجة والمضحكة! يحب فِبرر التحدث إليها، مستمتعاً بدهشة روحها البسيطة التي توقظها قصصه عن بلاد أخرى ونكاته التي يقولها بملح من الجدبة.

لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإحضار طعامه. منذ نصف ساعة يطوف عمود رقيق من الدخان فوق مدخنة بيت المايوركي. يتخيل ابنة بيب وهي تطبخ، ذهاباً وإياباً بجوار الموقد، متبوعة بنظرة والدتها، وهي فلاحه حزينة وخرقاء صامتة، لم تجرؤ على وضع يديها على أشياء السيد.

من لحظة إلى أخرى، يراها تظهر تحت ظل الشرفة المؤدية إلى مدخل منزلها، وهي تحمل سلة الطعام على ذراعها وعلى وجهها ذي

البياض العجيب، والذي بالكاد تُذهبه الشمس بزنجار طفيف للعاج
العتيق، وقبعة من القش بشرائط طويلة.

تحرك شخص ما تحت الظل، وبدأ السير نحو البرج.

كانت مارجاليدا! لا؛ لم تكن هي. كان يرتدي البنطال. كان شقيقها
بيت... بيت الذي يعيش في إيزا منذ شهر، يستعد ليصبح طالباً في
المدرسة الإكليريكية، ولذلك كان الناس يطلقون عليه لقب القسيس.



- نهارك سعيد!

نشر بيت فوطة المائدة على جانب واحد من الطاولة، ووضع عليها صحنين مغطين وزجاجة من نبيذ العنب بلون وشفافية الياقوت الأحمر. ثم جلس على الأرض، محيطاً ركبتيه بذراعيه وبقي بلا حراك. يلمع اللون العاجي المشرق لأسنانه الباسمة على وجهه الداكن. وعيناه الماكرتان مثبتتان على السيد مع تعبير كلب مرح ومخلص.

سأل خايمي وهو يهاجم الطعام:

- لكن ألم تظل في إبيزا لتكون قسيساً؟

هز الفتى رأسه:

- أجل يا سيدي؛ كنت.

كان والده قد عهد به إلى أستاذ في المدرسة الإكليريكية.

- هل تعرف دون خايمي مكان المدرسة الإكليريكية؟

يتحدث عنه الفلاح الصغير على أنه مكان بعيد للتعذيب. لا أشجار، ولا حرية ولا هواء: لم تكن الحياة ممكنة في هذا الحبس. تذكر فبرر - وهو يستمع إليه - زيارته إلى المدينة الشامخة، حصن

إبيزا الملكي، مدينة ميتة، منفصلة عن حي لا مارينا بسور كبير من زمن فيليب الثاني، مع فجوات الحجر الرملي المغطاة بنبات الكبر الأخضر والمرفرف. تُزين تماثيل رومانية مقطوعة الرأس الباب الذي يربط المدينة بالضاحية في ثلاثة محاريب. أبعد، بدأت الشوارع المتعرجة بالصعود نحو القمة التي تحتلها الكاتدرائية والقلعة: أرصفة من الحجر الأزرق، تجري القذارة في منتصفها منحدر؛ واجهات ذات بياض صافٍ، مُسجل عليها بشكلٍ غير جليٍّ أسفل كلسها شعارات النبلاء وحفر لنوافذ كبيرة قديمة؛ صمت مقبرة بجوار شاطئ البحر، يقطعه فقط ضجة التيار الساحب وطين الذباب المتكدس في الجدول البعيد. من وقتٍ لآخر، خطوات على رصيف هذه الشوارع المغاربية والنوافذ المواربة بفضولٍ شديد لحدث غير عادي؛ يتسلق بعض الجنود ببطءٍ عبر منحدرات شديدة نحو القلعة؛ السادة الكهنة القانونيون الذين ينزلون من مكان الجوقة، مع شجاعة سربال الكاهن اللامع من الدهن، القلنسوة والشال بلون جناح الذبابة، الكنسيون بؤساء كاتدرائية منسية، فقيرة وبدون أسقف.

في أحد هذه الشوارع، رأى فيبرر المدرسة الإكليريكية، وهي منزل ضخم بجدران بيضاء ونوافذ مغطاة بالقضبان مثل السجن. عندما يتذكرها القسيس، يصبح جديًا، وتُمحَا من على وجهه -بني اللون الأبيض العاجي- الابتسامة. يا له من شهر مضى هناك! كان المُعلم يستمتع بملل الإجازات مع هذا الفلاح الصغير، حيث أراد أن يُطلعه على جمال الآداب اليونانية بمساعدة بلاغته وصبره. أراد أن يجعل منه

معجزة، لمفاجأة المعلمين الآخرين عندما تُفتح الفصول الدراسية، وكانت تكثر الضربات. بالإضافة إلى ذلك، القضبان، التي تسمح فقط برؤية الجدار المقابل؛ قحولة المدينة حيث لم تكن هناك ورقة خضراء؛ التنزهات المملة بجوار القسيس عبر ذلك الميناء ذي المياه الميتة التي تفوح منها رائحة المحار الفاسد وبدون قوارب أخرى غير بعض المراكب الشراعية التي جاءت لتحميل الملح... في اليوم السابق، بعض السياط الأقوى جعلت صبره ينفد. «اضربه! إذا لم يصبح قسيسًا!». لقد هرب، مشيًا على الأقدام للعودة إلى بيت المايوركي؛ ولكن أولاً - كانتقام - مزق عددًا من الكتب التي يقدرها المعلم تقديرًا كبيرًا، وقلب المحبرة على الطاولة، وكتب نقوشًا مخزية على الجدران، بعث فرد حر.

كانت الليلة مليئة بالعواطف في بيت المايوركي. ضرب بيب ابنه بالعصا، أراد قتله، أعمى من الغضب، واضطرت مارجاليدا ووالدتها إلى التدخل بين الاثنين.

عادت ابتسامة الفتى إلى الظهور. يتحدث بفخر عن العصي التي تلقاها دون أن يُطلق صرخة. ضربه والده، ويمكن للأب أن يضرب؛ لأنه هكذا يُظهر أنه يهتم بأبنائه. لكن أن يحاول شخص آخر ضربه: كان الأمر كأنه يحكم على نفسه بالإعدام. وعندما قال هذا، انتصب مع زهو عدواني لعرق اعتاد على رؤية تدفق الدم وتحقيق العدالة بيديه. تحدث بيب عن إعادة ابنه إلى المدرسة الإكليريكية، لكن الصبي شكك في هذا التهديد. لن يذهب حتى لو أوفى والده بوعده بأخذه مقيدًا مثل كيس

على ظهر حمار: سيهرب إلى الجبل أو إلى جزيرةٍ بدرا؛ ليعيش مع الماعز البرية.

لقد نظم مالك بيت المايوركي مستقبل أبنائه بوقاحة، مع طاقة الفلاح هذه الذي لا يتوقف عند العقبات عندما يعتقد أنه يفعل الخير. ستتزوج مارجاليدا فلاحًا، وبالنسبة له سيمتلك الأراضي والمنزل. سيكون بيت قسيسًا، وهو ما يمثل صعودًا اجتماعيًا للعائلة؛ الشرف والثروة للجميع.

يبتسم خايمي وهو يستمع إلى احتجاجات الفتى على مصيره. في الجزيرة بأكملها، لم يكن هناك مركز تعليمي آخر غير المدرسة الإكليريكية، وكان الفلاحون وأصحاب القوارب الذين تمنوا لأبنائهم مصيرًا أفضل يأخذونهم إليها. قساوسة إبيزا! كان كثير منهم، بينما يواصلون دراستهم، يشاركون في الخطبة، مستخدمين السكاكين والمسدسات. كان أحفاد القراصنة والجنود، عندما يرتدون سربال الكاهن يحافظون على غطرسة وفحولة أسلافهم. لم يكونوا غير ورعين؛ لأن بساطة تفكيرهم لم تسمح لهم بهذه الرفاهية، لكنهم لم يكونوا متدينين أو صارمين أيضًا: كانوا يحبون الحياة بكل حلاوتها، ويشعرون بجاذبية الأخطار بحماسٍ شديد. كانت الجزيرة مصنعًا للكهنة المفعمين بالحيوية والمغامرة. أولئك الذين بقوا في إسبانيا انتهى بهم الأمر ليصبحوا قساوسة للمجلس البلدي. آخرون -أكثر جرأة، بمجرد أن غنوا قداसा- أبحروا إلى أمريكا، حيث

بعض الجمهوريات الكاثوليكية الأرستقراطية التي كانت بمثابة الإلدورادو^(٥٤) للكهنة الإسبان الذين لا يخشون البحر. أرسلوا من هناك كثيرًا من المال إلى عائلاتهم ويشترون منازل وأراضي، حامدين الله، الذي يجعل كهنته أكثر سعة في العالم الجديد منه في العالم القديم. كانت هناك سيدات صالحات في تشيلي وبيرو يقدمن مائة بيزو كصدقة لأجل القداس. هذه الأخبار تجعل آباءهم -المجتمعين في ليالي الشتاء في المطبخ- يفتحون أفواههم من الدهشة. على الرغم من هذه العظمة، كانت رغبتهم في العودة إلى الجزيرة الحبيبة، وكانوا يعودون بعد بضع سنوات بغرض زراعة أراضيهم. لكن شيطان الحياة الحديثة قد عض قلوبهم، فيشعرون بالملل من الحياة الرتيبة للجزيرة التقليدية والمغلقة. ويفكرون في المدن الفتية في القارة الأخرى، وفي النهاية يبيعون ممتلكاتهم أو يهدونها للعائلة، ويبحرون دون التفكير في العودة أبدًا.

كان بيب غاضبًا من عناد ابنه، الذي أصر على الاستمرار في أن يكون فلّاحًا. يتحدث عن قتله كأنه رآه في طريق الهلاك. يراقب جميع أبناء أصدقائه الذين يغادرون إلى العالم الآخر مرتدين السربال. كان ابن تروفوتش يبعث من أمريكا حوالي ستة آلاف دورو. وآخر -يعيش في أواسط البر بين الهنود، في بعض الجبال العالية جدًا التي يطلقون عليها

(٥٤) إلدورادو: وتعني المذهب أو الذهبي، وهو الاسم الذي أطلق في البداية على ملك أو زعيم الكهنة في إحدى قبائل أمريكا الجنوبية، إذ يُقال أنه كان يغطي نفسه بغبار الذهب في احتفال ديني سنوي.

اسم جبال الأنديز - اشترى قطعة أرض في إبيزا، والتي يزرعها والده. وكان الوغد بيت - الأكثر ذكاءً في الآداب من الآخرين - يرفض اتباع مثل هذه الأمثلة الجميلة! كان عليه أن يقتله.

في الليلة السابقة، في لحظة هدوء، عندما كان بيب يستريح في مطبخه بذراعٍ متعبة مع تعبير حزين لأبٍ انتهى للتو من علفة مبرحة، اقترح الفتى - وهو يحك جسده من الضربات - اتفاقاً. سيكون قسيساً؛ سيطيع السيد بيب، لكنه أراد أولاً أن يكون رجلاً، يذهب مع صبية الأبرشية لعزف الموسيقى، والرقص أيام الأحاد، والاختلاط في المغازلة، وأن يكون له خطيبة، وارتداء السكين في حزامه. هذه الأخيرة كانت أكثر ما يتمناها بلهفة. إذا أعطاه والده سكين جده، فسوف ينفذ كل شيء.

كان الصبي يتوسل:

- خزانة جدي، يا أبي! خزانة جدي!

سيصبح قسيساً للحصول على سكين الجد، وحتى إذا لزم الأمر سيعيش وحيداً على صدقات الناس، مثل نساك شواطئ البحر في هيكل كويس^(٥٥). عندما تذكر السلاح الجليل، لمعت عيناه بإعجاب ووصفه إلى فيرر. جوهرة! كان مبرد قديماً، حاداً ومصقولاً من الفولاذ. يمكن أن تخترق به عملة معدنية، وفي يدي جده! كان جده رجلاً مشهوراً. لم يقابله الحفيد أبداً، لكنه يتحدث عنه بإعجاب، مبعجلاً ذكره بشكلٍ فوق العادي، وهو ما توحى به طيبة والده.

(٥٥) كويس: قرية في جزيرة إبيزا.

ثم -بدافع رغبته- تجرأ على التماس حماية دون خايمي. إذا أراد مساعدته! سيكون السكين الشهيرة مرةً واحدةً؛ ليعطيه إليه والده فوراً.

قَبْلَ فِبرر هذا الطلب بضحكةٍ طيبة.

- ستكون لك السكين يا فتى. وإذا لم يتخلَّ والدك عنها، سأشتري لك أخرى عندما أذهب إلى المدينة.

هذا اليقين أثار القسيس. كان بحاجة إلى أن يكون مسلحاً ليتمكن من الاندماج مع الرجال. يتردد على منزله أكثر الفتيان شجاعة في الجزيرة. كانت مارجاليدا الآن فتاة والتودد على وشك أن يبدأ. استجدى الفتيان السيد بيب من أجل تحديد يوم وساعة لزيارة الخاطبين.

قال فِبرر بدهشة:

- آه! مارجاليدا! مارجاليدا مع خُطابها!

ما رآه في عدد من المنازل على الجزيرة بدا له مشهداً سخيفاً في بيت المايوركي. لقد نسي أن ابنة بيب كانت امرأة. لكن هل يمكن أن يحب الرجال حقاً تلك الفتاة، تلك الدمية البيضاء الساذجة؟ يشعر باستغراب الأب الذي وقع في حب عدد من النساء في الماضي، وهو يحكم برقة مشاعره الخاصة، لا يمكنه أن يفهم أن ابنته تلهم المشاعر.

مرت بعض اللحظات ولم يعد يراها هكذا. كانت مارجاليدا أخرى في عينيه: كانت امرأة. ألمه التحول. اعتقد أنه فقد شيئاً للتو، لكنه استسلم للواقع.

قال بصوتٍ مكتوم قليلاً:

- وكم عددهم؟

لَوْحٌ بَيْتٌ بيده في الوقت نفسه الذي رفع فيه عينيه إلى قبو البرج. كم عددهم؟ لم يكن معروفاً بعد على وجه اليقين. ثلاثون على الأقل. سيكون تودد سيتكلمون عنه في جميع أنحاء الجزيرة؛ وأن كثيرين -على الرغم من أنهم كانوا يلتهمون مارجاليدا بأعينهم- لم يجرؤوا على الاشتراك في الخطبة، واعترفوا بهزيمتهم مسبقاً. كان هناك قليل مثل أخته في الجزيرة: جميلة ومبهجة ومع قطعة خبز جيدة، فقد كان يتحدث السيد بيب في كل مكان عن إعطاء بيت المايوركي لزوج ابنته عندما يموت. والابن منزعج من السربال وهو على عاتقه في الجانب الآخر من البحر، دون رؤية فتيات أخريات غير الهنديات! يا له من مستقبل!

لكن غضبه لم يدم طويلاً. تحمَّس عندما يفكر في الشباب الآتين إلى منزله مرتين في الأسبوع ليخطبون ود مارجاليدا. سيأتون حتى من سان خوان، في الطرف الآخر من الجزيرة، بلدة الرجال الشجعان، حيث يتجنب كثيرون مغادرة منازلهم بمجرد حلول الليل، وهم يعلمون أن كل منحدر بمثابة دعامة لمسدس، وكل شجرة بمثابة مخبأ لبندقية، وكلهم ينتظرون بصبر التعويض عن إساءة تلقوها قبل سنوات عديدة؛ موطن (وحوش سان خوان) المخيفة. إلى جانب هذه الشخصيات سيأتي آخرون من الأراضي الأخرى، وسيضطر كثيرون إلى السير لفراسخ للوصول إلى بيت المايوركي.

ابتهج القسيس وهو يفكر في الشبان المتغطرسين الذين سيلتقيهم. سيعامله الجميع كرفيق لأنه شقيق العروس؛ ولكن من بين هذه الصداقات المستقبلية، كانت أكثر صداقة أثارت إعجابه هي صداقة برى، الملقب بالحداد لعمله في الحدادة، وهو رجل يقترب من الثلاثينيات، يتحدثون عنه كثيرًا في أبرشية سان خوسيه.

كان الصبي معجبًا به كفنان عظيم.

عندما يقرر العمل، يصنع أجمل المسدسات المعروفة في حقول إبيزا. يُعد بيت عمله. يرسلون إليه براميل بندقيات قديمة من شبه الجزيرة - فما هو قديم يوحى للفتى بالاحترام - وكان يُركبها بطريقته الخاصة على أعقاب المسدسات المنحوتة بخيال بربرى، مضيئًا الحلي الفضية الدقيقة إلى العمل. السلاح الذي يخرج من يديه يمكن أن يصل إلى الفم، دون خوف من الانفجار.

لكن هناك ظرف آخر أكثر أهمية زاد من إعجابه بالحداد. أعلنه بصوت منخفض، بنبرة من الغموض والتبجيل:

- إن الحداد وغد.

وغد! ظل خايمي مستغرقًا في التفكير لبضع لحظات، وهو يرتب ذكرياته حول عادات الجزيرة. ساعدت لفظة معبرة من القسيس ذاكرته. الوغد هو رجل لا تحتاج قيمته إلى إثبات؛ لأن لديه مثالًا أو عدة أمثلة على صلابته يده أو على دقة تصويبه.

تذكر بيت - حتى لا تكون عائلته دون الحداد - جده مرة أخرى.

لقد كان وغداً أيضاً، لكن العجائز كانوا يعرفون الأمور بشكل أفضل. لا يزالون يتذكرون في سان خوسيه المهارة التي تعامل بها الجد مع شؤونه: ضربة واحدة فقط بالسكين الشهيرة، ثم تؤخذ الاحتياطات بشكل جيد لدرجة أن الشهود يتقدمون دائماً ليعلموا أنهم رأوه في الطرف الآخر من الجزيرة في الوقت نفسه الذي احتضر فيه العدو.

كان الحداد وغداً معه ثروة أقل. لقد مر نصف عام منذ أن نزل من السفينة، بعد أن أمضى ثماني سنوات في سجن في شبه الجزيرة. كانوا قد حكموا عليه بالسجن أربعة عشر عاماً، لكنه نال عدداً من حالات العفو. كان استقبال منتصر. ابن سان خوسيه الذي عاد من مثل هذا المنفى البطولي! ما كان ينبغي أن يكونوا أقل حماساً من سكان الأبرشيات الأخرى، الذين رحبوا بأوغادهم بهدايا عظيمة. وفي اليوم الذي وصلت فيه الباخرة، نزل أقارب الحداد البعيدون - كانوا نصف قرية - وبقية الحي إلى ميناء إبيزا بدافع حب الوطن الخالص. حتى رئيس البلدية قام بالرحلة، وتبعه سكرتيه؛ للاحتفاظ بتعاطف مديريه. احتج سادة المدينة بسخط على هذه العادات البربرية وغير الأخلاقية للفلاحين، بينما اقتحم الرجال والنساء والصبيّة الباخرة، وكل منهم متلهف على أن يكون أول من يصافح يد البطل.

تذكر بيت عودة الوغد إلى سان خوسيه. كما أنه صور في الموكب صفّاً طويلاً من العربات والخيول والحمير والمشاة، كأن البلدة بأكملها تهاجر. كان الاحتفال الشعبي الديني يتوقف في جميع الحانات والمطاعم الصغيرة على طول الطريق، وكان الرجل العظيم

يُهدى أباريق من النيذ، وقطعًا من السحق، وأكوابًا من الفيحولا، وهو مشروب من أعشاب الجزيرة. كانوا معجبين ببذله الجديدة -بدلة رجل نبيل اشتراها عندما غادر السجن- كانوا مندهشين بصمت من فصاحة أسلوبه، وهيئة الأمير الجيد الذي يرحب بأصدقائه القدامى، وهو يُحييهم بإيماءة ونظرة. يحسده كثيرون. كم يتعلم الرجل عندما يغادر الجزيرة! لا يوجد شيء مثل التجول في العالم! طغى الحداد العجوز عليهم جميعًا بتفوق ذكرياته خلال رحلته إلى سان خوسيه. بعد ذلك -في غضون عدة أسابيع- تبين أن الاجتماع في حانة المدينة -عندما يحل المساء- كان ممتعًا للغاية. كانت كلمات الوجد تتكرر من منزل إلى منزل في جميع القرى الصغيرة المتناثرة في المنطقة، حيث رأى كل مزارع شيئًا مشرفًا لأبرشيته في مغامرات الجار هذه.

لم يسأم الحداد أبدًا من الإشادة بجمال المؤسسة التي أقام فيها ثمانى سنوات. نسي الغضب والحزن الذي عانى منهما هناك. كل ما يراه من خلال هذا الحب للماضي الذي يزيّف الذكريات.

لم يعيش -مثل بعض التعساء- في مؤسسة عقابية في سهول لامانشا، حيث يتعين رفع المياه على ظهر الرجل، وهو يعاني من آلام البرد القطبي. كما أنه لم يذهب إلى سجون قشتالة القديمة، حيث يبيض الثلج الساحات والفجوات الموجودة في القضبان. جاء من بلنسية، من سجن سان ميغيل دي لوس رييس، المسمى نيس -بسبب حلاوة مناخه- من قبل المقيمين المعتادين في هذه المؤسسات. يتحدث عن هذا المبنى بكل فخر، تمامًا كما يتذكر طالب ثري السنوات التي

قضاها في إحدى الجامعات الإنجليزية أو الألمانية. كانت أشجار النخيل الطويلة تظلل الساحات وهي تلوح بتيجان أعمدتها من الريش فوق الأسطح. يمكن من القضبان رؤية الامتداد الكامل لبستان بلنسية، مع أسقف مثلثة الشكل وبيضاء لأكواخه الخشبية، وأبعد كان البحر المتوسط، شريطاً أزرق هائلاً، تختبئ الصخرة الأصلية.. والجزيرة المحبوبة خلف ظهره. ربما مرت عبرها رياح محملة بأبخرة ملحية وحرارة النباتات، تهب مثل البركة في عنابر السجن التتنة. ما الذي يريده السجين أكثر من ذلك؟! كانت الحياة حلوة: كان الطعام في ساعات العمل، ودائماً ما يكون ساخناً؛ كان هناك نظام، وعلى الرجل فقط أن يطيع وينقاد. لقد كوّن صداقات جيدة؛ يتعامل الشخص مع أناس بارزين، ولو أنه بقي في الجزيرة لما أصبح معروفاً أبداً. كان الحداد يتحدث بفخر عن أصدقائه. يمتلك بعضهم الملايين، ويركبون عربات فاخرة هناك في مدريد، وهي مدينة شبه خيالية، كان يرث اسمها في آذان سكان الجزر مثل اسم بغداد بالنسبة لعرب الصحراء الفقراء الذين يستمعون إلى قصة من ألف ليلة وليلة. سافر آخرون نصف العالم قبل أن تنفيهم المصيبة في الحبس، وأمام حشد غارق في الدهشة، كانوا يتذكرون مغامراتهم في أراضي السود أو في البلدان التي لون الرجال فيها أصفر أو أخضر ويرتدون الضفائر الأنثوية. في ذلك الدير القديم، الضخم بحجم قرية، يعيش أفضل ما في الأرض. كان بعضهم يحمل سيوفاً ويأمرون رجالاً؛ وآخرون يتعاملون مع أوراق مختومة ويترجمون القانون. حتى الراهب كان زميلاً في عنبر الحداد!

يستمع معجبه بأعينٍ واسعة وأنوفٍ نابضة بالإنارة. يا له من حظ!
كونه وغدًا، كسب الشهرة والاحترام بقتل عدو في ظلال الليل، وفي
مقابل ذلك، ثماني سنوات في نيس مكان البهجة والشرف. لا يملك
هؤلاء مثل هذا الحظ!

شعر القسيس -الذي يستمع إلى هذه القصص- باحترام نحو
الوغد. كان يصف خصائص شخصه بإسهاب شخص يشعر بالحب
اتجاه بطل.

لم يكن طويل القامة أو قويًا مثل السيد. لكنه كان رشيقيًا، لم يتفوق
عليه أحد في الرقص، وكان بإمكانه الرقص ساعات كاملة، حتى تستسلم
جميع الفتيات في الأبرشية. لقد اكتسب من إقامته الطويلة في نيس لونا
شاحبًا وبراءًا، بشرة راهبة في عزلتها؛ لكنه كان فعلاً داكناً مثل الآخرين،
مع وجه ذي لونٍ برونزي ومسمر بفعل هواء البحر والشمس الإفريقية
للجزيرة. كان يعيش في الجبل، في كوخ بجوار غابات الصنوبر، بالقرب
من مواقع الفحم التي توفر الوقود لكور الحدادة. لم يعمل هذا كل يوم.
كان الحداد -مع ادعاءاته بأنه فنان- يعمل فقط عندما يضطر إلى إصلاح
بندقية، أو تحويل بندقية قديمة ذات شرارة إلى سلاح بمكبس، أو صنع
تلك المسدسات ذات الزخارف الفضية التي كان القسيس معجباً بها.

يتمنى أن يراه المفضل لدى أخته؛ لكي يدخل الوغد عائلته بقدراته
المذهلة. ربما بدافع القرابة اللصيقة يقرر منحه واحدة من تلك الجواهر.
- من الممكن أن تحبه مارجاليدا، وحينئذٍ يمنحني الحداد واحدًا
من مسدساته. ماذا تعتقد يا دون خايمي؟

يدافع عن الوغد كأنه فعلاً أحد أقاربه. يعيش المسكين في حالة سيئة للغاية! وحده في كور الحدادة، دون ضُحبة أخرى غير قرية عجوز ترتدي دائماً الأسود بسبب حداد منذ زمن بعيد، عين واحدة تدمع، والأخرى مغلقة، وهي تسحب من المنفخ، بينما ابن أخيها يضرب الحديد الأحمر. كان محيط الموقد يُبَسّ عظامها النحيلة أكثر فأكثر. وبدا -في وجهها المتجعد مثل تفاحة قديمة- أن محجري عينيها قد ذابا.

يمكن تزيين هذا الكهف الدخاني المعتم في وسط غابات الصنوبر بوجود مارجاليدا. كانت زيتته الحالية الوحيدة بضع سلال صغيرة من نبات الأسَل المجدول والملون على شكل رقع الشطرنج، مع شُرابة حريرية، ذكرى ودودة من الفنانين المجهولين الذين يسلمون أوقات فراغه في عزلته في نيس. عندما تعيش أخته في كور الحدادة، سيذهب بيت لرؤيتها، ويعول على سخاء صهره للحصول -في هذه الزيارات- على سكين مشهورة مثل سكين جده، إذا ثابر السيد يب بشكلٍ ظالم في حجب هذا الميراث المجيد عنه.

بدا أن ذكرى والده أظلمت آمال الصبي. يرى أن من الصعب على مالك بيت المايوركي قبول برى الحداد زوجاً ابنته. لم يستطع العجوز أن يقول أي شيء سيئ عنه؛ كان يتقبل شهرته كتكريم لقريته. لم يكن للجزيرة رجال شجعان مثل (وحوش سان خوان) فقط؛ بل يمكن لسان خوسيه أن تفتخر أيضاً بالشباب الشجعان الذين عانوا من محاكمات قاسية. لكن الحداد كان رجلاً صاحب مهنة، يفهم قليلاً في أمور

الزراعة، وعلى الرغم من أن جميع سكان إبيز مستعدون بالقدر نفسه لزراعة الأرض وإلقاء شبكة في البحر أو تفريغ بضاعة مهربة والانتقال بسهولة من وظيفة إلى أخرى، إلا أنه أراد لابنته فلاحًا حقيقيًا اعتاد طيلة حياته على حفر الأرض. كان تصميمه لا يتزعزع. في تلك الدماغ القاحلة والصلبة، عندما تظهر فكرة، ترمي جذورها عميقًا، بحيث لا يمكن لأي إعصار أو كارثة اقتلاعها. سيكون بيت كاهنًا وسيدير العالم. وسيحتفظ لمارجاليدا بمزارع يوسع أراضي بيت المايوركي عن طريق توريثها.

كان القسيس قلقًا عندما يفكر فيمن يمكن أن تفضله مارجاليدا. كان عمل الجميع مواجهة رجل مثل الحداد. حتى لو كانت أخته تميل نحو آخر، فإن المحظوظ سيتعين عليه فيما بعد التعامل مع برى، الشجاع المُمجد، وإزالته من وسطهم. أشياء كبيرة ستحدث. سيتحدثون فعلاً عن التودد إلى مارجاليدا في جميع منازل المنطقة؛ امتدت شهرتها في الجزيرة بأكملها. وكان بيت بيتسم بمتعة شديدة، مثل متوحش صغير يرى المذبحة وشيكة.

كان معجبًا بمارجاليدا، معترفًا بسلطانها التي هي أعظم من سلطة والده، للسبب نفسه لأنها لا تخاف من الضرب. تدير كل شيء في المنزل. كانت الأم تتبع خطواتها، كأنها خادمة، وهي لا تجرؤ على فعل أي شيء دون استشارتها. السيد ييب -المطلق في أفكاره- يتوقف قبل اتخاذ قرار، وهو يحك جبهته بإيماءة من الشك، بينما يقول بصوت منخفض: «يجب أن أستشير الفتاة في هذا». القسيس نفسه -الذي ورث

عناد والده- توقف بسهولة عن محاولاته الاحتجاجية بكلمة واحدة فقط من أخته، تلميح من فمها المبتسم، من صوتها العذب.

قال الصبي بإعجاب:

- ما تجيده هي يا دون خايمي! لا أعرف ما إذا كانت جميلة. يقولون أجل؛ ولكن بالنسبة لي لا تعجبني. أنا أحب الأخريات في مثل عمري. من المؤسف أنهن لسن مستعدات بعد للاعتراف بالتودد!

وبالعودة للحديث عن أخته، كان يعدد مواهبها، وهو يصر مع بعض الاحترام على قدرتها على الغناء.

هل كان دون خايمي يعرف المغني، شاب عليل في صدره، لا يعمل ويقضي أيامه ممدداً في ظل الأشجار، وهو يقرع الطبل ويغمغم بالأبيات الشعرية؟ كان حملاً أبيض، دجاجة، بعيني امرأة وبشرتها، غير قادر على مواجهة أي شخص. يتودد إلى مارجاليدا؛ لكن القسيس أقسم أن يلصق الطبلية في رقبته قبل أن يقبله صهراً. لا يمكن أن يصاهر إلا بطلاً. ولكن عندما يتعلق الأمر بإبداع الأغاني من الرأس وغنائها تتخللها صيحات الطاووس، لم يكن هناك من يقارن نفسه بالمغني. كان عليه أن يكون عادلاً، وقد كان بيت يدرك جدارته. لقد كان بالنسبة لقريته مجداً يمكن مقارنته تقريباً بمجد الحداد الشجاع. حسناً إذن؛ واجه هذا المغني مارجاليدا عندما قررت الجلوس في وسط الدائرة، في التجمعات الصيفية على شرفة بيت المزرعة أو في رقصات الأحد، حجلة، مدفوعة من قبل رفيقتها، والطبلية على ركبة واحدة، تختبئ عيناها خلف منديل، وتردد قصائد غرامية طويلة، كلها من إبداعها، على ما قاله الشاعر من قبل.

إذا كان المغني يسرد قصة لا نهاية لها في يوم أحد عن زيف النساء ومدى تكلفتهم للرجال بسبب ولعهم بالخرق، كانت ترد مارجاليدا يوم أحد آخر بقصيدة غرامية مضاعفة تنتقد غرور الرجال وأنانيتهم، وكان حشد الفتيات يرددن أبياتها الشعرية بقرقرة حماسية، معترفات بمجد المنتقمة فتاة بيت المايوركي.

- بيت! يا فتى!

رن صوت أنثوي من بعيد مثل الكريستال، يقطع الصمت الكثيف في ساعات المساء الأولى، مشحونًا بذبذبات الحرارة والضوء. يرن في كل مرة أقوى، وهو يكرر نفسه، كأنه يقترب من البرج.

تخلى بيت عن موقعه كوحش صغير في حالة راحة، محررًا ساقيه المشنيتين من حلقة ذراعيه ليقفز منتصبًا. كانت مارجاليدا التي تنادي عليه. كان على والدها أن يطلب منها بعض الأعمال، نظرًا إلى تأخره.

أمسكه السيد من ذراعه. قال مبتسمًا:

- دعها تأتي. كن صامتًا حتى تصرخ.

أظهر القسيس أسنانه الحادة في ظلام وجهه البرونزي. ابتسم الوغد، راضيًا عن هذا التواطؤ البريء، وأراد الاستفادة منه، مخاطبًا السيد بثقة جريئة.

- هل حقًا سيطلب سكينة جده من السيد ييب؟ آه، خزانة جده! كانت دائمًا حاضرة في ذاكرته.

قال خايمي:

- أجل، ستملكها. وإذا لم يعطيك والدك إياها، فسأشتري لك أفضل ما يمكن أن أجده في إبيزا.

فرك الصبي يديه معاً، وعينه تومضان بشدة.

تابع فيرر:

- هذا فقط لكي تكون رجلاً مثل الآخرين. لكن لا شيء لاستخدامه! زينة بسيطة لا شيء أكثر.

أجاب بيت -الحريص على تحقيق أمنيته في أسرع وقت ممكن- بحركات نشطة برأسه. أجل؛ زينة لا شيء أكثر.. ولكن أظلمت عيناه بشكٍّ قاسٍ... زينة؛ ولكن إذا أساء إليه أحد وهو يحمل مثل هذا الرفيق، فماذا يجب أن يفعل الرجل؟

- بيت! يا فتى!

رن الصوت البلوري الآن عند أسفل البرج. كان يتوقع فيرر أن يسمعها أكثر قرباً، ليرى رأس مارجاليدا يظهر ثم جسدها كله في فراغ المدخل. عبثاً انتظر وقتاً طويلاً.. أصبح الصوت مُلِحّاً، مع هزات رشيقة من نفاذ الصبر، لكنه لم يقترب أكثر.

أطل فيرر من الباب ورأى الفتاة في أسفل الدرج، قليلة الحجم إلى حدٍّ ما بسبب المسافة، مع تنورة زرقاء متنفخة وقبعة من القش تتدلى منها شرائط مزهرة. على خلفية الحواف العريضة للقبعة -مثل الهالة- يبرز وجهها شاحباً مثل اللون الوردي، والذي تبدو فيه قطرتا عينيها السوداوين ترتجفان.

- مرحبًا يا زهرة اللوز!

قالها فِبرر - مع بعض القلق في صوته - مبتسمًا.

(زهرة اللوز) عندما سمعت الفتاة هذا الاسم من فم السيد، أخفى التمدد الدموي بلونه الأحمر القاني بشكلٍ مؤقتٍ بياض بشرتها اللطيف. هل يعرف خايمي هذا الاسم الآن؟! هل كان يعلم رجل مثله مثل هذا الهراء؟!!

رأى فِبرر فقط قُبّة وحافة قبعة مارجاليدا. لقد خفضت رأسها، وكانت في إحراجها تتلاعب بأطراف مريلتها، وهي حَجَلَة مثل طفلة انتبهت فجأةً إلى أهمية جنسها وتسمع أول مغازلة.



ذهب فبرر -يوم الأحد التالي- إلى المدينة في الصباح. لم يستطع العم بتولرا مرافقته إلى البحر؛ لأنه يعتبر وجوده في القُداس أمرًا لا بد منه، للرد بصوتٍ حاد على كلمات الكاهن.

قام خايمي بالسير نحو القرية، لعدم وجود ما يشغله، على طول ممرات الأرض الحمراء التي تلوث بياض حذائه الكتاني. كان يوم أحد آخر أيام الصيف. تبدو البيوت الريفية ذات البياض الواضح كأنها تعكس نار شمس إفريقية. تحلق أسراب من الحشرات في الهواء. في الظل الأخضر لأشجار التين العريضة المنخفضة المستديرة، التي تستند على دائرة من الأوتاد مثل سقف من النباتات، يتساقط التين مفتوحًا بفعل الحرارة، منفجرًا على الأرض مثل قطرات ضخمة من السكر الأرجواني. ترفع نباتات الصبار جدرانها من الشفرات الشائكة على جانبي الطريق، وبين جذورها المتربة تهيم -خائفة وثملة تحت أشعة الشمس- وحوش صغيرة ترفرف، ذات ذيل طويل وزمرد أخضر.

من بين الأعمدة السوداء الملتوية لأشجار الزيتون واللوز، من مسافة يمكن رؤية مجموعات من الفلاحين، وهم يتبعون دروبًا أخرى، يسرون نحو القرية. تسير الفتيات أمامهم بزي الأحد، بمناديل حمراء

أو بيضاء وتنانير خضراء، وسلاسل ذهبية كبيرة تلمع في الشمس. وبجانبهن يسير المتقدمون، وهو موكب عنيد عدائي يتشاجر من نظرة أو كلمة بالأحرى، حيث يلاحق كثيرون الفتاة نفسها في الوقت نفسه. يقوم آباء الفتيات بسد المسيرة -الطاعنون قبل الأوان بسبب التعب وبساطة الحياة الريفية وبهائم الأرض الفقيرة الخاضعة والمستسلمة، ذوات البشرة السوداء، وأطرافهم الجافة مثل الأغصان، الذين في خدر عقلمهم يتذكرون سنوات التودد مثل ربيع غامض وبعيد.

عندما وصل فيرر إلى القرية توجه مباشرة إلى الكنيسة. كانت مكونة من ستة منازل أو ثمانية مع البلدية والمدرسة والحانة حول المعبد. وهذا الأخير ينتصب شامخاً وقوياً، كحلقة وصل بين جميع القرى الصغيرة المنتشرة في الوديان والجبال على بعد بضعة كيلومترات حولها.

احتفى خايمي -وهو يخلع قبعته لمسح العرق من على جبهته- تحت أروقة دير صغير يسبق الكنيسة. هناك اختبر الإحساس نفسه برفاهية العربي الذي لجأ إلى صومعة منعزلة بعد مسيرة عبر الرمال المشتعلة مثل الفرن.

يجعل بياض الكنيسة -المطلية بالجير، بأروقها الرائعة ومنحدراتها الحجرية الجافة المتوجة بنباتات التين الشوكي- المرء يفكر في مسجد إفريقي. كانت حصناً أكثر منه معبداً. كانت أسقفه مخبأة بالحافة العلوية للأسوار، وهو نوع من المِتراس تطل من فوقه البنادق والمقاذيف في كثير من الأحيان. كان البرج برجاً حربياً لا يزال متوجاً بمرمى السهام: انقلب جرسه القديم مرة مع حمى الهجوم المباغت.

كانت هذه الكنيسة - التي يدخل فيها فلاحو المنطقة إلى الحياة بالمعمودية ويتركونها مع قداس الموتى - لقرونٍ ملجأً لمخاوفهم، حصناً لمقاومتهم. عندما تعلن أبراج المراقبة على الساحل بإشعال النيران أو الدخان عن سفينة مغاربة، تركض العائلات من جميع البيوت الريفية في الأبرشية إلى المعبد، يحمل الرجال بنادقهم، وتبحث النساء والأطفال الماعز والحمير، أو يحملون على ظهورهم جميع طيور الحظيرة وقوائمها مربوطة في حزمة. تحول بيت الله إلى إصطبل يحرس ثروة أتباعه. صلى الراهب - في زاوية - مع النساء مقطوعة صلاتهن بسبب صراخ الضيق وبكاء الأطفال، بينما يستكشف الجنود حاملو البنادق على الأسطح والبرج الأفق، حتى يصل خبر أن طيور البحر الجارحة ابتعدت. حينها تُستأنف الحياة الطبيعية، وتعود كل أسرة إلى عزلتها، مع يقين من تكرار الرحلة المروعة بعد أسابيع قليلة.

ظل فيرر تحت الأروقة يراقب كيف تصل مجموعات الفلاحين على عجل، مدفوعة بآخر قرع للناقوس الكبير الذي انقلب في أعلى البرج. كان الجزء الداخلي للكنيسة ممتلئاً تقريباً. عبر الباب الموارب، يصل إلى خايمي نفحة كثيفة من التنفس الحار، العرق والملابس الخشنة. شعر فيرر ببعض التعاطف مع هؤلاء الأشخاص الطيبين عندما التقاهم بشكلٍ فردي، لكن الحشد يلهمه بالنفور، وبقي بعيداً عن التواصل معهم.

ينزل في كثير من أيام الآحاد إلى المدينة ليقى عند باب الكنيسة دون أن يدخلها. كان من الضروري له رؤية الناس بسبب عزلة المعتادة

في برجه على الساحل. بالإضافة إلى ذلك، كان يوم الأحد -بالنسبة له، لرجل بلا انشغالات- يومًا رتيبًا مرهقًا ولا نهاية له. كانت راحة الآخرين عذابه. لم يستطع الذهاب إلى البحر لعدم وجود أصحاب قوارب، وكانت الحقول المنعزلة، ومنازلها المغلقة، لوجود العائلات في القداس أو في السهرة الراقصة في المساء، تنقل إليه انطباعًا مؤلمًا عن التنزه في مقبرة. أمضى الصباح في سان خوسيه، وكانت إحدى متعه أن يبقى في دير الكنيسة يشاهد الحشود تدخل وتخرج، مستمتعًا بظل الأقواس البارد، بينما -على بُعد خطوات قليلة- تحترق الأرض من انعكاس الشمس، وتهز الأشجار أغصانها ببطء، كأنها تتألم من الحرارة والغبار الذي يغطي أوراقها، ويبدو الجو الكثيف كأنه يغمغم قبل أن ينزل إلى الرئتين.

تصل العائلات المتأخرة، وهي تمر أمام فيرر مع نظرة فضول وتحية خفيفة. يعرفه الجميع في المنطقة. هؤلاء الناس الطيبون عندما يرونه في الحقل، من الممكن أن يفتحوا له باب بيتهم؛ لكن محبتهم لم تذهب أبعد من ذلك، فلم يكونوا قادرين على الاقتراب منه من تلقاء أنفسهم. لقد كان غريبًا. إلى جانب ذلك، كان مايوركيا. خلق وضعه كسيد حالة من عدم الثقة الغامضة في الناس الريفيين، الذين لم يتمكنوا من تفسير استمراره في عزلة البرج.

بقى فيرر وحده. وصل إلى أذنيه قرع جرس، وضجيج الناس عند جثوها أو وقوفها، وصوت مألوف، صوت العم بنتولرا، مطلقًا بنبرة غنائية إجابات القداس مع صرير فمه بدون أسنان. تتقبل الناس تدخلات

جنون الشيخوخة هذه دون ضحك. لقد اعتادت -لسنوات وسنوات- سماع الكلمات اللاتينية للبحار السابق، الذي يصرخ من مقعده لدعم إجابات المساعد. كان الجميع يعطي بعض الطابع المقدس لهذا الهديان -مثل الشرقيين- الذين يرون في الجنون علامة على القداسة.

دخن خايمي عند مدخل الكنيسة للترفيه عن نفسه. هدل بعض الحمام فوق الأقواس، قاطعًا فترات الصمت الطويلة بصوت مداعباته. كانت ثلاثة أعقاب سجاجير عند قدمي فيرر، عندما رن صوت همهمة طويلة داخل المعبد، مثل مئات الأنفاس التي زُفرت أخيرًا مع تنهيدة الرضى. ثم ضجة خطوات، وتحيات مكتومة، وصدام كراسي، وصرير المقاعد، وجرّ الأقدام، وظل الباب مسدودًا بسبب أشخاص يحاولون الخروج دفعة واحدة.

بدأ المؤمنون يسرون في صفوف، وهم يحيون بعضهم كأنهم يرون بعضهم لأول مرة عندما التقوا تحت أشعة الشمس خارج ضوء المعبد الشفقي.

- نهارك سعيد! نهارك سعيد!

تخرج النساء في مجموعات: النساء المسنات اللاتي يرتدين السواد، ينشرن الرائحة المألوفة لتنانيرهن التحتية وجونلاتهن التي لا تعد ولا تحصى؛ وتنصب الشابات في مشداتهن الضيقة التي تسحق صدورهن وتمسح الانحناءات البارزة من أردافهن، وهن يعرضن بغطرسة نبيلة -على المنديل متعدد الألوان- السلاسل الذهبية والصلبان الضخمة. كانت رؤوس بنية أو خضراء مع أعين كبيرة ذات تعبير درامي؛

عذارى ذوات لون نحاسي بشعرٍ دهني لامع منقسم بمِفرق تزيده خشونة المشط اتساعًا في كل مرة.

يتوقف الرجال لحظة عند الباب ليضعوا على رأسهم -حليق الشعر، مع تجهيزات طويلة في المقدمة- المنديل الذي يرتدونه تحت قبعاتهم، على الموضة النسائية. لقد كان لباسًا استبدلوا به غطاء الحايك^(٥٦) القديم في البلاد، والذي يُستخدم الآن فقط في ظروف استثنائية.

ثم أخرج كبار السن من الوشاح غليونًا ريفيًا صنعوه بأنفسهم، وملأوه بالتبغ الصّديّ المزروع في الجزيرة، وهو عشب ذو رائحة نفاذة. يتبعد الشباب عنهم. يخرجون من الفناء ليتخذوا أوضاعًا شجاعة، وأيديهم في أوشحتهم ورؤوسهم مرفوعة، أمام مجموعات النساء. وتظاهر بينهن الفتيات العاشقات باللامبالاة، ويتأملنهم في الوقت نفسه من زاوية عين واحدة.

شيئًا فشيئًا يتلاشى هذا الحشد.

- نهارك سعيد! نهارك سعيد!

لن يرى كثيرون بعضهم مرةً أخرى حتى يوم الأحد التالي. تبتعد المجموعات متعددة الألوان عبر جميع الدروب: بعضها معتم دون أي مرافق يسировون ببطء كأنهم يزحفون مع بؤس الشيوخوخة؛ وبعضهم الآخر صاخب مع تناير مضطربة وأوشحة متموجة، يتبعها على مسافة مجموعة من الفتيان الذين يصرخون ويصهلون ويركضون؛ لينبّهوا الفتيات بوجودهم.

(٥٦) الحايك، أو الحانك، ويُقال له أيضًا التلحيفة: لباس تقليدي مغاربي ذو أصل أندلسي.

لا يزال هناك أشخاص داخل الكنيسة. رأى فيبر بعض النساء اللواتي يرتدين ملابس سوداء يخرجن، مجموعة حزينة من المحجبات، تظهر بالكاد من خلال شق العباءة أنوفهن مخضبة بالأحمر بسبب الشمس، وأعين كالجمرة تحجبها الدموع. كن مغطيات بمعاطف وشيلان شتوية وأغلقة تقليدية من الصوف السميك. تولد رؤيتهن إحساسًا بالعذاب والاختناق في صباح ذلك اليوم الصيفي الرطب. خرج خلفهن بعض الرجال المقنعين، فلا حين سابقين غطوا أنفسهم بأردية احتفالية؛ حايك داكن من الصوف الخشن بأكمام واسعة وقلنسوة ضيقة. كانت الأكمام فضفاضة، لكن القلنسوة كان مزرة بإبزيم بإحكام أسفل اللحية، مما يظهر من خلال الفتحة وجوه القراصنة المدبوغة.

كانوا من أقارب مزارع توفي قبل أسبوع. تجمعت العائلة الكبيرة -التي تعيش في أجزاء مختلفة من المنطقة- وفقًا للعادات في قداس الأحد لتذكر الميت، وعندما رأوا بعضهم، انفجر ألمهم بعنف إفريقي، كأن جثته لا تزال أمام أعينهم. تقضي العادة أن يغطوا أنفسهم بثيابهم الاحتفالية وبملابسهم الشتوية، محبوسين كأنها قشور من الألم. كانوا سيكون ويعرقون تحت اللفافات، وعندما تعرّف كل منهم على الأقارب الذين لم يرههم منذ أيام قليلة، اندلع حزنهم مع تفاقم جديد. تخرج تنهدات الألم المبرح من بين العباءات السمكية؛ وتنقلص الوجوه الفظة المبروزة بالقلنسوة مع تشنجات الألم الطفولي، وهي تُطلق تأوهات طفل صغير مريض. يذوب الألم مع الإفرازات المتواصلة، مزيج من العرق والدموع. تتدلى قطرات من كل الأنوف -الجزء الأكثر وضوحًا من الأشباح المتألّمة- ستسقط فوق ثنايا القماش الخشن.

يتحدث رجل بسلطة لطيفة، مطالبًا بالهدوء، وسط ضجيج أصوات نسائية تهدر بفظاظة من الحزن وتنهدات ذكورية مخنوقة من الألم. كان يبس من بيت المايوركي - وهو قريب بعيد للمتوفي - في هذه الجزيرة، وكان الجميع مرتبطاً إلى حد ما بالدم. لم تجبره القرابة الغامضة - على الرغم من أنها تدفعه إلى المشاركة في الألم - على ارتداء الحايك الخاص بالاحتفالات الكبيرة. كان يرتدي ثياباً سوداء ويغطي نفسه بعباءة صوفية خفيفة ولبادة مستديرة، مما يمنحه هيئة كنسية معينة. كانت زوجته ومارجاليدا - اللذان لم تعتقدا أنهما مرتبطتان بهذه العائلة - بعيدتين، كأنهما يبعدهما الاختلاف بين ملبسهما المبهجة في يوم الأحد وصخب الألم ذلك.

يتظاهر يبس اللطيف بالغضب من حالات اليأس الشديدة المتزايدة لمُرتدي الحداد: «يكفي الآن! كل واحد إلى بيته، ليعيش سنواتٍ عديدة، ليعهد الميت إلى الرب».

انفجر النحيب بصوتٍ أعلى تحت العباءات والقلنسوات. تصافحوا، وقبلوا أفواه بعضهم، ولفوا أذرعهم، كأنما يودعون جميعاً بعضهم حتى لا يتقابلوا مرةً أخرى. «وداعاً! وداعاً!» ابتعدوا في مجموعات، كلٌّ في اتجاه مختلف، نحو الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر، ونحو البيوت الريفية البيضاء البعيدة نصفها مخبأ بين أشجار التين واللوز، ونحو صخور الساحل الحمراء؛ وكان مشهداً سخيفاً وغير مترابط أن ترى تحت أشعة الشمس الحارقة - عبر الحقول الخضراء والرائعة - كيف تسير بخطوة ثقيلة هذه الأشباح الكثيرة والعرقانة، بكاءً و الموت الدؤوبون.

كانت العودة إلى بيت المايوركي حزينة وصامتة. قاد بيت الطريق
وقيثارة الفم بين شفتيه، والتي ترافقه في مسيرته مع طنين دبور. من وقتٍ
لآخر يتوقف لكي يرمي الحجارة على الطيور أو على السحالي السوداء
المنتفخة التي تطل من بين نبات الصبار. ما كان يهمه الموت! تسير
مارجاليدا بجانب والدتها صامتةً شاردةً بعينين محدقتين: عيني بقرة
جميلة، تنظر في كل مكان دون أن ترى، دون أن تعكس أي فكرة. يبدو
أنها لم تنبته إلى أن دون خايمي -السيد، ضيف البرج الموقر- يسير
خلفها.

يبب -الشارد أيضاً- يشي اتجاه أفكاره بكلمات سلسلة موجهة إلى
فبرر، كأنه بحاجة إلى مشاركة أفكاره مع شخصٍ ما.

«الموت! يا له من أمرٍ قبيح يا دون خايمي! وهناك كانوا يقفون،
على قطعة أرض محاطة بالأمواج، غير قادرين على الهروب، غير
قادرين على الدفاع عن أنفسهم، منتظرين اللحظة التي يضع فيها مخالفه
عليهم». يشعر الفلاح أن أنانيته تثور في وجه هذا الظلم العظيم. من
الجيد أن يكون هناك على أرض اليابسة، حيث الناس سعداء ويتمتعون
كثيراً، يُطلق الموت حنقه.. لكن هنا؟ هنا أيضاً، في الزاوية الأخيرة من
العالم؟ ألم يكن للفضولي العظيم حد أو استثناء؟

من غير المجدي تخيل عقبات. قد يكون البحر فعلاً هائجاً بين
سلاسل الجزر الصغيرة والشعاب المرجانية التي تمتد من إبيزا إلى
فورمينترا. كانت المضائق تعج بالأمواج، والصخور مغطاة بالزبد،
ورجال البحر الأشداء يتراجعون، والسفن تلجأ إلى الموانئ، والممر

يُغلق أمام الجميع، والجزر تُفصل عن بقية العالم.. لكن هذا لا يعني شيئاً للبحار الذي لا يُقهر ذي الجمجمة المحلوقة، ابن السبيل ذي الأرجل القوية، الذي يمكنه الركض بقفزات هائلة فوق الجبال والبحار.

ليس هناك عاصفة توقفه؛ ولا بهجة تجعله يُنسى. كان في كل مكان؛ يتذكر الجميع. يمكن أن تشرق الشمس الآن، وتظهر الحقول جميلة، ويكون الحصاد جيداً.. خداع لتسليّة الإنسان في مشقاته وجعلها أكثر احتمالاً! وعود كاذبة، مثل التي تُقدم للأطفال ليخضعوا عن طيب خاطر لعذاب المدرسة! وكان على الشخص أن يترك نفسه ينخدع؛ كانت الكذبة جيدة. لا ينبغي عليهم تذكر هذا الشر الذي لا مفر منه، وهذا الخطر الأخير دون أي علاج، أن يُكبَّ الحياة، وهو ينزع نكهتها من الخبز، الزبرجد المبهج من سائل الكرمة، وخُلاصتها من الجُبِن الأبيض، ومذاقها المسكر من التين الأرجواني، وقوتها الحريفة من النفاق، وهو يُظلم ويُمرّر كل الأشياء الجيدة التي وضعها الله في الجزيرة لراحة الناس الطيبين. «آه يا دون خايمي! يا له من بؤس!».

أكل فَبِرر في بيت المايوركي؛ ليتجنب صعود أبناء بيب إلى البرج. بدأ الطعام ببعض الحزن، كأن نحيب أصحاب القلنسوات في ردهة الكنيسة لا يزال يهتز في أذنيهم. شيئاً فشيئاً -حول المائدة الصغيرة المنخفضة وقدر الأرز الكبير- انتشرت بعض البهجة. تحدث القسيس عن رقصة المساء، ناسياً تماماً حياته الإكليريكية ومتجاسراً على مواجهة عيني بيب. تذكرت مارجاليدا مظهر المغني والموقف المتغطرس للحداد عندما مرت أمام الفتیان عند دخول القداس. تنهدت الأم:

- آه يا إلهي! آه يا إلهي!

لم تقل أبدًا أكثر من ذلك، ترافق البهجة والآلام صيحة أفكارها
الملتبسة نفسها تجاه الله.

أعطى بيب إبريق النبيذ عدة لمسات مليئة بالعصير الوردي للكروم
الذي ينشر مظلة من أوراق العنب أمام الشرفة. كان وجهه العابس ملونًا
بشفق سحر مبهج. «إلى الجحيم أيها الموت ومخاوفه! هل يقضى
الرجل الصادق حياته كاملةً مرتجفًا من وصوله؟ يمكنه الظهور متى
رأى ذلك مناسبًا. في هذه الأثناء، لنحيا!». وقد أظهر هذه الرغبة في
الحياة وهو ينام على مصطبة، مع شخير صاحب فشل في إخافة الذباب
والدبابير التي ترفرف حول فمه.

سار فيرر إلى البرج. بالكاد لاحظت مارجاليدا وشقيقها السيد. لقد
غادرا الطاولة للتحدث بحرية أكبر عن الحفلة الراقصة المسائية، بفرحة
ولدين يزعجهما وجود شخص جاد.

تمدد في البرج على نضيدته وأراد أن ينام. وحده! انتبه لعزلته،
محاطًا بأشخاص يحترمونه، ربما يحبونه، لكنهم في الوقت نفسه
يشعرون بجاذبية لا تقاوم اتجاه مباهج بسيطة تافهة بالنسبة له. يا له من
عذاب أيام الأحاد! إلى أين يذهب؟ ما العمل؟

في رغبته الراسخة في قمع عذاب الوقت العظيم، والابتعاد عن
حياة بدون هدف حالي، انتهى به الأمر إلى النوم، واستيقظ في منتصف
المساء، بينما الشمس تبدأ في النزول ببطء، أبعد من خط الجزر
الصغيرة، وسط وابل من الذهب الشاحب الذي يبدو أنه يعطي المياه
لونًا أزرق أكثر كثافة وعمقًا.

عندما نزل إلى بيت المايوركي، رأى البيت الريفي مغلقاً. لا أحد! حتى خطواته لم تثر نباح الكلب الذي يربض دائماً تحت الشرفة. ذهب الحيوان الحارس أيضاً إلى الحفلة مع العائلة. فكر فيرر: إنهم جميعاً في الحفلة الراقصة. هل أذهب إلى القرية؟

تردد فترة طويلة. ماذا يمكن أن يفعل هناك؟ تنفّره هذه التسلّيات، حيث يثير وجوده فيها كغريب بعض الانزعاج بين الفلاحين. يفضل هؤلاء الناس أن يكونوا بمفردهم. هل سيرقص مع فتاة في مثل عمره وبمظهره معكر المزاج الذي غرس الاحترام والبرود؟ سيضطر إلى البقاء مع بيب والآخرين، يتنفس رائحة تبغ الآزتك، متحدثاً عن اللوز وعن الخوف من أن يجمد، محاولاً أن يهبط بتفكيره إلى مستوى هؤلاء الناس.

في النهاية قرر الذهاب إلى القرية. كان خائفاً من الشعور بالوحدة. بدلاً من قضاء بقية المساء بمفرده، يفضل محادثة الأشخاص البسطاء البطيئة والرتيبة، محادثة منعشة، كما يقول، لم تكن تجبره على التأمل، فيترك أفكاره في هدوء حيواني حلو.

بالقرب من سان خوسيه رأى العلم الإسباني يتطاير فوق سطح مكتب العمدة، ووصلت إلى أذنيه ضربات عصا الدف الحادة، تغريد الفلوت الريفي ونقر الصناجات.

كانت الحفلة الراقصة أمام الكنيسة. يُشكّل الشباب مجموعات، ويقفون بالقرب من الموسيقيين الذين يشغلون الكراسي المنخفضة. يضرب عازف الطبل -بآلته المستديرة المسنودة على ركبة واحدة-

العصا بشكلٍ إيقاعي، بينما ينفخ رفيقه في الفلوت الخشبي الطويل، المزخرف بنقوش خشنة بدائية قامت بها سكين. ينقر القسيس الصناجات، الضخمة مثل أصداف العم يتولرا التي يجمعها على الشاطئ.

تنظر الفتيات -اللواتي يمسكن بعضهن من الخصر أو يستند بعضهن على أكتاف الأخريات- بعداء عفيف إلى الشباب، الذين يتبخترون في وسط الساحة، وأيديهم على خصورهم، والقبعات العريضة مائلة للخلف للكشف عن تجعيدات شعورهم على جبهاتهم، رقبتهن ملفوفة بمنديل مطرز أو ربطة عنق من شرائط، وأحذيتهم الكتانية البيضاء الناصعة التي تكاد تكون مخفية بفتحة سراويلهم المخملية التي على شكل قدم الفيل.

على جانب من الساحة على أحد المنحدرات، أو على كراسي الحانة المجاورة؛ تجلس النساء المتزوجات والعجائز؛ نساء مصابات بفقر الدم وحزينات في شبابهن النسبي بسبب الإنجاب المفرط والإرهاق من حياتهن الريفية، وأعينهن غارقة في دائرة زرقاء تبدو كأنها تكشف عن اضطرابات داخلية، تحتفظن على صدورهن بسلاسل ذهبية منذ أن كن فتيات وتزين أكمامهن بأزرار ذهبية. تنتهد النساء المسنات -النحاسيات والمجعدات، اللواتي ترتدين ثيابًا داكنة- على وجه مثير للشفقة عندما ترين فرحة الشباب.

ذهب فبرر بعد التأمل في كل هذا التجمع فترة طويلة -والذي بالكاد ألقى عليه نظرة بغير انتباه- للوقوف بجانب بيب في حلقة من

الفلاحين العجائز. لقد أفسحوا المجال لسيد البرج في صمتٍ محترم، وبعد إطلاق بضع نفخات من الدخان من غلايينهم المحملة بالآرتك، استأنفوا محادثتهم البطيئة حول قسوة الشتاء القادم المحتملة ومصير حصاد اللوز المستقبلي.

استمر قرع الطبل، وعزف الفلوت، وقرقة الصناجات الضخمة، لكن لم يندفع أي زوج إلى وسط الساحة بدا أن الفتيان يتشاورون مع بعضهم بتردد، كأنهم جميعًا يخشون أن يكونوا الأوائل. بالإضافة إلى ذلك، فإن وجود السيد المايوركي غير المتوقع أربب الفتيات الخجولات.

شعر خايمي أنهم يلمسون كوعه. كان القسيس، الذي يتحدث بشكلٍ غامض في أذنه بينما يشير بإصبعه... «هذا هو برى الحداد، الشهير بالوغد». وأشار إلى شابٍّ قامته أقل من المتوسط، لكنه مغرور ومتفاخر في تصرفاته. يجتمع الفتيان حول البطل. يتحدث المغني إليه مبتسمًا، ويستمتع هو بجدية نبيلة، باصقًا من وقتٍ لآخر من زوايا فمه، ومعجبًا بنفسه للمسافة التي يُرسل إليها دفقة إفرازاته.

فجأة، قفز القسيس إلى منتصف الساحة ملوحًا بقبعته في الهواء... «لكن هل سيقضون المساء في الاستماع إلى الفلوت دون رقص؟»، ركض إلى مجموعة الفتيات وأمسك يد أكبرهن وسحبها. «أنتِ!» كان هذا كافيًا لدعوتها. كلما كانت ضربة اليد أكثر خشونة، بدا الأمر أكثر حبًا وامتنانًا.

ظل الشاب اللعوب أمام شريكته، فتاة متغطرسة وقيحة، لها يدان

خشتان وشعر زيتي ووجه أسود، وكانت قامتها في رأسها كلها تقريباً. احتج الصبي وهو يتصدى للموسيقين. لا شيء من لارجا؛ يريد أن يرقص لا كورتا. كانت (لارجا) و(كورتا) هما الرقصتين الوحيدتين في الجزيرة. لم يكن فبرر قادراً على التمييز بينهما: اختلاف بسيط في الإيقاع؛ لأن الموسيقى والرقص يبدوان دائماً متشابهين.

بدأت الفتاة -بإحدى ذراعيها المثنية على خصرها على شكل مقبض والأخرى متدلية بطول تنورتها المجوفة- في الدوران. يجب ألا تفعل أكثر من ذلك: كانت هذه رقصتها كلها. أخفضت عينيها، وثنت فمها، كما لو كان ضرورياً، مع لفطة من ازدراء عفيف، كأنها ترقص ضد إرادتها، وهكذا كانت تلف وتلف، راسمةً بحركاتها على الأرض أعداد من الثمانية كبيرة. كان الراقص هو الرجل. يستنسخ في هذه الرقصة التقليدية -التي ابتدعها بلا شك المستوطنون الأوائل للجزيرة، قراصنة فظون من العصر البطولي- التاريخ الأبدي للبشر، مطاردة وصيد الأنثى. كانت تدور ببرود وبلا مبالاة، مع غطرسة غامضة فظة، وهي تهرب من القفزات والالتواءات الرجولية، وتعرض ظهرها بملمح من الازدراء، وعمله المرهق يتمثل في وضع نفسه دائماً أمام عينيها، ووضع نفسه في طريقها، والظهور لملاقاتها حتى تراه وتعجب به. يقفز ويقفز الراقص دون أي قواعد، دون أي انضباط آخر غير إيقاع الموسيقى، ويثب على الأرض مرتداً بمرونة لا تعرف الكلل. أحياناً يفتح ذراعيه بإيماءة مسيطر عدوانية، وأحياناً يثنيهما على ظهره، ويرمي قدميه إلى الأعلى.

لقد كان أكثر من مجرد رقص، كان تمريناً رياضياً وهذياناً بهلوانياً

وحركة محمومة مثل رقصات الحرب في القبائل الإفريقية. لم تكن الأنثى تعرق أو يحمر وجهها: تواصل دورانها ببرود، دون أن تسرع في خطواتها، بينما شريكها -الذي يعاني من دوار السرعة- يلهث بوجهٍ محتقن، وينسحب مرتجفًا من التعب بضع دقائق. يمكن لكل فتاة أن ترقص مع عدة رجال دون أي جهد، مستسلمةً لهم. كان انتصارًا لعدم اكتراث أنثوي، والتي تبتسم أمام مباهاة الجنس الآخر المتعجرفة، وهي تعلم أنها ستراه في نهاية الأمر خاضعًا.

بدا أن خروج الزوجين الأولين شجع الآخرين. في لحظة، تغطت كل المساحة الخالية أمام الموسيقيين بتنانير ثقيلة، تحت صلابتها وتعددتها تتحرك أقدامهن الصغيرة، المرتدية نعالًا كتانية بيضاء أو أحذية صفراء. تتمايل أفواه البناتيل الواسعة من جانب إلى آخر مع الحركة السريعة للقفزات أو الركل النشط الذي يؤدي الأرض ويشير سحب الغبار. اختارت الأذرع الرجولية بمخالبها المُغازِلة بين الفتيات المجتمعات. «أنتِ!» ويتبع هذه الكلمة أحادية المقطع هزة الغزو، ودفعات تساوي صكًا مؤقتًا للملكية، كل التطرف في محابة الأجداد بشكلٍ فظ، في مغازلة موروثة من الأجداد البعيدين من العصور المظلمة التي كانت فيها العصا والحجر والمقاتلة أول إعلان عن الحب.

ظل بعض الفتيان الذين سبقهم آخرون أكثر جرأة في اختيار الأزواج ثابتين بالقرب من الحلقة، وهم يراقبون رفاقهم لخلافتهم. عندما يرون الراقص ذا الوجه المحتقن والعرقان من القفزات، يبذل جهوده لمواصلة التقدم، فيذهبون إليه ويسحبونه من ذراعه لإبعاده: «أتركها

لي!»، وبأخذون مكانه دون مزيد توضيح، وهم يقفزون ويلحقون
الأنثى بدفعها بوقاحة، دون أن يبدو أنها لاحظت تغيير الشريك، حيث
تواصل دورانها بنظرة خفيضة وإيماءة شموخ.

رأى خايمي مارجاليدا للمرة الأولى في تحولات الرقص، حيث
ظلت حتى ذلك الحين مختبئة بين رفيقاتها.

جميلة يا (زهرة اللوز)! وجدها فيرر أكثر جمالاً عند مقارنتها
بصديقاتها، السمروات والملفوحات بسبب الشمس والعمل. بشرتها
البيضاء لها نعومة الزهرة، عيناها الرطبتان واللامعتان كحيوانٍ صغيرٍ
حلو، جسدها النحيف وحتى نعومة يديها، أبعدوها، كأنها من جنسٍ
مختلف، عن هؤلاء الرفيقات السوداوات الفاتنات لشبابهن، النشيطات
والجماليات جدًّا، لكن بدون منحوتات بفأسٍ.

فكر -وهو يتأملها- أن تلك الفتاة -في بيئةٍ أخرى- يمكن أن تكون
مخلوقاً رائعاً. يصدق بإدراك شيء من هذا. تكهن في (زهرة اللوز) رقة
طباع لا نهائية لم تكن هي نفسها على دراية بها. من المؤسف أنها وُلدت
في هذه الجزيرة التي لن تتركها أبداً! وسيكون جمالها لواحدٍ من هؤلاء
البرابرة المعجبين بها بنظرة مثابرة قلقة! ربما بالنسبة للحداد، الوغد
البغيض الذي يبدو كأنه يحميمهم جميعاً بعينيه الداكنتين!

عندما تتزوج، سترزع الأرض مثل الأخريات، وسيذبل بياضها
النضر ويتحول إلى اللون الأصفر؛ ستصبح يداها سوداوين ومتقشرتين؛
سينتهي بها الأمر أن تكون مثل والدتها وجميع الفلاحات العجائز، أنثى
ذات هيكل عظمي، ملتوية ومعقدة، مثل جذع شجرة زيتون. حزن فيرر

من هذه الأفكار كأنه يواجه ظلمًا كبيرًا. من أين حصل ييب البسيط -الذي كان بجانبه- على هذا البرعم؟ من أي مزيج عرقي غامض وُلدت مارجاليدا في بيت المايوركي؟ وهل سيدبل هذا الإزهار الغامض والمعطر لجذع الفلاح مثل البراعم الفظة الأخرى التي تنمو بجانبها؟

شيء غير عادي يصرف فِبرر عن هذه الأفكار. استمر الفلوت والطبلة والصناجات في العزف، ويقفز الراقصون، وتدور الفتيات، لكن في أعين الجميع تلمع نظرة إنذار ذكي؛ تعبيرًا عن التضامن الدفاعي. توقف كبار السن عن حديثهم، متطلعين إلى الجزء الذي تشغله النساء. «ما هذا؟ ما هذا؟» يركض القسيس بين الأزواج، متحدثًا في أذن الراقصين. غادروا الحلقة وأيديهم على أحزمتهم، واختفوا بضع ثوانٍ، وعادوا على الفور ليحتلوا أماكنهم، فيما استمرت الفتيات في الدوران. ابتسم ييب قليلًا عندما خمن ما حدث، وتحدث في أذن السيد. «لا شيء: في كل الحفلات الراقصة. كان هناك خطر، ووضع الفتيان ترتيباتهم في أمان».

كانت هذه الترتيبات هي البنادق والسكاكين التي يحملها الأولاد كرمز للمواطنة. خلال بضع لحظات، رأى فِبرر أكثر الأسلحة روعة وضخامة تعكس الضوء، مخبأةً بشكلٍ مذهل في تلك الأجسام الهزيلة والنحيلة. طلبتها النساء المسنات بأيديهن العظمية، وهن يتشوقن لتقاسم المخاطر، ويلمع في أعينهن عنف البطولة الشرسة. أزمنة الكفر الملعونة هي الأزمنة الحاضرة، التي ينزعج فيها الناس وتنتهك العادات القديمة! «هنا! هنا!»، واستولين على الأدوات القاتلة، وأخفينها تحت

دائرة من طبقات لا حصر لها من جونلاتهن وتنانيرهن التحتية. استلقت الأمهات الشابات في مقاعدهن، وفتحن زاوية لأرجلهن الشخينة، كأنهن يعطين المحارب المختبئ مساحة أكبر. تنظر النساء إلى بعضهن بحزم مولع بالقتال. «دع تلك النفوس السيئة تأتي! سيُتركون أشلاء قبل أن أن يتحركوا من أماكنهم».

رأى فِبرر شيئاً يلمع على الطريق المؤدي إلى الكنيسة. كان أحزمة وبنادق، وعليها أغطية عنق بيضاء لقبعات ثلاثية الزوايا تخص زوجين من الحرس المدني.

اقترب جنديا النظام ببطء، وبشيءٍ من الفتور، مقتنعين بلا شك أنهما قد حُمنا من بعيد وأنهما وصلا بعد فوات الأوان. كان خايمي الوحيد الذي يراقبهما، بينما يتظاهر الآخرون بعدم رؤيتهما، بخفض رؤوسهم أو وضع أعينهم في اتجاه مختلف. يعزف الموسيقيون بقوة أكبر، بينما ينسحب الأزواج. وتخلت الفتيات عن الشباب للانخراط مع مجموعة النساء.

- عمتم مساءً يا سادة!

أجابت الطبلبة على تحية الحراس هذه بالسكوت وترك الفلوت وشأنه، الذي لا يزال يرنم بعض النوتات، والتي تبدو كأنها تجيب على التحية بشكلٍ مثير للسخرية.

كان هناك صمت طويل. أجاب بعضهم بـ«عمتم!» بصوتٍ منخفض على تحية الجنديين، لكن الجميع تظاهر بعدم رؤيتهما، ونظروا في مكانٍ آخر، كأن لم يكن للحراس حضور حقيقي.

بدا الصمت المؤلم كأنه يزعج الجنديين، تابع الأكبر سنًا:

- حسنًا، واصلوا حضراتكم، بالنسبة لنا لا تتوقف المتعة.

أشار إلى الموسيقيين -غير القادرين على عدم طاعة السلطة بأي شكلٍ من الأشكال- بإيماءة، وبدأوا في عزف موسيقى أكثر حيوية وبهجة شيطانية من ذي قبل. لكن كأنهم يعزفون لميت! ظل الجميع بلا حراك ومستائين، يفكرون في كيفية انتهاء هذا الحضور غير المتوقع.

بدأ الجنديان -مصحوبين بنقر الطبل، وشيطة الفلوت الموسيقية، وضحك الصناجات القاسي والحاد- بالانتقال بين مجموعات الفتيان وفحصهم.

قال الأكبر سنًا صاحب السلطة الأبوية:

- أنت أيها الشجاع، ارفع ذراعيك!

وكان الشخص المقصود يُطيع بوداعة، دون أدنى محاولة للمقاومة، يكاد يكون فخورًا بهذا التمييز. يعرف واجباته. وُلد الإبيزي ليعمل، ويعيش... ويُفتش. المضايقات النبيلة لكونك شجاعًا وأن لديهم بعض الخوف منك! وكان كل فتى -وهو يرى في التفتيش شهادة على جدارته- يرفع ذراعيه ويُظهر بطنه، راضيًا عن لمس الجنديين، بينما ينظر بفخر تجاه مجموعة الفتيات.

انتبه فيرر أن الجنديين تظاهرا بعدم ملاحظة وجود الحداد. بدا أنهما لم يتعرفا عليه؛ أدارا ظهرهما له. لقد مرا بجانبه عدة مرات، وهما يفتشان بدقة الذين بجانبه، ويقدمان عرضًا واضحًا لعدم ملاحظة الوغد.

تحدث بيب في أذن السيد بصوتٍ خافتٍ، وبلهجة إعجاب: «هذان الشخصان ذوا القبعة الثلاثية يعرفان أكثر من الشيطان. عدم تفتيش الوغد هو إهانة له. يظهران عدم الخوف منه؛ ويميزونه عن البقية، ويعفونه من العملية التي خاضها الجميع». كلما وجدا الوغد مع شباب آخر، يقومان بتفتيشهم دون لمسه. وبهذه الطريقة ينتهى الأمر بالفتيان -خوفًا من فقدان أسلحتهم- إلى تجنب التعامل مع البطل والهروب منه كما يهربون من جذب الخطر.

استمر التفتيش على صوت الموسيقى. يتبع القسيس الجنديين في حركتهما، منتصبًا دائمًا أمام الحرس العجوز ويداه على حزامه، وهو ينظر إليه بإصرار بتعبيرٍ بين التهديد والتوسل. يبدو أن الحارس لا يراه، يبحث عن الآخرين، لكنه سرعان ما اصطدم بالصبي -مرةً أخرى- الذي يسد طريقه. أخيرًا ظهرت ابتسامة الرجل ذي القبعة الثلاثية تحت شاربهِ الصلب ونادى على رفيقه.

قال مشيرًا إلى الصبي:

- أنت، فتش هذا الوغد. عليك أن تكون حذرًا.

مد القسيس -معتذرًا من العدو بنبرة ساخرة- ذراعيه قدر استطاعته حتى لا ينسى أحد أهميته. كان الحارس قد ابتعد فعلاً، بعد أن دغدغه في سرته، بينما لا يزال يحافظ على موقفه كرجل مخيف. ثم ركض نحو مجموعة الفتيات، ليتباهى بالخطر الذي واجهه للتو. لحسن الحظ، كانت سكين الجد في المنزل، واحتفظ به والده في مكان لا يعرفه هو. «لو أحضرته، سيأخذانه مني».

سرعان ما سئم الحارسان من هذا التفتيش غير المجدي. حذق الحارس الأكبر سنًا في مجموعة النساء بشكلٍ خبيث، مثل كلب يشم. لا بد أن يكون في الجوار مكان الاختباء. لكن أي شخص يجعل النساء المسنات المهيبات النحيلات ذوات البشرة السوداء يتقلن من مقاعدهن! تحدث أعين هؤلاء السيدات المعادية بوضوحٍ شديد. كان لا بد من جرهن بالقوة، وكن سيدات!

- أيها السادة، عتمم مساءً!

وقد حملا بنادقهما على أكتافهما، رافضين طلب بعض الفتيان الكريم الذين هرعوا إلى الحانة لإحضار بعض الكؤوس. «كانوا يعرضون عليهما بلا حقد ولا خوف؛ في النهاية كانوا جميعًا واحدًا، ويعيشون في تقشف الجزيرة». لكن أصر الحارسان على الرفض. «ممتنان لفعلكم؛ القانون يحظره». وغادرا، ربما لينصبوا كمينًا على مسافة قريبة، ويكرران التفتيش عند هبوط الليل، عندما يتفرق الناس عائدين إلى بيوتهم الريفية.

مع ابتعاد هذا الخطر، توقفت الآلات عن العزف. رأى فيرر أن المغني استولى على الطبلبة الصغيرة، وجلس في المساحة الخالية التي شغلها الراقصون سابقًا. اجتمع الناس في نصف دائرة أمامه. تتقدم المسنات المهيبات بكراسيهن الصغيرة التي كانت من الحلفاء ليسمعن أفضل. سيغني إحدى القصائد الرومانسية التي أطلقها من رأسه؛ سرد مقتضب متداول في البلد بصياح مرتعش، كركرة من الألم طال أمدها ما دام المغني لديه هواء في رئتيه.

يضرب بالمقرعة جلد الطبله ببطء ليعطي جاذبية حزينة لغناؤه
الرتيب الناعس الحزين. «كيف تريدونني أن أغني، يا أصدقائي، إذا كان
قلبي محطماً؟!»، من ثم كركرة حادة، أنين لا نهاية له لطائر يحتضر،
وسط الصمت العام. ينظر الجميع إلى المغني، ولم يروا فيه الفتى
الكسول المريض التافه لعدم جدواه في العمل. كان في مخيلتهم البدائية
جميعاً يخفق شيءٌ محير يدفعهم إلى احترام كلمات وأنين الشاب
الضعيف. لقد كان شيئاً غير عادي، يبدو أنه يعبر بضربات أجنحة قاسية
فوق أرواحهم الفطرية.

كان صوت المغني يتباكى، متحدثاً عن امرأة غير مبالية لأنينه؛
وعند مقارنة بياضها بزهرة اللوز، وجَّه الجميع أعينهم إلى مارجاليدا،
التي بقيت صامدة دون خجل عذري، معتادة على هذا الشاء الشعري
الأخرق، والذي كان تمهيداً لكل مغازلة.

واصل المغني نحيبه واحمرار وجهه بجهد نقيقه المؤلم الذي يُنهِي
المقاطع الشعرية. يلهث صدره الضيق مع الجهد؛ كانت وردتان لهما
اللون الأرجواني المرضي تلوانان وجنتيه؛ وتمدد رقبتة الضعيفة، وتبرز
فيها أوردها النافرة باللون الأزرق. وفقاً للعادة، كان يخفي جزءاً من
وجهه في منديل يمسكه بذراعه التي يسند بها الطبله. يشعر فيرر بالحزن
عند سماعه هذا الصوت الحزين. ويعتقد أنه سوف يمزق صدره،
وينفجر حلقة؛ لكنَّ المستمعين -الذين اعتادوا على الأغنية العظيمة،
المرهقة كالرقص- لم ينتبهوا لتعب المغني ولم يسأموا من قصته التي
لا تنتهي.

انفصلت مجموعة من الفتيان عن الحلقة التي تحيط بالشاعر،
بدا أنهم يتشاورون، ثم اقتربوا حيث يتواجد الرجال الجادون. جاؤوا
يبحثون عن السيد بيب من بيت المايوركي؛ للتحدث معه حول الأمور
المهمة. لقد أداروا ظهورهم بازدراء لصديقهم المغني البائس الذي لم
يكن جيداً في أي شيء سوى إهداء القصائد الغزلية للفتيات.

واجه الأكثر جرأة في المجموعة بيب. أرادوا التحدث عن الاحتفال
مع مارجاليدا. ذكروا الأب بوعده بالسماح بالتودد للفتاة.

نظر الفلاح إلى المجموعة بدقة، كأنه يعدهم.

- كم عددكم؟

ابتسم من يتكلم. كانوا أكثر بكثير. لقد كانوا يمثلون فتياناً آخرين
بقوا في الحلقة يستمعون إلى الأغنية. كانوا من مناطق مختلفة. قد يأتي
شباب حتى من سان خوان، على الطرف الآخر من الجزيرة، للتودد إلى
مارجاليدا.

احمر وجه بيب، على الرغم من إيماءة الوالد العنيد الزائفة، وضغط
على شفتيه برضى خفي ماكر، وهو يلقي نظرة جانبية على أصدقائه
الجالسين بجانبه. يا له من شرف لبيت المايوركي! لم تُعرف مغازلة
مثل هذه من قبل. لم يرَ رفيقه أبداً مثل هذا التودد لبناتهم.

سأل:

- هل ستكونون عشرين؟

تأخر الفتيان في الرد، مشغولين بالحسابات الذهنية، وهم يهتممون

بأسماء أصدقائهم. «عشرين؟ أكثر، أكثر من ذلك بكثير». يمكنه احتساب حوالي ثلاثين.

زاد الفلاح سخطه الزائف. ثلاثون! هل كانوا يعتقدون أنه لا يحتاج إلى راحة وأنه سيقى مستيقظاً طوال الليل ليشهد توددهم؟

ثم هدأ منغمساً في حسابات عقلية معقدة، بينما يردد بتمعن وبتعبير مذهول: «ثلاثون! ثلاثون!».

كان قراره متسلطاً. لن يستطع تخصيص أكثر من ساعة ونصف في الليل للتودد. ولكونهم ثلاثين، سيكون لكل شخص ثلاث دقائق. ثلاث دقائق تُحسب بساعة اليد، ليتحدث كل واحد مع مارجاليدا، وليس أكثر بدقيقة. ليالي الخطوبة الخميس والسبت. عندما كان يتودد إلى زوجته، كان هناك عدد أقل من المتقدمين، ومع ذلك فإن حماه -وهو رجل لم يره أحد من قبل يضحك- لم يمنحه وقتاً أطول.. تدقيق شديد، أليس كذلك؟ لا تنافسات ومعارك. أول شخص لن يمثل لما هو متفق عليه، سيشتهر جداً لجعله يعبر الباب وهو يُضرب بالعصا؛ وإذا كان من الضروري أخذ البندقية، فسيأخذها.

يزيد بيب الطيب -راضياً عن قدرته على التظاهر بوحشية لا حدود لها على حساب احترام المتقدمين لابنته- من تبجحه، وهو يتحدث عن قتل أي شخص لا يمثل لما تم الاتفاق عليه، بينما يستمع الفتيان إليه بنظرة متواضعة وتكشيرة سخرية على أفواههم.

انتهى الاتفاق. الخميس المقبل سيكون أول سهرة في بيت المايوركي. نظر فيرر -الذي يستمع إلى المحادثة- إلى الوغد الذي

الواقف بعيداً، كأن عظمته لم تسمح له بالنزول إلى المساومات البائسة لهذا الترتيب.

وعندما ابتعد الفتیان للانضمام إلى الحلقة، ناقشوا بصوتٍ منخفض كيفية تقسيم الأدوار، وتوقف المغني عن شعره الحزين مطلقاً القرقرة الأخيرة بصوتٍ متألم، بدا أنه يمزق حلقة المسكين نهائياً. مسح عرقه، ثم وضع يديه على صدره؛ كان وجهه أحمر بنفسجياً؛ لكن الناس قد أداروا له ظهورهم، وقد نسوه قبل الآن.

أحاطت الفتيات -بتضامن جنسي- مارجاليدا بصفعات عنيفة، ودفعوها وهن يطلبن منها الغناء للرد على ما قاله المغني عن زيف النساء.

أجابت (زهرة اللوز) وهي تتحرك بين أذرع رفيقاتها:

- لا أريد! لا أريد!

وكانت مقاومتها صادقة، لدرجة أن العجائز تدخلن في النهاية ودافعن عنها. «اتركوا الفتاة! أنت مارجاليدا للاستمتاع وليس للترفيه عن الآخرين. هل كنتن تعتقدن أنها كانت محاولة سهلة أن يُطلقا من رأسهما فجأة ردّاً في أبياتٍ شعرية؟!».

استعاد عازف الطبل آلة من يدي المغني، وضرب بالمقرعتين جلد الطبل المستدير. وبدا أن الفلوت يتغرغر سلالماً سريعة، قبل أن يبدأ اللحن ذا الإيقاع الإفريقي الهادئ. ليستمع الرقص!

بدأت الشمس في الغروب. كان النسيم القادم من البحر ينعش

الحقول. كان الناس -الذين بدا أنهم نيام في ثقل الجو المتقد- يتحركون الآن بحركة نشيطة، كأن البرودة تحرصهم.

يصرخ الفتيان بشكلٍ متناقض في الوقت نفسه، وبعنفٍ شديد، متوجهين إلى الموسيقين. طلب بعضهم لا لارجا، وبعضهم الآخر لا كورتا، وكانوا يشعرون جميعًا بالقوة والاستبداد في رغبتهم. عادت الحداث المميّنة المخبأة تحت تنانير النساء التحتية إلى أحزمتهم، ومع اتصالهم بهؤلاء الرفاق، شعر كل واحدٍ بحياة جديدة، وتزايدت غطرستهم.

بدأ الموسيقيون في عزف ما بدا أفضل بالنسبة لهم، وتراجع الحشد الفضولي، ومرة أخرى في وسط الميدان عادت الأحذية القماشية البيضاء تقفز وترتج -صلبة- بطانات التنانير الزرقاء والخضراء، بينما في الأعلى تتموج أطراف المناديل على الضفائر السميقة، أو تتحرك مثل شرابات حمراء الزهور التي يرتديها الفتيان في آذانهم.

ظل خايمي ينظر إلى الحداد بجاذبية لا تقاوم من الكراهية. بقي الوغد صامتًا كأنه مشتب بين معجبيه، الذين يشكلون حلقة حوله. يبدو كأنه لا يرى الآخرين، وعيناه مثبتتان على مارجاليدا بتعبيرٍ قاسٍ، كأنه يحاول هزيمتها تحت هذه النظرة التي تغرس الخوف في الرجال. وعندما اقترب القسيس بحماسة صبيٍّ من الوغد، تلطف الأخير ليتسم، وهو يرى فيه نسيبًا مقربًا.

بدا أن الفتيان الذين تحدثوا عن الخطوبة مع السيد بيب خائفين من وجود الحداد. تخرج الفتيات للرقص، يسحبهن الشباب، وظلت

مارجاليدا بجانب والدتها، يتأملها الجميع بشغف، ولكن دون أن يجرؤ أحد على المضي قدمًا لدعوتها.

شعر المايوركي أن الهوايات الصاخبة لشبابه الأول ولدت من جديد. كان يكره الوغد؛ يشعر بإهانة غامضة ألحقها به شخصيًا عندما رأى الرعب الذي يثبه في الجميع. ألن يتواجد من يضرب هذا الشبح الذي جاء من السجن؟

تقدم فتى نحو مارجاليدا، ممسكًا يدها. كان المغني متعرقًا ولا يزال يرتجف من التعب الذي أصابه مؤخرًا. انتصب كأن ضعفه قوة جديدة. بدأت (زهرة اللوز) البيضاء بالدوران على قدميها الصغيرتين، وكان يقفز ويقفز، يلاحقها في حرركاتها.

الفتى المسكين! شعر خايمي بأثر من الضيق، وخمن جهود تلك الإرادة المسكينة للسيطرة على تعب جسده. يتنفس بصعوبة، بعد بضع دقائق ارتجفت ساقاه، لكن على الرغم من ذلك كان يتسم، راضيًا عن انتصاره، ويتأمل مارجاليدا بحب، وإذا حول نظره كان لينظر بغطرسة إلى أصدقائه، الذين يجيئون بإيماءات حسرة.

عندما دار، كان على وشك السقوط؛ وعندما قام بقفزة كبيرة، التوت ركبته. كان الجميع يتوقع من لحظة إلى أخرى رؤيته ممددًا على الأرض؛ لكنه استمر في الرقص، متكهنين بجهد إرادته، وبعزمه على الهلاك بدلًا من الاعتراف بضعفه.

كانت عيناه تنغلقان الآن من الدوار، عندما شعر بلمسة على كتفه -كالعادة- لكي يتراجع الزوجان.

كان الحداد، الذي بدأ الرقص لأول مرة في المساء. قُوبلت قفزاته بحفيف من التصفيق. لقد كان الجميع معجبًا به، مع هذا الجبن الجماعي لجمهور خائف.

يبالغ الوغد -وهو يرى التصفيق- في الحركات والالتواءات، ملاحقة شريكته، وأبعادها عن طريقه، وإحاطتها بشبكة معقدة من حركاته، بينما تدور مارجاليدا وتدور منخفضة العينين، متجنبة لقاء عينيها بعيني الشجاع المخيف.

في بعض اللحظات، كان الحداد -لإظهار قوته- يقفز إلى ارتفاع كبير، مع إلقاء نصفه العلوي إلى الخلف ويده خلف ظهره، كأن الأرض مرنة وساقاه كانتا زنبركًا فولاذيًا. هذه القفزات جعلت خايمي يفكر -بشعور من الاشمئزاز- في حيل السجن أو مبارزات الأوغاد بالسكين. كان الوقت يمر، وبدا أن ذلك الرجل لم يتعب. انسحب بعض الأزواج، واستُبدل الراقص عدة مرات في أزواجٍ أخرى، وكان الحداد يواصل رقصه العنيف، الذي كان دائمًا كثيبًا وازدرائيًا، كأنه غير مبالي بالإرهاق.

اعترف خايمي ببعض الحسد بقوة الحداد المخيف. يا له من حيوان!

وفجأة، رأى كيف يبحث عن شيءٍ ما في حزامه، ويُحرك إحدى يديه نحو الأرض، دون التوقف في حركاته وقفزاته. انتشرت سحابة من الدخان فوق الأرض، وبين خصلات شعره البيضاء ظهرت ومضتان سريعتان، شاحبتان ومتوردتان بفعل ضوء الشمس. تبع ذلك صوت رعد.

تجمهرت النساء معاً وهن يصرخن في ذعرٍ لحظي؛ ظل الرجال مترددين؛ لكن في الحال استجمع الجميع أنفسهم، وانطلقوا في صيحات الاستحسان والتصفيق.

جيد جداً! أطلق الحداد النار من مسدسه على أقدام شريكته: الشجاعة الفائقة للرجال الجسورين؛ أعظم تكريم يمكن أن تحصل عليه فتاة في الجزيرة.

واستمرت مارجاليدا في الرقص، فهي في النهاية امرأة، دون أن تتأثر بشدة - مثل إبيزية جيدة - بانفجار البارود. كانت تركز على الحداد نظرة امتنان لشجاعته، مما جعله يتحدى مطاردة الحرس المدني، ربما كانوا في مكانٍ قريب؛ ثم تنظر إلى صديقاتها المرتجفات من الحسد بسبب هذا التكريم.

حتى يبب نفسه - الذي أثار استياء خايمي بشدة - كان فخوراً بالطلقتين اللتين أطلقتا على قدمي ابنته.

كان فيرر الشخص الوحيد الذي يتحمس من هذا العمل البطولي للوغد.

«السجين الملعون!»، من المؤكد أنه لم يعرف سبب غضبه، لكنه كان شيئاً لا يمكن تجنبه.. سيضرب غريب الأطوار هذا.



وصل الشتاء. ضرب البحر بشدة -في بعض الأيام- سلسلة الجزر ومرتفعات الصخور التي تُكون بين إبيزا وفورمينترا سورًا صخريًا مفتوحًا بسبب المضائق والقنوات. في هذه الممرات البحرية، كانت المياه -ذات اللون الأزرق الغامق الذي يعكس القيعان الرملية- تندفع مُصَفَّرَةً، وتتحطم على السواحل والصخور المتفرقة التي تختفي وتبرز في الرغوة.

بين جزيرة إسبالمادور وجزيرة أوركادوس، حيث يُفتح الممر للسفن الكبيرة، التي تنزلق مضطرة إلى أن تصارع اندفاع التيارات المكتوم وضربات المياه الدرامية الصاخبة. كانت قوارب إبيزا وفورمينترا تبسط نسيج أشعتها للإبحار تحت ستر الجزر الصغيرة. تسمح الانسيابية في هذه المتاهة من الأراضي البحرية في أرخبيل بيتيوساس^(٥٧) للبحارة بالانتقال من جزيرة إلى أخرى على طول طرق مختلفة، اعتمادًا على اتجاه الرياح. بينما يهدر البحر على جانب من الأرخبيل، وعلى الجانب الآخر يظل ساكنًا وعميقًا، مع ثقل زيتي. تتراكم الأمواج في دوامات غاضبة في الممرات المائية، لكن يكفي ضربة من العارضة وانحراف

(٥٧) أرخبيل بيتيوساس: هو مجموعة جزر بيتيوساس التي تقع في البحر المتوسط ويتكون من جزيرتين، إبيزا وفورمينترا، والعديد من الجزر الصغيرة.. مثل إسبالمادور، إسبارديل... إلخ.

المقدمة لتظل تحت حماية جزيرة، ويتأرجح القارب في مياه هادئة فردوسية صافية، لها عمق مرئي به نباتات غريبة، وتتحرك فيه الأسماك بين شرر فضي وبريق قرمزيّ.

كانت سماء الفجر غائمة معظم الأيام، وكان البحر رماديًا. تبدو بدرا أكثر ضخامةً وأكثر مهابةً، حيث ترتفع مستدقتها المخروطية في هذا الجو العاصف. يسقط البحر في شلالات داخل تجاويف كهوفها، التي كانت فعلاً طلاقات مدافع عملاقة. تقفز الماعز البرية -على ارتفاعاتها التي يصعب الوصول إليها- من هضبة إلى أخرى، وفقط عندما يتدحرج الرعد في اللون الأزرق القاتم والصاعقة مثل الثعابين النارية التي تنزل بزاوية سريعة للشرب في حوض البحر الهائل، تهرب الوحوش الخجولة مع ثغاء من الرعب للاحتماء في التجاويف التي تغطيها فروع شجرة الأبهل.

يذهب فيرر للصيد مع العم يتولوا أيامًا كثيرة عندما يكون الطقس سيئًا. يعرف الرجل العجوز بحره جيدًا. في بعض الصباحات عندما يظل خايمي في الفراش، يشاهد الضوء المصفّر والمنتشر ليوم عاصفٍ يتسرب من خلال الشقوق، يضطر أن يستيقظ على عجل عند سماع صوت رفيقه، الذس يغني القداس مصحوبًا بالكلمات اللاتينية مع ضربات حجارة على البرج. «ها! كان اليوم جيدًا للصيد. كانوا سيصطادون كثيرًا». وعندما يبدو فيرر قلقًا وهو يتأمل البحر المهدّد، يوضح الرجل العجوز أنهما سيجدان مياها هادئة في ملجأ الجانب المقابل من بدرا.

في أوقاتٍ أخرى، في صباحات رائعة، ينتظر فيرر نداء العجوز بلا فائدة. تمر الساعات، وبعد ضوء الفجر الوردى، تُعلم خطوط ضوء الشمس الذهبية في الشقوق. لكن الوقت يمضي هباءً: لم يُنشد القداس ولا تُرشق الحجارة. يظل العم ينتولرا خفيًا. لاحقًا، عندما يفتح نافذته، كان يتأمل سماء صافية ومضيئة، مع روعة شمس الشتاء الناعمة، لكن البحر كان مضطربًا، يموج بدون رغبة وبدون ضوضاء عند دفعات رياح خطيرة.

تغطي الأمطار الجزيرة بغطاء رمادي، فبالكاد كانت الجبال المجاورة تتميز بخطوط غير حاسمة. على القمم، تبكي أشجار الصنوبر عبر جميع خيوط أوراقها، وكانت الطبقة السميكة من الدُّبال مبللة مثل الإسفنج، وتطرد السائل تحت آثار الأقدام. تتراكم الأمطار -على المرتفعات الجرداء للساحل وللصخور الحادة- مُشكِّلةً تيارات مضطربة تقفز من صخرة إلى صخرة.

ترتعد أشجار التين العريضة مثل المظلات الضخمة المكسورة، مما ترك المياه في النطاق الواسع المحمي بقبتها. وترتعد أشجار اللوز -العارية من الأوراق الذابلة- مثل الهياكل العظمية السوداء. كانت الوديان العميقة مليئة بالمياه الهادرة التي تدور جدياء نحو البحر. وتتحول الطرق المرصوفة بالحصى الأزرق -بين منحدرات عالية من الحجر الجاف- إلى شلالات. كانت الجزيرة العطشى والمغبرة لجزء كبير من السنة، تبدو أنها تصد غزارة أمطار الشتاء هذه عبر جميع مساهمها، مثلما يصد المريض الدواء الفعال والبطيء الذي يصعب امتصاصه.

في أيام هطول الأمطار هذه، يبقى فيرر محبوسًا في برجه. كان من المستحيل الذهاب إلى البحر كما كان من المستحيل أيضًا الخروج بالبنديقية عبر حقول الجزيرة. كانت البيوت الريفية مغلقة، ودلاءها البيضاء ملطخة بسيول الأمطار، ولم تعد هناك حياة أكثر من خيط الدخان الأزرق المتسرب من فتحات المداخن.

مُجبرًا على الخمول، يُعيد سيد برج القراصنة قراءة بعض الكتب القليلة التي حصل عليها في رحلاته إلى المدينة، أو كان يدخن مستغرقًا في أفكاره، متذكرًا ذلك الماضي الذي أراد الفرار منه.. ماذا سيحدث في مايووركا؟ ماذا سيقول أصدقاؤه؟

انغمس في هذا الجمود القسري، بينما ينقصه إلهاء التمارين البدنية متذكرًا حياته السابقة، في كل مرة أكثر بُعدًا وغموضًا في ذاكرته. يعتقد أنها حياة شخص آخر؛ شيء كان يشاهده ويعرفه بالضبط، ولكنه ينتمي إلى تاريخ حياة شخص غريب. في الواقع كان خايمي فيرر ذلك الذي جاب أوربًا، ولديه ساعات من الفخر والانتصار هو الشخص نفسه الذي يسكن الآن برجًا بجانب البحر، ريفي، ملتجٍ وشبه وحشي، يرتدي نعلين من الكتان وقبعة فلاحين، أكثر اعتيادًا على ضوء الأمواج وصراخ النوارس أكثر من معاملة الرجال!

قبل أسابيع تلقى رسالة ثانية من صديقه توني كلايس المهرب. كتبها أيضًا في مقهى بورن: أربعة أسطر كُتبت على عجل لإحياء ذاكرته الطيبة. لم ينسه ذلك الصديق اللفظ والطيب؛ حتى أنه لم يبدو عليه مُهانًا؛ لأنه لم يتلقَ ردًا على رسالته السابقة. كان يتحدث عن القبطان

بابلو. غاضب دائماً من فيرر، لكنه يتحرك بذكاء لحل شؤونه. يؤمن المهرب ببايس. لقد كان أذكى شخص في التشويتا وكان كريماً أكثر من أي أحدٍ منهم. مما لا شك فيه أنه سيعيد بقايا ثروة خايمي إلى الحياة، وسيتمكن خايمي من قضاء حياته في مايوركا هادئاً وسعيداً. في وقتٍ لاحق سيتلقى أخباراً من القبطان. لم يرغب بايس في الكلام، حتى يتم حل كل شيء.

هز فيرر كتفيه عندما سمع عن هذه الآمال: «تباً! انتهى كل شيء»، ولكن في أيام الشتاء الحزينة انقلب إذعانه ضد حياة الرخوي الحبس في قوقعته الحجرية. هل سيعيش هكذا إلى الأبد؟ ألم يكن من حماقة أن يحبس نفسه في هذه الزاوية، ولا يزال لديه الشباب والحماس للقتال في العالم؟

أجل؛ كانت حماقة. كانت الجزيرة جميلة للغاية وسكنها الرومانسية خلال الأشهر الأولى، وعندما تضيء الشمس، تصبح الأشجار خضراء وكانت عادات الجزيرة تُمارس على روحه سحر بدعة غريبة. ولكن جاء الطقس السيئ، وكان الشعور بالوحدة لا يطاق، وبدأت له حياة الفلاحين بكل فظاظة مشاعرهما الهمجية. هؤلاء الفلاحون الذين يرتدون القطيفة الزرقاء، بأحزمتهم وربطات أعناقهم الملونة وأزهارهم خلف آذانهم، بدوا له في البداية فخاراً أصلياً صُنع فقط ليستخدم كزينة للحقول، ومغنيين في أوبريت رعوي محبط وعذب؛ لكنه الآن يعرفهم بشكل أفضل، كانوا رجالاً مثل البقية، ورجالاً بربريين، بالكاد حقق احتكاك الحضارة فيهم صقلاً طفيفاً، مع الحفاظ على كل الزوايا الحادة لفظاظة

أجدادهم. نظروا إليه من بعيد، لفترة قصيرة، أغواهم سحر الحداثة؛ لكنه تغلغل في عاداتهم، وكان تقريباً واحداً منهم، وكانت هذه الحياة الأدنى تثقل كاهله مثل السقوط في العبودية، حيث يصطدم في كل لحظة بأفكار وانحيازات ماضيه.

عليه الابتعاد عن هذه البيئة. لكن إلى أين يذهب؟ كيف يهرب؟ كان فقيراً. يتألف رأس ماله كاملاً من بضع دزينات من الدورو التي حملها من هروبه من مايوركا، وهو مبلغ لا يزال يحتفظ به بفضل بيب، الذي كان عنيداً في رفضه قبول أي مكافأة. هناك عليه أن يبقى مُمسماً في برجه كما لو كان صليباً، لا يتوقع شيئاً، لا يريد شيئاً، وهو يسعى إلى قمع أفكاره عن سعادة مُنبئة تشبه تلك الموجودة في الأبهل والأثل التي تنمو بين صخور الرعن، أو في البطلينوس الذي يتشبث إلى الأبد بالصخور المغمورة.

بعد تفكير طويل، كان راضياً عن مصيره. لن يفكر، ولن يتمنى. بالإضافة إلى ذلك، فإن الأمل -الذي لا يتركنا أبداً- جعله يتوقع الاحتمال المربك لشيء غير عادي كان سيظهر في الوقت المناسب لإخراجه من مثل هذا الموقف. لكن بينما كان هذا قادمًا، كم أحرزته الوحدة!

كان بيب وعائلته هم عائلته الوحيدة؛ لكن دون أن يدركوا ذلك، ربما طاعةً لغريزة مشوشة، كانوا يبتعدون عنه أكثر فأكثر. انسحب خايمي إلى عزلته، وهم لم يتذكروا شيئاً عن الرجل.

منذ وقتٍ طويل لم تظهر مارجاليدا في البرج. يبدو أنها تتفادى

أي ذريعة لهذه الرحلة، بل وتتجنب اللقاء مع فيبر. كانت أخرى: قد تقول إنها استيقظت على حياة جديد. تحولت الابتسامة البريئة والواثقة لبلوغها إلى تعبيرٍ متحفّظٍ، مثل امرأة تعرف مخاطر الطريق وتمشي بخطوة بطيئة وحكيمة.

منذ موضوع الخطبة، والشباب يأتون لطلبها مرتين في الأسبوع وفقاً للاحتفال التقليدي، ويبدو أنها على دراية بالمخاطر الكبيرة وغير المتوقعة التي لم تشك فيها من قبل، وظلت بجانب والدتها، متجنبه كل فرصة لرؤيتها وحدها مع رجل، فيتورد خذاها خجلاً بمجرد أن تلتقي بعينها أعين ذكرية.

لم تكن هذه المغازلة شيئاً غير عادي في عادات الجزيرة، لكن مع ذلك ولدت داخل فيبر غضباً مكتوماً، كأنه رأى فيها اعتداءً ونهباً. يرى غزو بيت المايوركي من قبل الفتيان المتبححين والعاشقين إهانة. لقد اعتبر بيت المزرعة منزله؛ ولكن منذ أن جاء هؤلاء الدخلاء واستقبلوا جيداً، ذهب هو.

بالإضافة إلى ذلك، عانى في صمت من الغيظ من أنه لم يكن - كما في الأيام الأولى - الشاغل الوحيد للعائلة. استمر بيب وزوجته في الوثوق بالسيد؛ كانت مارجاليدا وشقيقها يوقرانه ككائن قوي أتى من الأراضي البعيدة؛ لأن إبيزا هي أفضل مكان في العالم؛ لكن على الرغم من ذلك، بدا أن مخاوف أخرى تنعكس في عينيه. إن زيارة عدد من الفتيان والتغيير الذي أحدثه هذا في عاداتهم جعلهم أقل اهتماماً بدون خايمي. كلهم قلقون بشأن المستقبل. من يستحق في النهاية أن يكون زوج مارجاليدا؟

خلال ليالي الشتاء، ينظر فيرر -الحببس في برجه- إلى القليل من الضوء الذي يسطع عند سفحه: ضوء من بيت المايوركي. لم تكن ليالي احتفالية، كان على الأسرة أن تكون بمفردها قريبة من الموقد؛ لكنه صمد في عزلته. لا، لن ينزل. كان يشتكي بغيظ حتى من سوء الأحوال الجوية، كأنه يريد أن يلوم برد الشتاء على هذا التغيير الذي حدث ببطء في علاقاته مع عائلة الفلاح.

آه، ليالي الصيف الجميلة مع أمسياتها التي تستمر حتى ساعات متأخرة، وهم يشاهدون النجوم ترتجف في السماء المعتمة، وراء حافة الشرفة السوداء! يجلس فيرر تحت سقفها مع جميع أفراد العائلة والعم يتولوا، الذي يجيء آملاً في بعض الإكرام. لم يتركوه يذهب قط بدون شريحة بطيخ تملأ فم العجوز بدم حلو من لحمها الأحمر، أو كأس من التين المعطر بأعشاب الجبل العطرة. تغني مارجاليدا -وعيناها مثبتتان على غموض النجوم- قصائد إيبيزية رومانسية بصوت طفولي، أعذب وأنعم في أذن فيرر حيث النسيم الذي ملأ ارتباك الليل الأزرق بقشعريرة خفيفة. يروي بيب بهيئة المستكشف الرائع مغامراته المذهلة في اليابسة خلال السنوات التي خدم فيها الملك كجندي في البلدان النائية وشبه الخيالية من كاتالونيا وبلنسية.

يدو الكلب -المنكمش عند قدميه- كأنه يستمع إليه، وعيناها الوديعتان اللطيفتان مثبتتان على السيد، وفي الخلفية ينعكس نجم. فجأة يستوي في جلسته بدافع عصبي، ويقفز ويختفي في الظلام، وسط الجلبة العالية للنباتات المكسورة. فسر بيب هذه الوثبة الصامتة. لقد كان لا

شيء؛ بعض الحيوانات التي تتجول وتضيع في الظل: أرنب بريّة، أرنب
اشتمته حاسة شم كلب الصيد الحساسة. في أحيانٍ أخرى يشب ببطء مع
هرير العداء اليقظ. كان شخص يمر قريباً من المزرعة؛ ظلّ رجل يمشي
بسرعة باستعجال الإيزيين المعتادين على السير بسرعة من جانب إلى
آخر في الجزيرة. لو تكلم الظل، لردوا جميعاً على تحيته. عندما يمر في
صمت، يتظاهرون بعدم رؤيته، تماماً كما يُظهر المار المظلم عدم علمه
بوجود بيت المزرعة والأشخاص الجالسين تحت الشرفة.

كانت عادة قديمة في إبيزا ألا يحيّوا بعضهم في الحقل المنبسط
بمجرد حلول الليل. في الطرق تتقاطع الظلال دون أن تنبس بكلمة،
متجنبين الاجتماع حتى لا تلمس أو تتعرف على بعضها. يذهب كل
واحد منهم إلى عمله، لرؤية خطيبته، للبحث عن الطبيب، لقتل خصم
في الطرف الآخر من الجزيرة، ليعود راكضاً ويستطيع قول إنه مع
أصدقائه في الوقت نفسه. كل من يسير في الليل لديه أسبابه ليكون
غافلاً. تخاف الظلال من الظلال. كان من الممكن أن يتلقى كإجابة على
«طاب مساءؤك!» أو طلب نأراً للسيجارة رصاصة مسدس.

في بعض الأحيان لم يكن يمر أحد بالمزرعة، ومع ذلك يعوي
الكلب -وهو يمد عنقه- أمام الفراغ الأسود. من بعيد يبدو أن عواء
إنسان يرد عليه. كانت صرخات طويلة ووحشية تخترق الصمت
الغامض مثل صرخة حرب: «أوووه!» وأبعد بكثير، ضعف المسافة،
كان يُجيب تعجباً شرساً آخر: «أوووه!».

أسكت المزارع كلبه. لم يكن هناك شيء غريب في هذا الصراخ.

لقد كانوا فتياناً يعوون في الظلام، مسترشدين بصوت صرخاتهم، ربما للتعارف والتجمع، وربما للقتال؛ لأن الصرخة هي نداء للتحدي. كان من المحتمل أن يسمع لاحقاً دويّاً. أمور الشباب والليل! هيا! مع مَنْ في المنزل لم يكن يحدث شيئاً.

يتابع بيب قصة رحلاته غير العادية، مع نظرة زوجته المندهشة، التي تستمع للمرة الألف إلى هذه العجائب، كأنها جديدة دائماً.

يروى العم يتولرا -حتى لا يكون أقل من أحد- قصص القراصنة والبحارة الشجعان من إيزا، ودعمها بشهادة والده، الذي كان صبي بحارة في مركب القبطان ريكّر الشراعي، ويهاجم خلف هذا البطل فرقاطة القرصان المخيف (البابا) فليثيداد. متحمساً للذكريات البطولية، يدندن بصوته المرتعش المقاطع التي احتفل بها طاقم السفينة الإيبيرية بالنصر؛ مقاطع باللغة القشتالية، لمزيد من الهيبة، شوه كلماتها العم يتولرا.

أين أنت أيها الشجاع (البابا)

رجل ذو جرأة كبيرة

بسبب خوفه من الموت

اختبأ في صندوق خشبي؟

واستمر فم البحار الخالي من الأسنان في غناء مآثر الأوقات الأخرى، كأنها مؤرخة بالأمس، وكأنه شاهدها، وكأن ألسنة أبراج المراقبة ستشتعل فجأة فوق تلك الأرض التي يلفها الظلام، معلناً إنزال سفن الأعداء.

في أوقاتٍ أخرى، يتحدث -وعيناه تلمعان بالجشع- عن الثروة الهائلة التي دفنها المغاربة، الرومان وغيرهم من البحارة الحمر، الذين يُطلق عليهم المورمان، في كهوف على الساحل، ثم قاموا بتحسينها في وقتٍ لاحق. كان أجداده يعرفون كثيرًا عن هذا الأمر. من المؤسف أنهم ماتوا دون أن ينبسوا بكلمة! يروي القصة الحقيقية لكهف فورمينترا، حيث احتفظ النورمانديون بمنتجات قرصتهم في إسبانيا وإيطاليا: قديسين من الذهب وكؤوسًا وسلاسل ومجوهرات وأحجارًا كريمة وعملات معدنية تُقاس بمكيال الحبوب. تنين مرعب دربه الرجال الحُمر بلا شك، ويسهر في قاع الهوة والكنز أسفل بطنه. كان الشخص المتهور الذي يتدلى من الخطاف بمثابة طعام له. لقد مات البحارة الحُمر منذ عدة قرون؛ مات التنين أيضًا. لا بد أن الكنز لا يزال في فورمينترا. آه، مَنْ استطاع أن يجده؟! وكان يرتعد المجلس الريفى من التأثر، دون شك في وجود مثل هذه الثروات، بسبب الاحترام الذي توحى به شيخوخة الراوي.

يا لتلك الأمسيات الهادئة التي لن تتكرر أبدًا بالنسبة لِفبرر! لقد تجنب النزول إلى بيت المايوركي ليلاً؛ خوفًا من أن يُزعج حضوره محادثات العائلة حول خاطبي مارجاليدا.

في ليالي الاحتفال، كان يشعر بقدر أكبر من الانزعاج؛ وبدون أن يُفسر السبب، كان يُطل من باب البرج، ينظر بشغف نحو بيت المزرعة. الضوء نفسه، مظهره المعتاد، لكنه يتخيل سماع ضوضاء جديدة في صمت الليل، وأصداء غناء، وصوت مارجاليدا. سيتواجد

الحداد البغيض، وشيطان المغني المسكين، وجميع الفتيان الهمجية والفتاة، بأزيائهم السخيفة. يا إلهي العظيم! كيف يمكن أن تحب هؤلاء الفلاحين؟ مع كل ما رأيته في العالم!

في اليوم التالي، عندما صعد القسيس إلى البرج ليأخذ الطعام إلى دون خايمي، كان يسأله حول ما حدث في الليلة السابقة.

يتخيل فيرر -وهو يستمع إلى الصبي- كل حوادث المغازلة. تناولت الأسرة العشاء على عجل عند الغسق؛ للاستعداد للحفل. كانت مارجاليدا تعلق التنورة الخاصة بالحفلة من سقف غرفتها، وبعد أن ارتدتها، مع منديل أحمر وأخضر متقاطع على صدرها، ومنديل آخر أصغر على رأسها وعقدة طويلة من الشرائط في نهاية الجديلة، ارتدت السلاسل الذهبية التي أعطتها إياها والدتها، وذهبت لتجلس على الشال المطوي على كرسي المطبخ. كان الأب يدخن غليون تبغ الآزتك الخاص به؛ وكانت الأم في زاوية تنسج سلال الأسل؛ وكان القسيس يطل خارج المنزل تحت الشرفة الواسعة التي سيتجمع فيها فتيان المغازلة في صمت. كان هناك من وصلوا قبل ساعة لأنهم كانوا جيراناً؛ هناك من وصل مُغبراً أو مُلطحاً بالطين بعد مشي فرسخين. في الليالي الممطرة، كانوا ينفضون تحت التسقيفة الحايك ذات القلنسوة الخشنة الخاص بهم، ميراثهم من أجدادهم، أو الشال الأنثوي الذي لفوا فيه أنفسهم كثياب ذات أناقة حديثة.

بعد الاتفاق لفترة وجيزة على الترتيب الذي سيتبعونه في محادثتهم مع الفتاة، دخلت مجموعة المتنافسين إلى المطبخ، فقد كانت الشرفة مكاناً بارداً في الشتاء. طُرق على الباب.

كان يبب يصيح كأنه غير مدرك لوجود الخاطبين ويتوقع زيارة غير عادية.

- تفضل!

دخلوا بوداعة، يحيون الأسرة. «طاب مساؤكم! طاب مساؤكم!»، كانوا يتخذون مجلساً على مقعد، مثل أطفال المدارس، أو يقفون وكلهم ينظرون إلى الفتاة. بجانبها كرسي فارغ، وعندما يكون غير موجود، يجلس المتقدم القرفصاء على الطريقة المغاربية، وهو يتحدث إلى الفتاة بصوتٍ منخفض لمدة ثلاث دقائق، تحت النظرة العدائية لخصومه. يُثير أقل تطويل في هذه الفترة القصيرة السعال والنظرات الغاضبة وتهديدات بصوتٍ منخفض. وينسحب فتى، وآخر في مكانه. يضحك القسيس على هذه المشاهد، وهو يرى في المثابرة العدائية للمتقدمين دافعاً لفخر مارجاليدا والعائلة.

لن تكون خطبة أخته مثل الفتيات الأخريات. يبدو المتقدمون لببت كلاباً مسعورة لن تتخلى بسهولة عن فريستها. بالنسبة له كانت لهذه المغازلة رائحة البارود، وأكد ذلك بابتسامة فخر، تجعل بياض أسنانه مثل الذئب يتألق في وجهه البضاوي الداكن. لم يكن أي من الخاطبين متقدماً على الآخرين. خلال الشهرين اللذين تواعدوا فيهما، لم تفعل مارجاليدا شيئاً أكثر من الاستماع والابتسام والإجابة على الجميع بكلمات تزعج الفتيان. كانت موهبة أخته رائعة. تسير أيام الأحاد -عند ذهابها للقداس- أمام والديها برفقة جميع الخاطبين. كانوا جيشاً، وواجههم دون خايمي عدة مرات. تمتنع وجوه صديقاتها

-عندما يرونها تصل بموكب الملكة- حسداً. يحاصرها الجميع، وهم يكافحون من أجل انتزاع كلمة منها، علامة على التفضيل، وتجب عليهم جميعاً برصانة مذهلة، محافظة على مساواة تامة بينهم، تجنباً للاشتباكات القاتلة التي يمكن أن تحدث فجأة بين هؤلاء الشباب المتحارب المسلح قليل الصبر.

سأل خايمي:

- والحداد؟

الوغد الملعون! كان يخرج اسمه من فم السيد بصعوبة، لكن ذكره تحرك منذ وقتٍ طويل في ذاكرته.

هز الصبي رأسه سلباً. لم يتقدم الحداد أيضاً على منافسيه كثيراً، ولا يبدو أن القسيس يشعر به كثيراً.

لقد برد إعجابه بالوغد إلى حدٍّ ما. يغيب الحب الرجال، وجميع الفتيان خاطبي مارجاليدا، عندما ينظرون إليه على أنه منافس، لم يعودوا يخافونه بل تجرؤوا على دعس شخصه المخيف. في إحدى الليالي ظهر مع الجيتار، وكان ينوي قضاء كثير من الوقت الذي يقضيه الآخرون في الموسيقى. عندما جاء دوره، وقف بجانب مارجاليدا، وضبط آله الموسيقية وبدأ في غناء أغاني البر الرئيس التي تعلمها في عزله في نيس. لكن قبلها أخرج مسدساً مزدوج الماسورة من حزامه، وتركه مع المفاتيح على إحدى فخذه، جاهزاً لالتقاطه وإطلاق رصاصة على أول شخص يقاطعه. صمت مطلق ونظرات لا مبالية. غنى بقدر ما شاء، ووضع مسدسه بهيئة المنتصر؛ لكن لاحقاً عند الخروج في

سواد الحقول، وعندما تفرق الفتیان مع صیحات الوداع الساخر، خرج حبران مصوبان من الظل، جعللا المتبجح يسقط أرضاً، وتوقف عدة أيام عن القدوم للتودد لكي لا يظهر رأسه معصوباً بخُرقة. لم يحاول معرفة مَنْ يكون المعتدي. كان هناك عدد من المنافسين، وكان عليه أيضاً مراعاة والديه وأعمامه وإخوانه، ما يقرب من ربع مساحة الجزيرة، على استعداد للانخراط في حرب انتقامية من أجل شرف العائلة.

قال بيت:

- أعتقد أن الحداد ليس شجاعاً كما يقولون. وحضرتك ماذا تظن دون خايمي؟

عندما يتقدم الليل وكانت مارجاليدا قد تحدثت فعلاً مع جميع حُطابها، كان الأب -الذي ينام في الزاوية- ينفجر بصوتٍ متثائب. يبدو هذا الرجل الريفى كأنه يخمن مُضيّ الوقت في أثناء نومه. «التاسعة والنصف! إلى النوم. طاب مساؤكم!»، ويغادر جميع الشباب المنزل بعد هذه الدعوة، وتضيع خطواتهم وصهيلهم في الظلام.

كان بيت، عندما يتحدث عن هذه الاجتماعات، التي يخالط فيها أشخاصاً شجعاناً وحاملي السلاح، يعود ويتذكر سكين جده. متى سيتحدث دون خايمي مع والده من أجل أن يسلمه جوهرة العائلة هذه؟ بما أنه يؤجل الطلب، كان عليه أن يتذكر وعده ويهديه سكيناً أخرى. ماذا يمكن لرجلٍ مثله أن يفعل بدون هذه الصحبة؟ أين سيتقدم؟

قال فيبرر:

- استرح. في يوم من الأيام سأذهب إلى المدينة. ثق في الهدية.
وانطلق خايمي ذات صباح على الطريق المؤدي إلى إبيزا، متشوقاً
إلى حياة جديدة؛ لتجديد وتغيير انطباعاته بعيداً عن الفظاظة الريفية.
بدأت له إبيزا كأنها مدينة عظيمة، وهو الذي ركض في جميع أنحاء
أوروبًا. المنازل مصطفة، والأرصفة مبنية من الطوب الأحمر، والشرفات
بشبايك خارجية، كان معجباً بكل شيء مع بساطة همجية في داخلها
تصل إلى أن هناك مصنعاً على الساحل. توقف أمام بعض النوافذ التي
تحولت إلى واجهات، متفحصاً البضائع المعروضة بالبهجة نفسها التي
يتأمل بها فيما مضى الواجهات الزجاجية الفاخرة للشوارع الواسعة أو
شارع رِجنت.

استوقفه فترة طويلة دكان صاغة لأحد التشويتا. تعجبه السلاسل
الذهبية المجوفة المصنوعة من أجل الفلاحات، والأزرار السلكية مع
حجر في وسطها، واعتبر داخله أن كل هذه الأشياء الموجودة أكثر
الأعمال المثالية والرائعة التي أبدعها فن الرجال. هل يدخل إلى المتجر
لشراء دزينة من تلك الأزرار؟! يا لها من مفاجأة لفتاة بيت المايوركي
عندما يقدمهم لها لتزيين أكمامها! بالتأكيد ستتقبلها منه؛ فإنه سيد ذو
شأن تنظر إليه باحترام بنوي. احترام ممل! الرصانة الملعونة، التي
تعوقه مثل العبء الثقيل! لكن وريث عائلة فِبرر - سليل التجار الأثرياء
والملاحين الأبطال - اضطر إلى التخلي عن التفكير في الأموال التي
يحتفظ بها في حزامه. بلا شك لم يكن يمتلك ما يكفي لمثل هذه
المشتريات.

لاحقًا، في متجرٍ آخر، اشترى سكينًا لِسِت، وهي أكبر وأثقل ما وجده، سلاحًا سخيًّا قادرًا على جعله ينسى سلاح جده المجيد.

في منتصف الظهيرة، دخل فيرر -الذي شعر بالملل من تنزهه بلا هدف عبر المارينا والأزقة المنحدرة لريال فويرثا القديم- إلى نزلٍ صغير، هو الوحيد في المدينة، يقع بجوار الميناء. هناك وجد الضيوف المعتادين. في الردهة، عدد قليل من الشبان يرتدون زيَّ الفلاحين، مع قبعات الثكنة: جنود من الحامية يعملون مساعدين. في غرفة الطعام ضباط عون من كتبية صيد وملازمون شباب يدخلون بهيئة مملة ويتأملون عبر النوافذ -مثل أسرى البحر- الامتداد الأزرق الشاسع. وبينما يأكلون، أعربوا عن أسفهم لسوء حظ شبابهم، وعدم نفعه وضياعه على هذه الصخرة. كانوا يتحدثون عن مايوركا كمكان للبهجة؛ ويتذكرون مقاطعات البر الرئيس التي يكثر فيها أبناءهم، باعتبارها جنة يتوقون إلى العودة إليها. النساء! كان شوقًا، رغبة تجعل أصواتهم ترتجف، وتعكس في أعينهم ومضات جنونية. وتثقل كواهلهم -مثل سلسلة سجن لا تطاق- ذرية إبيزا العفيفة، تعصب الجزيرة والحذر من الغرباء. هناك لا يوجد مزاح في الحب، لن يضيع الوقت في المغازلة؛ أو اللامبالاة العدائية، أو الخطبة الصادقة للزواج في أسرع وقت ممكن. كلمات وابتسامات تؤدي إلى الزواج؛ كان من الممكن فقط التعامل مع الشابات للحديث عن تكوين أسرة جديدة. وهذا الشباب الصاخب السعيد المفعم بالروح يعاني مثل هذا العذاب عند التحدث عن أجمل فتيات المدينة. لقد أعجبوا بهن وعاشوا بعيدًا عنهن، على الرغم من تحركهم

في مساحة ضيقة أجبرتهم على المواجهات المستمرة. كان أملهم التام هو الحصول على إذن للعيش عدة أيام في مايوركا أو في شبه الجزيرة، بعيداً عن الجزيرة الفاضلة والمنفرة، التي لم تعترف إلا بالأجنبي كزوج؛ الإبحار للبحث عن أراضٍ أخرى، حيث كان من السهل تزايد رغباته المتفاقمة، مثل التي لدى الشاب الخجول والسجين.

النساء! هؤلاء الشباب لم يتحدثوا عن شيء آخر؛ وفيرر -الجالس على الطاولة الكبيرة في النُّزل- وافق بصمتٍ على كلماتهم وراثتهم. النساء! نزعة لا تقاوم تربطنا بهن وهي الشيء الوحيد الذي يبقى ثابتاً بعد الاختلالات الأخلاقية التي تغير الحياة؛ ما بقي قائماً وسط جثث آمال أخرى حطمتها الكارثة. شعر فيرر بالضجر نفسه الذي يشعر به هؤلاء الجنود، انطباع بأنهم محبوسون في سجن الحرمان الذي عبر خنادقه البحر. الآن، بدت له عاصمة الجزيرة مدينة ذات رتبة لا تقاوم، مع أنساتها الحبيسات في عزلة رُهبانية كثيفة. يعتبر الريف مكاناً للحرية، مع نسائه ذوات الأرواح البسيطة والعواطف الطبيعية المقيدة فقط بغريزة دفاعية مساوية لغريزة الإناث البدائية.

غادر المدينة ذلك المساء نفسه. لم يبقَ فيه شيء من التفاؤل الذي ساد قبل ساعات قليلة. كانت شوارع المارينا مقززة؛ برائحة معدية تسربت من المنازل؛ وتحلق أسراب من الحشرات في الجدول، وهي تقفز من البرك الصغيرة عند صوت خطى أحد المارة. كانت ذكرى التلال القريبة من برجه -المعطرة بالنباتات البرية ورائحة البحر المالحة- تبتسم في ذاكرته بحلاوة رعوية.

أخذته عربة فلاح قرب سان خوسيه، وعندما انفصل عنه بدأ مسيرته عبر الجبل، مرورًا بغابات الصنوبر المحنية بفعل العواصف العاتية. كانت السماء غائمة؛ وكان الجو حارًا وثقيلًا. بين الحين والآخر تتساقط قطرات كثيفة، ولكن قبل أن تثبت الغيوم مطرها، بدا أن هبات رياح جرفت بها إلى حدود الأفق.

بالقرب من كوخ أحد الفحّامين، رأى خايمي امرأتين تسرعان عبر أشجار الصنوبر. كانتا مارجاليدا ووالدتها. جاءوا من كوييس -صومعة تقع على ربوة على الساحل- بجوار نبع يخضب الصخور شديدة الانحدار، مما يجعل أشجار البرنقال والنخيل تنمو تحت ستر الصخور.

انضم خايمي إلى المرأتين، حينها رأى بيت يخرج من الأدغال، وكان يسير خارج الدرب، بيده حجر يطارد طائرًا كبيرًا لفت انتباهه صراخه. واصلوا معًا السير نحو بيت المايوركي، ودون أن يعرفوا كيف، وجد فبرر نفسه متقدمًا، يسير بجوار مارجاليدا، بينما زوجة ييب تسير خلفهما بخطوة بطيئة من ضعفها، وهي تبحث عن متكأ على ابنها.

كانت الأم مريضة: مرضًا مجهولًا جعل الطبيب لا يدركه في زياراته النادرة ويشير خيال المعالجين الدجالين في الجزيرة. كانا يأتیان لتقديم نذر إلى عذراء كوييس، ويتركان على مذبحها شمعتين مجعدتين أحضر وهما من المدينة.

وبينما تتحدث مارجاليدا بصوت حزين عن أمراض المرأة العجوز، كانت أنانية الشباب القوي تلون خديها، وكانت عيناها تشيان بنفاد

صبرها بعض الشيء. كان ذلك اليوم احتفالاً. كان عليهما الوصول مبكرًا إلى بيت المايور كي لإعداد العشاء للعائلة قبل ظهور المتوددين. كان فيرر معجبًا بها بعينه الجادتين. تفاجأ الآن بحماقاته السابقة، التي جعلته يتأمل مارجاليدا، لشهور وشهور، كطفلة، ككائن لا جنسي، دون أن يدرك محاسنها. يا لها من امرأة! يتذكر بازدرء شابات المدينة اللواتي تنهد من أجلهن الجنود المحبوسون في النزل. مرة أخرى كان يفكر في خطبة مارجاليدا بضيق يشبه الغيرة. وكانت هذه الفتاة ستصبح لواحد من هؤلاء البرابرة ذوي البشرة الداكنة، الذين سيخضعونها مثل البهيمة لعبودية الأرض؟

همهم كأنه اكتشف شيئًا مهمًا:

- مارجاليدا! مارجاليدا!

لكنه لم يقل أكثر من ذلك. شعر الفاسق القديم أن غرائزه الفاسدة تستيقظ مع العطر الذي تنفثه تلك المرأة، عطر لا يمكن تحديده للجسد الطازج والعذري الذي يعتقد هو أنه يستنشقه، كخبير جيد، لديه خيال أكثر من حاسة شم. في الوقت نفسه - وهو أمر غريب بالنسبة له - شعر ببعض الخجل الذي يمنعه من الكلام؛ خجل مشابه لما شعر به في أيام شبابه المبكرة، عندما تجرأ - بعيدًا عن الفتوحات السهلة في ممتلكاته في مايوركا - على مخاطبة السيدات المعروفات في شبه الجزيرة الإسبانية. ألم يكن تصرفًا حقيرًا أن يتحدث عن حبه لتلك الفتاة التي يراها طفلة حتى فترة قصيرة قبل الحين والتي تحترمه كأنه والدها؟

- مارجاليدا! مارجاليدا!

بعد هذه النداءات التي أثارت فضول الفتاة مما دفعها إلى رفع
عينها لثبتهما على فبرر متسائلة، والذي بدأ أخيراً في التحدث، وسألها
عن تطورات خطبتها. هل اختارت شخصاً ما؟ مَنْ سيكون المحظوظ؟
الحداد... المغني؟

خفضت عينها مرةً أخرى، وهي تأخذ في ارتباكها طرف مئزرها
وترفعه حتى صدرها.. لم تكن تعلم. كان صوتها يلغ في السنين بشكلٍ
طفولي مع نوبات الذهول المحرج. لا تريد الزواج. لا المغني، لا الحداد
ولا أحد. لقد قبلت بالتودد؛ لأن جميع الفتيات يفعلن الشيء نفسه
عندما يصلن إلى سن معينة. إلى جانب ذلك - وهنا كانت تحمر خجلاً
بشدة - لقد منحها بعض الرضى لإذلال صديقاتها اللاتي كن غاضبات
لرؤية عدد كبير من الخاطبين. كانت ممتنة للفتيان الذين جاؤوا لرؤيتها
من مسافات بعيدة إلى بيت المايوركي. لكن هل تريدهم؟ هل تتزوج
أحدهم؟

لقد اختصرت خطوتها بينما تتكلم. مرت زوجة بيب وابنها بشكلٍ
غير محسوس أمامهما، وعندما تُرك الاثنان بمفردهما على الطريق،
انتهى بهما الأمر بالتوقف دون معرفة ما يفعلان.

- مارجاليدا! يا (زهرة اللوز)!

ليذهب الخجل إلى الجحيم! شعر فبرر بالغطرسة والانتصار،
تماماً كأنه في أيامه الخوالي. لماذا هذا الخوف؟ فلاحه! فتاة صغيرة!
تحدث بلهجة حازمة، واضعاً افتتانه في ثبات عينيه العاطفي، مقرباً
فمه إليها، كأنه يداعبها بهمس كلماته.. وهو؟ ماذا تفكر فيه مارجاليدا؟

وهل يتقدم إلى بيب ذات يوم طالبًا منه الزواج بابتته؟

صاحت الفتاة:

- حضرتك! حضرتك، دون خايمي!

رفعت عينيها بلا أي خوف ضاحكةً على هذه الكلمات. كان السيد معتادًا على خداعها بدعابات لا تصدق. قال والدها إن آل فيرر كانوا سادة جادين كالقضاة، لكنهم دائمًا تمتعوا بروح الدعابة. كان سيسخر منها مرةً أخرى، كما حدث عندما حدّثها عن العروس الطينية المحفوظة في برجه، والتي كانت تنتظره منذ آلاف السنين.

ولكن عندما ركزت نظرتها على فيرر ووجدت وجهه شاحبًا متشجعًا بسبب التأثير، شحبت هي أيضًا. لقد كان رجلًا آخر: كانت ترى دون خايمي الذي لم تعرفه مطلقًا. بشكلٍ غريزي -يدفعها الخوف- تراجعت خطوة إلى الوراء. بقيت كأنها في موقف دفاعي، متكئة على الجذع الرقيق لشجرة صغيرة ترتفع بجانب الطريق، وأوراقها الصغيرة تكاد تكون طليقة بسبب الخريف.

لا تزال تتمتع بالهدوء لتبتسم ابتسامة مصطنعة، متظاهرة أنها تصدق دعابة السيد.

أجاب فيرر بحماس:

- لا. أتكلم بجدية. قل لي يا مارجاليدا... يا (زهرة اللوز)، وإذا كنتُ أحدُ خطّابك؟ وإذا حضرت التودد؟ بماذا ستجيبين؟
تكومت عند الجذع الضعيف، وأصبحت أصغر حجمًا، كأنها تريد

الهروب من تلك العينين المتقدتين. جعلت حركتها الغريزية عندما تراجعت الشجرة اللينة تتأرجح، وسقط حولها وابل من الأوراق الصفراء مثل رقائق العنبر، متشابكة في جديلتها، متشبثة بجملدها، منتشرة فوق ثيابها. شاحبة، بفم مشدود وشفقتين زرقاوين، تمتم بكلمات بدت كأنها تنهدات ضعيفة. كانت في عينيها -الكبيرتين الرطبتين- تعابير حزينة لروح متواضعة تفكر في أشياء كثيرة ولا تجد طريقة لقولها. هو! الابن البكر لعائلة فيرر! رجل نبيل يتزوج فلاحاً! هل كان مجنوناً؟

- لا؛ أنا لست رجلاً نبيلًا، أنا بائس. أنت أغنى مني؛ لأنني أعيش على صدقاتكم.. والدك يتمنى لك زوجًا يزرع أرضه. هل تقبلين أن يكون أنا يا مارجاليدا؟ هل تحبينني يا (زهرة اللوز)؟

واصلت الحديث دون أن تعرف ما تقوله، ورأسها لأسفل، وهي تهرب من نظرة تبدو أنها تحرقها. «جنون! لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. أن يقول الابن البكر مثل هذه الأمور! كنت أحلم».

لكن فجأة شعرت بملامسة طفيفة ومداعبة في إحدى يديها. أمسكت يد فيرر اليمنى يدها. رآته مرة أخرى، لكنه بدا لها رجلاً مختلفًا. وجدت أمام عينيها وجهًا جديدًا جعلها ترتجف. لقد اختبرت إحساس الخطر الجسيم، انتفاضة عصبية تنبهها. ارتجفت ركبتيها، وتقلصت كأنها ستنهار خوفًا.

تمتم في أذنها بصوتٍ مستعطف:

- هل تجديني عجوزًا بالنسبة لك؟ ألا يمكنك أن تحبينني أبدًا؟!

كان الصوت عذبًا ومداعبًا؛ لكن تلك العينان اللتان بدتا كأنهما تأكلانها! ذلك الوجه الشاحب، مثل وجه القتلة! أرادت أن تقول شيئًا للاحتجاج على كلماته الأخيرة. لم يكن دون خايمي كثيرًا للدرجة بالنسبة لمارجاليدا: لقد كان شيئًا متفوقًا، مثل القديسين الذين يكبرون بحُسن مع مرور السنين. لكن لم يسمح لها الخوف بالتحدث. تحررت من يده المداعبة، وشعرت بنفسها تتحرك بسبب تأثير قوة مذهل، كأنها رأت حياتها في خطر، فهربت من فيرر كأنه قاتل.

- يا إلهي! يا إلهي!

قفزت، تمتعت بهذا التضرع على بُعد مسافةٍ منه، وبدأت فورًا في الركض بساقي الفلاحة الرشيقتين، واختفت في منعطف الطريق.

لم يلاحقها خايمي. بقي ساكنًا في عزلة غابة الصنوبر، غير مبالي بما يحيط به، مثل بطل أسطوري خاضع لسحر. ثم مرر يده على وجهه كأنه يستيقظ وينسق أفكاره.

آلمته كلماته الجريئة، وذعر مارجاليدا، والركض الفزع الذي انتهت به المقابلة، مثل عذاب الضمير. يا له من هراء! كان نتيجة رحلته إلى المدينة، عودته إلى الحياة المتحضرة التي أزعجت هدوءه الانفرادي، وإيقاظ عواطفه من الزمن القديم؛ ومحادثة الجنود الشباب الذين يعيشون أفكارهم حول النساء.. لكن لا، لم يأسف على فعله. ما يهم هو أن مارجاليدا عرفت ما يفكر فيه بشكل غامض في عزلة البرج مراتٍ عديدة، دون أن يكون قادرًا على إعطاء شكل دقيق لرغباته.

واصل طريقه ببطء؛ لكي لا يلحق بعائلة بيت المايوركي. انضمت

مارجاليدا إلى والدتها وشقيقها. رآهم من على ارتفاع، عندما كانت المجموعة تسير فعلاً عبر الوادي باتجاه بيت المزرعة.

عكس فيبرر مساره متجنباً الاقتراب من بيت المايور كي. توجه نحو برج القراصنة، ولكن عندما اقترب منه واصل طريقه ولم يتوقف حتى وصل إلى البحر.

بدا الساحل الصخري -الذي يبدو كـرأس مدبب على الماء- محطماً بسبب تلاطم المياه خلال قرون وقرون. كانت الأمواج -مثل الثيران الزرقاء الغاضبة- تصدم الصخور مع زبد غاصب، وتفتح تجاويف مقعرة، وكهوفاً عميقة تمتد صعوداً على شكل شقوق عمودية. كان هذا العمل العتيق يقضم الساحل، منتزعاً درعه الحجرية، طبقة تلو طبقة. وتنفصل عنه شظايا ضخمة مثل الأسوار. في البداية تنفصل مُشكّلة شقاً غير محسوس، فيكبر بمضي القرون. ينحني السور الطبيعي لسنوات وسنوات على الأمواج التي تدك باستمرار في قاعدته، حتى انهيار ذات ليلة عاصفة، بعد أن فقد مركز ثقله، مثل ستار قلعة مُحاصرة، وتفتت إلى كتل، وأمد البحر بهوادٍ^(٥٨) جديدة، سرعان ما غُطيت بالنباتات اللزجة، حيث تفور الرغبة في تشابكهما وتأز قشور الأسماك.

ذهب فيبرر للجلوس على حافة صخرة كبيرة بارزة، قطعة صخرية انفصلت عن الساحل وانحنت بشكلٍ خطير على الهوادي. دفعه قدره إلى الجلوس هناك. يا ليت الكارثة المتوقعة تحدث في تلك اللحظة، وأن يختفي جسده بسبب الحادثة العظيمة في قاع البحر، ويكون هذا

(٥٨) الهوادي: جمع هادية، وهي الصخرة الناتئة في الماء.

الشيء الضخم مثل التابوت الحجري الذي يشبه هرم فرعون! لأجل ما كان ينتظره في الحياة!

الشمس تغرب، وأطلت قبل أن تختفي من ثقب في السماء العاصفة من بين السحب الممزقة. لقد كانت كرة دموية، رقائق أرجوانية أحييت ضخامة البحر بدرجات لونية نارية. كانت كتل البخار السوداء التي تغلق الأفق محاطة باللون القرمزي. يمتد مثلث من اللهب لا يهدأ فوق الأخضر المائي الداكن. احمر زبد الأمواج وبدا الساحل يغلي لبضع لحظات.

في وهج هذا الضوء العاصف، تأمل خايمي عند قدميه تأرجح المياه التي تقذف دفقاتها الهادرة في تجاويف الصخرة، وهي تهدر وتتلوى مع زبد الغضب في الأزقة المتعرجة للهوادي. في الجزء الأسفل من هذه الكتلة الضاربة إلى الخضرة المضاءة بشفافية الأوبال بسبب غروب الشمس، رأى نباتات غريبة تنشب بالصخور، وغابات صغيرة، كانت تتحرك في أوراقها الكثيفة اللزجة دواب ذات أشكال رائعة، زاحفة وسريعة أو غير رشيقة ومستقرة، مع دروع صلبة رمادية وضاربة إلى الحمرة، مكسوة بأنياب، مسلحة بكُلابات ورماح وقرون، يصطادون بعضهم ويطاردون كائنات أقل قوة تمر مثل شرارات، فيجعلون شفافيتهم البلورية تتألق في سرعة هروبهم.

شعر فيرر بالتقزم بسبب الشعور بالوحدة. بعد أن فقد إيمانه بأهميته الإنسانية، اعتبر نفسه مساوياً لأحد هذه الوحوش الصغيرة التي تتحرك في غطاء الهاوية النباتي تحت البحر. ربما لا يزال أقل. كانت تلك

الحيوانات مسلحة مدى الحياة، ويمكنها إعالة نفسها بقوتها الخاصة، دون أن تعرف اليأس والإذلال والحزن الذي أصابه. البحر! عظمته، عديم الإحساس بالناس، قاسٍ وعنيد في غضبه، أثقل على فيرر، وقد استيقظت في ذاكرته أفكار لا حصر لها ربما كانت جديدة، لكنه قبلها على أنها ذكريات غامضة عن حياة سابقة، كأمر فكر فيه فعلاً، ولم يعرف أين ومتى.

سرت فيه رجفة تبجيل وورع غريزي، جعلاه ينسى ما حدث قبل ذلك بقليل، مستسلماً إلى ذهول ديني. البحر! يفكر -دون أن يعرف لماذا- في أسلاف البشرية الأبعد، في الأناس الأوائل البائسين، الذين خرجوا بالكاد من الحيوانية الأصلية، واستشهدوا وطُردوا من جميع الأماكن بسبب طبيعة معادية مفرطة، مثل جسم شاب وقوي يهلك أو يطرد الطفيليات التي تصر على العيش على حساب جسمه.

على شاطئ البحر، أمام الألوهية الغامضة، الخضراء والهائلة، يجب أن يكون الإنسان قد قضى أفضل لحظات الراحة. من حضن المياه خرجت الآلهة الأولى. لا بد أن الرجل قد شعر أن شيئاً جديداً وقوياً يولد فيه، وهو يتأمل تقلبات المياه هادئاً بسبب هممتها: الروح. البحر! الكائنات الحية الغامضة التي تسكنه تعيش أيضاً -مثل تلك الموجودة على الأرض- خاضعة لطغيان البيئة، ساكنة في حياتها البدائية، تكرر نفسها عبر القرون، كأنها دائماً الكائن نفسه. كما كان يحكم الموتى هناك. الأقوياء يطاردون الضعفاء، وبدورهم يلتهمهم آخرون أقوى؛ قصة أسلافهم البعيدين نفسها في المياه الدافئة للكرة الأرضية. كلُّ على

السواء، يعيد نفسه عبر مئات الملايين من السنين. سيوجد وحش من عصور ما قبل التاريخ من شأنه أن يعود لئلاحق في المياه الحالية في كل مكان، في الهاوية المظلمة وعلى الشواطئ الساحلية، الحياة نفسها والكفاح نفسه كما كان في شبابه. لم يكن الوحش المقاتل ذو الدروع الحمراء المسلح بأظافره المنحنية وكلاباته المُعذبة محاربًا عنيدًا في الكهوف الخضراء تحت الماء، لا يتحد أبدًا مع السمكة الرشيقة الخفيفة الضعيفة التي تحرك ذيل ثوبها الوردي والفضي في المياه الشفافة. كان مصيرها أن تُلتهم، أن تكون قوية، وإذا وجدت نفسها غير مسلحة، وأنيابها محطمة، تستسلم لسوء الحظ دون احتجاج وتهلك. الموت بدلًا من التخلي عن موطنها، عن حتمية البداية الفائقة! بالنسبة للأقوياء لم يكن هناك ارتياح على الأرض أو في البحر ولا حياة خارج بيئتهم. كانوا عبيدًا لعظمتهم: كان النسل يجلب لهم -بشرف- النكبة. وسيكون الأمر على حاله دائمًا! كان الموتى هم الوحيدين الذين يحكمون ما هو حي. شكلت الكائنات الأولى التي بدأت حركة الحياة بأفعالها القفص الذي تتحرك فيه الأجيال المتعاقبة سجينه.

تبدو له الرخويات الهادئة التي يراها الآن في قاع المياه -متشبثة بالصخور مثل الأزرار المظلمة- كائنات إلهية محافظة في هدوئها الغبي على سر الخلق. لقد أعجب بالمهيبيين والعظماء، مثل الوحوش التي تعشقها الشعوب المتوحشة بسبب سكونها، وفي هدوئهم يدركون عظمة الآلهة. تذكر فيرر نكاتهم فيما مضى، في ليالي العربة، قبل أطباق المحار الكبير الطازج في المطاعم الكبرى في باريس. يظن رفاقه

الأنيقون أنه مجنون عندما يسمعون الأفكار العبثية التي أوحى بها النبيذ إليه، ومشهد الأصداف وتذكر بعض القراءات المجزأة والسريعة من شبابه. «سوف نأكل أجدادنا، مثلنا مثل أكلي لحوم البشر السعداء».

كان المحار الكبير من أوائل مظاهر الحياة على الكوكب، أحد الأشكال البدائية للمادة العضوية، ولا يزال طافياً وغامضاً ومربكاً في تطوره، على ضخامة المياه. لم يكن للقرد الظريف والمفتري سوى أهمية ابن العم الذي لم يصنع مهنة، قريب تعيس ومثير للسخرية ترك عند الباب متظاهراً بعدم معرفة لقب عائلته التي ترفض تحيته. كان الرخوي - هو جدنا الموقر - رئيس المنزل، وخالق السلالة، والجد، المشحون بنبل ملايين القرون.. بُعثت هذه الأفكار الآن في فيرر، مع حادثة الحقائق التي لا جدال فيها، عند التأمل في الكائنات الساكنة والبدائية المحبوسة في صدفاتها، والمتشبثة بالصخور، تحت أقدامه، في أعماق الزجاج الأخضر المرتعش بين الهوادي.

كانت الإنسانية مخلصة لأصلها. لم ينكر أحد تقاليد هؤلاء الأسلاف الموقرين الذين يبدوون نائمين في سراديب الموتى الضخمة في البحر. يعتقد الناس أنهم أحرار؛ لأنهم يستطيعون الانتقال من جانب إلى آخر في الكوكب؛ لأن أجسامهم مُركبة على عمودين رشيقين ومفصلين يسمحان لهم بالقفز على الأرض بألية الخطوة.. خطأ! وهم آخر من الأوهام الكثيرة التي تُبهج حياتنا زوراً، وتجعلنا نتحمل بؤسها وصغرها! كان فيرر مقتنعاً بأن كل شخص يولد بين صدفتين من التحيز والوساوس والكبرياء، وهو موروث من أولئك الذين سبقونا في الحياة،

وعبثًا يتحرك الناس، فلم يتمكنوا أبدًا من الانطلاق من الصخرة نفسها التي نما عليها أسلافهم. النشاط، ووقائع الحياة، واستقلال الشخصية، كلها وهم! غرور الرخويات التي تحلم وهي ملتصقة بالصخرة، وتعتقد أنها تسبح في بحار الكرة الأرضية، بينما لا تزال أصدافها ملتصقة بالحجر الجيري!

كل الكائنات كانت مثل أولئك الذين ساروا من قبلهم، مثل أولئك الذين سيجيئون من بعدهم. تتغير الأشكال، لكن الروح باقية بلا حراك وثابتة، مثل روح تلك الكائنات البدائية، الشهود الأبديين لنبضات القلب الأولى للحياة على الكوكب، والذين يدون كأنهم ملفوفون في أعماق الأحلام. وهكذا سيكون دائمًا. إن الجهود الكبيرة للتخلص من هذه البيئة المحتومة، ومن إرث البيئة، ومن الدائرة التي أجبرنا على التحرك فيها كانت بلا جدوى؛ حتى جاء الموت وجاءت حيوانات أخرى مشابهة لتدور في الدائرة نفسها، معتقدة أنها حرة؛ لأن لديهم دائمًا مساحة جديدة للركض قبل خطواتهم.

«الموتى يحكمون»، أكد خايمي مرةً أخرى في أفكاره. بدا من المستحيل ألا يدرك الناس هذه الحقيقة العظيمة وأن يتحركوا في الليل الأبدى، معتقدين القيام بأشياء جديدة في روعة الأوهام التي تظهر يوميًا، مثل خدعة الشمس العظيمة التي ترافقنا عبر اللا محدود، والذي هو معتم ويبدو لنا أزرق ومشرقًا من الضوء.

عندما فكر فيرر في ذلك، غربت الشمس فعلاً. كان البحر أسود تقريبًا، والسماء رمادية مائلة للرمادي، وفي ضباب الأفق تتعرج

الأشعة لأسفل لتشرب من الأمواج. شعر خايمي بالملامسة الرطبة لبضع قطرات من المطر على وجهه وفي يديه. كانت عاصفة على وشك الانفجار قد تستمر طوال الليل. أومض البرق أقرب وأقرب. كان هناك تحطم بعيد، كما لو كان أسطولان من الأعداء يقصفان بعضهما خلف ستار ضباب الأفق الذي يقتربان منه. بدأت صفائح المياه الهائلة -الملساء مثل البلورات بين الهوادي والساحل- في الارتعاش مع التموجات اللا مركزية لقطرات المطر.

على الرغم من هذا، فإن خايمي هو الشخص الوحيد الذي لم يتحرك. بقي على الصخرة، شاعرًا بغیظ مكتوم من القدر، يتزايد مع كل فظافة شخصيته أمام استبداد الماضي. ولماذا يحكم الأموات؟ لماذا يظلمون البيئة الخاصة بأرواحهم، مثل غبار العظام، الذي يستقر في أدمغة الأحياء ويفرض عليهم الأفكار القديمة؟

فجأة شعر فيرر بإحساس مبهر، كأنه يتأمل ضوءًا غير عادي لم يسبق أن رآه. بدا أن دماغه ينتفخ وينتشر مثل كتلة من الماء تكسر زجاج الحجر الجائر. في اللحظة نفسها التي لون فيها البرق البحر بنور زاهٍ وانفجر الرعد فوق رأسه، مُحركًا بقعقة مروعة أصداء الامتداد الشاسع للبحر وتجاويف وقمم الساحل.

«لا؛ الموتى لا يحكمون، الموتى لا يقودون». سحر خايمي - كأنه رجل جديد- من أفكاره التي كانت منذ فترة وجيزة. كانت تلك الدواب البدائية التي رآها بين الصخور -ومثلها جميع حيوانات البحر والأرض- تعاني من استعباد البيئة. كان الموتى يسيطرون عليهم لأنهم

يفعلون ما سيفعله نسلهم. لكن الإنسان ليس عبد البيئة: إنه معاونها وأحياناً سيدها. الإنسان كيان العقل والتقدم، ويمكنه تعديل البيئة بما يناسبه. كان خادماً لها فيما مضى، في عصورٍ بعيدة؛ ولكن عند السيطرة الجزئية على الطبيعة والقدرة على استغلالها، شق حُجة الغلاف المحتوم الذي تظل الكائنات الأخرى من المخلوقات أسيرة فيه. ما الذي يمكن أن يهتمه في البيئة التي ولد فيها؟ سيتصور أخرى إذا رغب.

لم يستطع الاستمرار في تأملاته. كانت العاصفة تنفجر فوقه.

كان المطر يقطر من حافة قبعته ويركض على طول ظهره. هبط الليل فجأةً. وفي ضوء البرق، كان من الممكن رؤية البحر بسطحه غير اللامع المهتز بفعل اصطدام المطر.

سار فيرر نحو البرج بكل خفة ساقيه. ومع ذلك، كان فرحاً مع لذة طاغية لمن يخرج من حبس طويل ولا يرى مساحة كافية أمام عينيه لنشاطه المتزن. يضحك دون توقف في مسيرته، وفجأةً ضوء البرق عدة مرات، فرفع ذراعه اليمنى بإصبع واحد إلى أعلى، بينما يخط بيده اليسرى الجزء الأسفل من الكوع، في إشارة احتجاجية شعبية وغير لائقة.

صرخ مسروراً بسماع صوته وسط هدير العاصفة:

- سأفعل ما أريد! لا يحكمني ميت ولا حي! خذ! لأسلافي النبلاء!
خذ! لأفكاري القديمة، لجميع عائلة فيرر!

كرر هذه اللفتة غير اللائقة عدة مرات بفرحة وغد. وفجأةً أُحيط

بضوءٍ أحمر، وانفجرت طلقة مدفع فوق رأسه، كأن الساحل انفلق للتو بفعل دفعات كارثة هائلة.

وقال فيرر في إشارة إلى الصاعقة:

- سقطت قريبة.

ذهب تفكيره -الذي يشغله ذكرى عائلة فيرر- إلى سلفه القائد دون بريامو. ذكره انفجار الرعد قتال البطل الشيطاني، فارس الصليب المتدين، الساخر من الله والشيطان، الذي كان ينفذ دائماً إرادته الأعظم. وما إن حارب بجانب ذوييه، حتى عاش بين أعداء الإيمان، حسب أهوائه وميوله.

لا؛ لم ينكر فيرر ذلك. كان يعشق القائد الشجاع: كان سلفه الحقيقي، الأفضل على الإطلاق، المتمرد، شيطان العائلة.

عند دخول البرج، أشعل ضوءاً، ولف نفسه في حايك من الصوف الخشن الذي يستخدمه في رحلاته الليلية، وأخذ كتاباً أراد أن ينشغل عن أفكاره حتى يصعد بيت بالعشاء.

بدا أن العاصفة استقرت على الجزيرة. كان المطر يسقط على الحقول فيحولها إلى طين؛ كان يقفز عبر منحدرات الطرق المغمورة كالوديان؛ كانت تفيض الجبال -مثل الإسفنج العظيم- بسبب المسامية الخضراء لغابات الصنوبر والأجمة. ويظهر الضوء السريع للبرق بشكلٍ لحظي، مثل رؤية حلم، البحر الأسود مع رغوة فائرة، الحقول المغمورة، التي تبدو مليئة بسمك النار، والأشجار اللامعة تحت طبقتها المائية.

في مطبخ بيت المايوركي، يشكل المتقدمون إلى مارجاليدا كتلة من النعال الموحلة والأجسام المدخنة بسبب تبخر ملابسهم المبللة. هذه الليلة سيستغرق التودد وقتاً أطول. سمح بيب للفتيان -بهئية أبوية- بالانتظار بعد مرور ساعة التودد. يشعر بالأسف لهؤلاء الشباب الذين أجبروا على المشي تحت المطر. لقد كان أيضاً عريساً. كان عليهم الانتظار؛ ربما ستمر العاصفة. وإذا لم يحدث ذلك، فسينامون حيث يمكنهم: في المطبخ، أو على الشرفة... «ليلة واحدة هي ليلة واحدة!». كان الفتیان سعداء بالحدث، الذي أضاف مزيداً من الوقت لتوددهم، كانوا يتأملون في مارجاليدا مرتدية فستان حفلها، وهي جالسة في وسط الغرفة، بجوار كرسي فارغ. جلسوا جميعاً عليه خلال الليل؛ كان بعضهم ينظر بشيء من القلق إلى المقعد، لكن دون أن يجروا على احتلاله مرة أخرى.

عزف الحداد-الذي كان حريضاً على التفوق على منافسيه- على الجيتار، وهو يغني بصوتٍ منخفضٍ مصحوب بتقلبات الرعد. كان المغني -المحشور في الزاوية- يفكر في أبياتٍ جديدة. استقبل بعض الشباب الضوء المنبعث من البرق الذي تسرب من خلال شقوق الباب بتعبيرات ساخرة، وكان القسيس يتسم وهو جالس على الأرض وفكه على كلتا يديه.

غفا بيب على كرسيه المنخفض، وغلبه الإرهاق، وكانت زوجته تُطلق صرخات مكتومة من الرعب في كل مرة هز فيها الرعد المنزل بقوة، مقحمة في تأوهاتها مقاطع من الصلوات، تتممها باللغة القشتالية

من أجل تأثير أكبر. «القديسة باربرا المباركة، أنت مكتوبة في الجنة...». وبدت مارجاليدا -غير المبالية لنظرات الخاطبين- على وشك النوم في مقعدها.

دقت يد الباب فجأةً بخبطتين. مط الكلب رقبتة، والذي انتصب قبل لحظات كأنه يخمن وجود شخص ما على الشرفة، لكنه لم ينبح، وهو يحرك ذيله بهدوء.

نظرت مارجاليدا ووالدتها إلى الباب ببعض الخوف. «من يكون؟ في تلك الساعة، في تلك الليلة، في عزلة بيت المايوركي! هل يمكن أن يكون قد حدث شيء للسيد؟».

استوى ييب -الذي استيقظ من هذه الخبطات- في مقعده. «تفضل!» كان يدعو للدخول بمهابة رب العائلة بحسب العادة اللاتينية، سيد منزله المطلق. كان الباب مواربًا.

فُتح، مفسحًا المجال لهبة من الرياح محملة بالمطر، مما جعل ضوء المصباح يرتجف ويتجدد جو المطبخ الكثيف. أضيء مستطيل الباب الأسود بوهج الصاعقة، ورأى الجميع -على السماء الزرقاء الضاربة إلى الرصاصي- شكلاً يرتدي قلنسوة، علامة على التوبة، يقطر مطرًا ووجهه يكاد يكون مخفيًا.

دخل بخطوة حازمة، دون أن يلقي التحية على أحد، يتبعه الكلب الذي يشم ساقيه بهيرٍ حنون، وذهب مباشرةً ليشغل الكرسي الفارغ المجاور لمارجاليدا: المكان المخصص للمتقدمين.

عند جلوسه، دفع غطاء رأسه إلى الخلف، وثبت عينيه على الفتاة.

– آه!

كانت تئن، شاحبة، وعيناها واسعتان من الدهشة.

وهكذا كانت عواطفها، اندفعت بعنف للابتعاد عنه، لدرجة أنها

كانت على وشك السقوط.



الجزء الثالث

بعد يومين، وبينما خايمي ينتظر الطعام في برجه بعد عودته من الصيد، حضر بيب، ووضع السلة الصغيرة على الطاولة ببعض الوقار. حاول الريفي أن يعتذر عن هذه الزيارة غير العادية. ذهبت زوجته ومارجاليدا مرةً أخرى إلى صومعة كوبيس، ورافقهما الصبي. أكل فيرر بشهية جيدة، بعد أن أمضى الصباح في البحر منذ الفجر؛ لكن هيئة الفلاح الجادة جعلته يقلق.

قال خايمي بلهجة إيبيرية:

- بيب، تريد أن تخبرني بشيء ولا تجرؤ؟

- هذا صحيح يا سيدي.

وبيب -تمامًا- ككل الخجولين الذين يشكون ويترددون قبل التحدث، ولكن بمجرد زوال خوفهم يندفعون بشكلٍ أعمى، يحركهم خوفهم، ويعرضون أفكارهم بوقاحة.

أجل؛ كان عليه أن يخبره شيئًا، شيئًا مهمًا جدًا. كان يفكر في الأمر ليومين، لكنه لم يستطع الصمت أكثر من ذلك. وإذا كان قد حمل الطعام إلى السيد، فإنما لمجرد التحدث إليه. ماذا أراد دون خايمي؟ لماذا سخر منهم، هم من أحبوه كثيرًا؟!

صاح فيرر:

- أسخر!

أجل؛ يسخر منهم. أكد بيب ذلك بحزنٍ. ماذا حدث ليلة العاصفة؟
ما النزوة التي دفعت السيد إلى الظهور في وسط التودد، والجلوس
بجانب مارجاليدا كأنه متقدم؟ آه، دون خايمي! إن الاحتفالات شيء
جاد: تُقتل الرجال لأجلها. كان يعلم جيدًا أن السادة يسخرون من هذا،
معتبرين أن فلاحي الجزيرة متوحشون تقريبًا؛ لكن بالنسبة للفقراء يجب
تركهم لعاداتهم، وينسونهم، وعدم تقدير أفراحهم القليلة.

ارتسم الحزن الآن على وجه فيرر:

- لكن وإذا لم أكن أسخر منكم يا عزيزي بيب! إذا كان كل شيء
حقيقيًا؟! اكتشفت فجأة: أنا مُتقدم لزواج مارجاليدا، مثل المغني، مثل
هذا الوغد ثقيل الظل، مثل كل الفتيان الذين يأتون إلى مطبخك للتودد
إليها.. في الليلة الماضية قدمت نفسي؛ لأنني لم أعد أستطيع المعاناة
أكثر؛ لأنني فهمت فجأة سبب الحزن الذي أصابني؛ لأنني أحب
مارجاليدا، وسأزوجها إذا قبلتني.

كانت لهجته صادقة وحماسية لم تترك مجالًا للشك لدى الفلاح.

هتف:

- هذه حقيقة! أخبرتني الفتاة شيئًا من هذا القبيل وهي تبكي عندما
سألتها عن سبب زيارة السيد.. لم أصدقها في البداية. الفتيات متباهيات
جدا! يتخيلون أن كل الرجال مجانيين بهن.. إذن هذا صحيح؟

وهذا اليقين جعله يتسم، كشيء غير متوقع وظريف.

يا لدون خايمي! أكرمهم هو وعائلته للغاية بسبب هذا العرض التقديري لأهل بيت المايوركي. كان سيئاً بالنسبة للفتاة التي ستتكر، فتتخيل نفسها جديرة فعلاً بأمر، ولن تقبل أي فلاح.

- لا يمكن أن تكون كذلك يا سيدي. ألا تفهم أنه لا يمكن أن يكون كذلك؟ لقد كنت صغيراً أيضاً وأعرف ما هذا. أولى النوبات تجعلنا نطارد كل فتاة ليست قبيحة؛ ولكن بعد ذلك يتأمل المرء، ويفكر في الجيد والسيئ، وما هو الأفضل بالنسبة له، ويتهيئ به الأمر إلى عدم القيام بحماقات. ستفكر في الأمر، أليس كذلك يا سيدي؟ كانت الليلة الماضية مزحة، نزوة...

هز فبرر رأسه بقوة. لا؛ لا مزحة ولا نزوة. إنه يحب مارجاليدا (زهرة اللوز) اللطيفة؛ كان مقتنعاً بشغفه، وسيذهب إلى حيث يقوده. كان هدفه أن يفعل من الآن فصاعداً ما تأمره به إرادته، دون أي تحرج أو تحيز. لفترة كافية كان عبداً لهما. لا؛ لا تفكير ولا ندم. إنه يحب مارجاليدا، وكان أحد المتقدمين للزواج منها، وله الحق نفسه مثل أي فتى في الجزيرة. لقد قاله الآن.

رفع ييب -الذي استنكر هذه الكلمات، والمصدوم في أقدم أفكاره وأكثرها تجذراً- يديه، بينما روحه البسيطة تطل من عينيه مع ارتجافات مفاجئة.

- يا إلهي! يا إلهي!

كان يحتاج أن يُشهد الرب ليعبر عن ارتبائه ودهشته. يريد أحد أفراد عائلة فيرر زواج فلاحاً من بيت المايوركي! لم يعد العالم كما هو؛ يبدو أن جميع قوانينه قد اختلت، كأن البحر على وشك أن يغطي الجزيرة وتُزهر أشجار اللوز منذ الآن على الأمواج. لكن هل يدرك دون خايمي ما تعنيه رغبته؟

كل الاحترام الذي أودعه في روح الفلاح خلال سنوات طويلة من العبودية للعائلة النبيلة، والتبجيل الديني الذي غرسه والداه فيه عندما كان يرى - وهو طفل - وصول سادة مايوركا، قد وُلد من جديد الآن، محتجاً على هذه العبثية كشيء مخالف للعادات البشرية والإرادة الإلهية. كان والد دون خايمي شخصية قوية، وأحد الذين يملكون القوانين هناك في مدريد؛ حتى أنه عاش في القصر الملكي. كان يراه في ذاكرته، تماماً كما يتخيله في أوهام طفولته الساذجة، يأمر الرجال كما يشاء؛ قادراً على إرسال بعض الناس إلى المشنقة والعفو عن آخرين، حسب هواه؛ جالساً على مائدة الملوك ولاعباً الورق معهم، تماماً كما يفعل هو مع صديق في حانة سان خوسيه، ويتعامل نداءً بنداً؛ وعندما لا يكون في المحكمة، يصير سيد السفن الحديدية المطلق التي تنفث الدخان ونيران المدافع... وجده الشهير دون أوراثيو؟ رآه بب مراتٍ قليلة، ومع ذلك ظل يرتجف من الاحترام عندما يتذكر مظهره الفخم، ووجهه الجاد، وصدق ابتساماته، وإيماءاته المهيبة التي ترافق لطفه. لقد كان ملكاً قديماً، أحد الملوك الصالحين العادلين، آباء الفقراء، مع الخبز في يد والعصا في الأخرى.

- وهل تريدني -أنا ييب المسكين من بيت المايوركي- أن أكون قريباً لوالدك وجدك، ولكل السادة الذين كانوا سادة مايوركا وشخصيات نافذة في العالم؟ لنرَ يا دون خايمي. أعتقد مرةً أخرى أن كل شيء مزحة؛ جديتك لا تخدعني. كان دون أوراثيو أيضاً يفكر أحياناً في أطراف الأمور دون أن يفقد وجهه كقاضٍ.

جال خايمي بنظره في الجزء الداخلي من البرج مبتسماً لبؤسه.

- لكن إذا كنت أنا فقيراً يا ييب! إذا كنت أنت غنياً مقارنةً بي! لماذا أتذكر عائلتي إذا كنت أعيش على دعمك؟ إذا طردتني، لا أعرف إلى أين يمكنني الذهاب.

عادت بادرة عدم التصديق التي يستقبل ييب بها دائماً هذه التصريحات المتواضعة إلى الظهور.

«فقير! وهذا البرج.. ألم يكن له؟!»، فأجابه فِيرر ضاحكاً! أربع حجارة قديمة، تسقط وهي تعبئة من حياتها؛ جبل غير مزروع، والذي سيكون له بعض الأهمية المُنهكة فقط بسبب الفلاح.. لكن الأخير أصر. بقي له شيء من مايوركا، وعلى الرغم من أنه شيء معقد، فقد كان كثيراً.. كثيراً!

وعندما مد ذراعيه مع إيماءة هائلة، كأنه لا يمكن لأحد أن يحيط بشروة خايمي، أضاف مقتنعاً:

- فرد من آل فِيرر ليس فقيراً أبداً. لا يمكنك أبداً. بعد هذه الأوقات ستأتي أخرى.

تخلّى خايمي عن محاولة جعله يدرك فقره. كان من الأفضل أن يصدق أنه ثري. وبالتالي لا يمكن أن يقول هؤلاء الفتيان الذين ليس لهم أفق آخر غير أفق الجزيرة، أنه كان رجلًا يائسًا يتوق إلى الارتباط مع عائلة بيب لاستعادة أراضي بيت المايوركي.

لماذا اندهش الفلاح من أنه تقدم لمارجاليدا؟ لم يكن هذا سوى تكرار لقصة أبدية: قصة الملك المتنكر والمتشرد الذي يقع في حب الراعية ويمد إليها يده.. وهو لم يكن ملكًا ولا متنكرًا، بل حالة من البؤس الحقيقي.

قال بيب:

- أنا أعرف هذه القصة أيضًا. حكوها لي عدة مرات عندما كنت صبيًا، ثم أخبرتها لأبنائي.. أنا لا أقول إنه لم يحدث بهذه الطريقة؛ ولكن في أزمنة أخرى... في أزمنة أخرى بعيدة: عندما كانت الحيوانات تتكلم.

بالنسبة إلى بيب، كانت العصور القديمة السحيقة وحالة الإنسان الهائلة دائمًا الأزمنة السعيدة «عندما كانت الحيوانات تتكلم».

ولكن الآن! الآن اكتشف هو -على الرغم من أنه لا يستطيع القراءة- أمورًا من العالم عندما يذهب إلى سان خوسيه أيام الآحاد ويتحدث مع سكرتير مجلس المدينة وغيرهم من الأشخاص المتعلمين الذين يقرؤون الصحف. يتزوج الملوك ملكات، وتزوج راعيات الغنم رعاة غنم.

انتهت الأزمنة الجيدة.

- لكن هل تعلم ما إذا كانت مارجاليدا تحبني أم لا؟ هل أنت متأكد من أن كل هذا يبدو بالنسبة لها هراء، كما هو الحال بالنسبة لك؟
ظل بيب صامتاً وقتاً طويلاً، وهو يضع يده تحت قبعته التي من اللبد ويرتدي منديلاً حريريّاً بأسلوبٍ أنثوي، ليحك الخصلات المجددة والشائبة على رأسه. ابتسم بخبثٍ وفي الوقت نفسه بازدراء، كأنه مسرور بالدونية التي تعيش فيها الأنثى في الريف.

- النساء! مَنْ يدري ما يفكرن به يا دون خايمي؟! مارجاليدا مثلهن جميعاً: صديقة الغرور والأمور غير العادية. في عمرها، يحلمن جميعهن أن كونتاً أو مركيزاً سيأتي ليأخذهن في عربة ذهبية، وأن صديقاتهن سيمنحن حسداً. أنا أيضاً -عندما كنت شاباً- غالباً ما اعتقدت أن أغني فتاة في إبيزا ستأتي لتزوجني، فتاة لم أعرف مَنْ يمكن أن تكون، لكنها جميلة مثل العذراء ولديها حقول بحجم نصف الجزيرة.. إنها أمور صغار السن.

ثم أضاف متوقفاً عن الابتسام:

- أجل؛ ربما تريدك ولا أدرك ما ترغب فيه. هذا الأمر الخاص بالحب وبالشباب غريب جداً! تبكي عندما يخبرونها عن تلك الليلة؛ تقول إنه جنون، لكن ليس بكلمة ضدك... آه! يود القلب أن أفهمها!
استقبل فيرر هذه الكلمات بابتسامة مبهجة؛ لكن الفلاح بدد فوراً فرحته، مضيقاً بقوة:

- لا يمكن أن يكون، ولن يكون... تفكر مهما تفكر، أنا أعارض؛ لأنني والدها وأريد الخير لها... آه يا دون خايمي! كل شخص مع ذويه. كل هذا يذكرني براهب عاش بمفرده في كوبيس، رجل حكيم، وبسبب أنه حكيم ونصف مجنون، أصر على الحصول على صغار من ديك ونورس: نورس بحجم إوزة.

وكان يصف -بجدية الريفي- الحياة والتقاء الحيوانات وقلق الفلاحين عندما يذهبون إلى كوبيس، ويتجمعون بفضول حول القفص الكبير حيث الديك وطير النورس تحت رقابة الراهب.

- استمر عمل هذا الرجل الطيب سنوات، ولا فرخ! أمام المستحيل لا يستطيع الرجال فعل أي شيء. كانا لديهما دماء مختلفة؛ يعيشان معًا وفي هدوء، لكنهما لم يكونا متماثلين ولا يمكن أن يكونا كذلك. كل واحد مع ذويه.

وعندما قال هذا، جمع بيب أطباق الطعام من على المائدة، واحتفظ بها في السلة، مستعدًا للمغادرة.

قال بمشايرته الريفية:

- لقد اتفقنا يا دون خايمي على أن كل شيء مزحة، ولن تزعج الفتاة بأوهامك.

- لا يا بيب. اتفقنا على أنني أحب مارجاليدا، وسأذهب إلى حفلة توددها مع الحقوق نفسها التي يتمتع بها أي فتى في الجزيرة. يجب احترام العادات القديمة.

وابتسم أمام لفظة الفلاح الغاضبة. هز بيب رأسه في إشارة لاحتجاجه، مكرراً أن هذا مستحيل. كانت فتيات المنطقة سيسخرن من مارجاليدا، مبتهجات بهذا المتقدم الغريب الذي خالف نظام العادات. ربما سيفتري الخبثاء كذباً على بيت المايوركي، الذي كان له ماضٍ نزيه كأفضل عائلة في الجزيرة. حتى أصدقاؤه - عندما يذهب لحضور القداس في سان خوسيه، ويلتقي بهم في دير الكنيسة - سيفترضون أنه كان طموحاً وأراد تحويل ابنته إلى سيدة شابة.. ولم يكن الأمر كذلك فقط. كان عليه أن يخشى غضب خصومه، وغيره هؤلاء الفتيان الذين اندهشوا عندما رأوه يدخل وسط العاصفة ويجلس بجانب مارجاليدا. بالتأكيد الآن في ذلك الوقت كانت قد انتهت دهشتهم، وكانوا يتحدثون عنه، ويتفقدون جميعاً لمواجهة الغريب. هم من الجزيرة كما هم. يتقائلون فيما بينهم، دون إزعاج من هم من الخارج؛ لأنهم يعتقدون أنه غريب عن حياتهم، مختلف عن شغفهم. ولكن إذا كان الأجنبي متورطاً في شؤونهم، وإلى جانب كونه أجنبياً، كان من مايوركا! متى سُوهِد أناس من بلدان أخرى يتنافسون من أجل عروس إيبيزية؟ دون خايمي، من أجل والده! من أجل جده النبيل! كان يتوسل إليه بيب، الذي يعرفه منذ أن كان طفلاً. كان بيت المزرعة له، كل سكانه يتمنون خدمته... لكن لا يجب أن يصر على هذه النزوة؛ لأنها ستجلب إليه مصيبة.

انتصب فيرر -الذي يستمع باحترام حتى ذلك الحين- أمام كلمات بيب. ثارت شخصيته الوقحة، كأنه تلقى للتو إهانة خطيرة بمخاوف الفلاح. مخاوف منه! شعر أنه قادر على قتال كل فتیان الجزيرة. لم يكن

هناك أحد في إبيزا يجعله يتراجع. أُضيف إلى شغفه العدواني كمُحب غطرسة العرق، وكراهية الأجداد التي تفصل بين سكّان الجزيرتين. سأذهب إلى التودد؛ كان لديه رفقاء طيبون للدفاع عنه في حالة المتاعب. ونظر إلى البندقية المعلقة على الحائط، بعد أن مرت عيناه على الحزام حيث كان يخفي المسدس.

خفض ييب رأسه مكتئبًا. كان هو نفسه عندما كان صغيرًا. تركب النساء أعظم الحماقات. كان من غير المجدي الإصرار على إقناع السيد العنيد والمتغطرس مثل كل ذويه.

- افعل ما تشاء يا دون خايمي؛ لكن تذكر ما أخبرك به. تنتظرنا مصيبة.. مصيبة كبيرة.

خرج الفلاح من البرج، وراه خايمي يتعد عن التلة باتجاه بيته الريفي، وتتحرك بدفعات نسيم البحر أطراف منديله والشال النسائي الذي يرتديه على كتفيه.

اختفى ييب خلف سياج النباتات الشائكة لبيت المايوركي. كان فيبرر على وشك أن يتعد عن الباب عندما رأى صبيًا يخرج من بين مجموعات نبات الأثل على المنحدر، وبعد أن نظر من جانب إلى آخر للتأكد من عدم ملاحظته، ركض نحوه. كان القسيس. قفز فوق سلم البرج، وعندما رأى نفسه أمام، فيبرر انفجر ضاحكًا، مُظهرًا عاج أسنانه المحاط باللون الوردي الداكن.

منذ الليلة التي ظهر فيها السيد في المزرعة، كان القسيس يعامله بأكبر قدر من الثقة، كأنه يعتبره الآن من العائلة. لم يعترض على الحدث

الاستثنائي. كان من الطبيعي بالنسبة له أن يُعجب السيد بمارجاليدا وأن يريد زواجها.

سأل فيرر:

- لكن، ألم تكن في كوبيس؟

ضحك الصبي مرةً أخرى. كان قد ترك والدته وأخته في منتصف الطريق، واختبأ بين نباتات الأثل وانتظر عودة والده من البرج. لا شك أن الرجل العجوز يريد التحدث عن أمور مهمة مع دون خايمي؛ لهذا السبب أبعدهم جميعاً، متحملاً مسؤولية إحضار الطعام بنفسه. منذ يومين لا يتحدث في المنزل إلا عن هذه المقابلة فقط. خجله واحترامه للسيد جعلاه يتردد، لكنه اتخذ قراره أخيراً. كانت خطوبة مارجاليدا تجعله في مزاج سيئ. هل كان الرجل العجوز متذمراً بشدة؟

رغب فيرر في تجنب هذه الأسئلة، سألها أسئلة أخرى ببعض القلق. و(زهرة اللوز)؟ ماذا تقول عندما يتحدث القسيس عنه؟

انتصب الصبي بزهو، راضياً عن حماية السيد. لم تقل أخته شيئاً؛ أحياناً تبتسم عند سماع اسم دون خايمي، وأحياناً أخرى تبتل عيناها، وغالباً ما تُنهي المحادثة وهي تنصح القسيس بعدم التورط في هذا الأمر وإرضاء الأب بالذهاب للدراسة في المدرسة الإكليريكية.

تابع الصبي، وكان تتملكه الأهمية الجديدة لشخصه:

- سيتم ترتيب هذا يا سيدي. سيتم إصلاحه؛ أنا أقول لك هذا. أنا متأكد من أن أختي تحبك كثيراً.. لكن لديها بعض الخوف منك،

وبعض الاحترام. مَنْ كان يتوقع منك أن تلاحظها؟! يبدو الجميع في المنزل مجانين. أبي عابس ويتحدث إلى نفسه؛ أمي تئن وتهتف للعدراء؛ مارجاليدا تبكي؛ بينما يعتقد الناس أننا الأكثر سعادة. لكن هذا سينصلح يا دون خايمي.. أنا أعدك.

كان يقلقه شيئاً آخر، بصرف النظر عن رغبة مارجاليدا. وبينما يتحدث، توجهت أفكاره إلى أصدقائه القدامى، الفتيان الذين يتوددون إلى (زهرة اللوز). «انتبه يا سيدي! كن حذرًا جدًا!». لم يعرف شيئاً مؤكّد. حتى أنه شك في أن هؤلاء الصبية فقدوا الثقة فيه، وامتنعوا عن التحدث في حضوره. لكن من المؤكّد أنهم يحيكون شيئاً ما. قبل أسبوع بدا أنهم يكرهون بعضهم ويعيشون منفصلين عن بعضهم؛ الآن اجتمعوا جميعاً ليكرهوا الغريب. كانوا صامتين، لكن صمتهم كان متحفّظاً، لا مطمئناً. الشخص الوحيد الذي صرخ وتحرك بغضب حمل مسعور كان المغني، وانتصب بجسده المسلول، مؤكّداً بين السعال القاسي عزمه على قتل المايوركي.

تابع الصبي:

- لقد فقدوا احترامهم لك يا دون خايمي. عندما رأوك تدخل وتجلس بجانب أختي، كانوا مثل الحمقى. لم أدرك أيضاً ما كنت أراه، وذلك لأنني ولفترة طويلة شعرت أنك غير مبالٍ بمارجاليدا. كنت تسأل عنها كثيراً... ولكن الآن انتهى خوفهم، وسيفعلون شيئاً: سيفعلونه! وهم على حق. متى شُوهد الأجانب في سان خوسيه يأتون ليأخذوا العروس بعيداً عن بعض الفتيان الذين هم الأشجع في الجزيرة؟!

جذب تفاخر سكان البلدة إلى مشاركة القسيس لآراء الآخرين للحظات، ولكن سرعان ما تولد من جديد امتنانه ووده لفبرر.

- لا يهم. أنت تحبها، وهذا كل شيء. لماذا يتعين على أختي أن تذهب للعمل في الأرض وتعاني من التعب، بينما يهتم بها رجل مثلك؟ إلى جانب ذلك -وهنا ابتسم الوغد بشكلٍ خبيث- هذا الزواج يناسبني. حضرتك لن تزرع الحقول، بل ستأخذ مارجاليدا معك، وسيسمح لي الرجل العجوز أن أكون مزارعًا وأتزوج، حيث لن يضطر أحد إلى مغادرة بيت المايوركي، وداعًا للكهنوت! أقول لحضرتك يا دون خايمي أن تأخذها. أنا هنا -الكاهن- للقتال مع نصف الجزيرة للدفاع عنك.

نظر من جهة إلى أخرى، كأنه يخاف من التقاء شوارب وأعين الحرس المدني الصارمة، ثم بعد تردد رجل متواضع يخشى الكشف عن خطورته، وضع يده على وسطه وسحب من داخل حزامه، وأخرج سكينًا بدا بريقها ونظافتها الفاتنة.

قال مُعجبًا بنعومة الفولاذ البكر وهو ينظر إلى فبرر:

- أليس كذلك؟

كانت السكين التي أهدها إياها خايمي في اليوم السابق. ولأنه في حالة مزاجية جيدة، فقد جعل القسيس يركع على ركبتيه. ثم -بجدية ساخرة- ضربه بسلاحه، وأعلنه فارسًا لا يقهر في منطقة سان خوسيه، والجزيرة بأكملها والمضايق والجبال المجاورة. كان الوغد -المرتجف من التأثير بسبب الهدية- يحتفي بالطقس بجدية، معتقدًا أن شيئًا لا غنى عنه يحدث بين السادة.

سأل مرةً أخرى، وهو ينظر إلى دون خايمي كأنه يحميه بكل
شجاعته العظيمة:

- إيه؟

كان يمرر إصبعه برفق على طول الحافة، ثم يضع رأس إصبعه على
طرفها، مستمتعًا بشعور وخزها الحاد. يا لها من جوهرة!
هز فبرر رأسه. أجل؛ كان يعرف السلاح: لقد أحضره بنفسه من
إبيزا.

تابع الصبي:

- حسنًا، مع هذا لا يوجد وسيم يمكنه الوقوف أمامنا. الحداد؟
كذب! المغني وجميع الآخرين؟ كذب أيضًا! وليس لديّ رغبة كبيرة
في استخدامها! من يحاول عمل شيء ضدك يُحكم عليه بالإعدام.
وبعد ذلك -بحزن رجل عظيم يضع الوقت دون أن يعطي قدرًا
لأهميته- خافضًا عينيه:

- عندما كان جدي في عمري، يقولون إنه كان وغدًا حقًا آثار
الخوف في الجزيرة بأكملها.

قضى القسيس جزءًا من المساء في البرج، متحدثًا عن أعداء
دون خايمي المفترضين، الذين يعتبرهم الآن أعداءه، حيث أخفى
سكينه لإخراجها مرةً أخرى، كأنه بحاجة إلى تأمل صورته المشوهة
على الشفرة المصقولة، وهو يحلم بالمعارك المهولة التي تنتهي دائمًا
بهروب أو موت الغُرماء، وينقذ بشهامة دون خايمي المحاصر. ضحك

الأخير على زهو الصبي، واعتبر رغبته في القتال والتدمير مزحة.

عند المساء نزل إلى المزرعة ليحضر له العشاء. لقد وجد فعلاً في الشرفة عددًا من المتوددين الذين قدموا من بعيد، جالسين على المقاعد في انتظار بداية الاحتفال. «أراك لاحقاً يا سيد خايمي!».

بمجرد إطباق الليل، استعد فيرر للنزول إلى بيت المزرعة، بتعبير متجهم ونظرة فاحصة، يده متوترتان بسبب رجفة قاتلة طفيفة، مثل محارب بدائي يشرع في رحلة استكشافية من القمة إلى الوادي. قبل أن يلقي الحائك على كتفيه، أخرج مسدسه من الحزام، وفحص بدقة حالة العُلب وطقم المفتاح. كل شيء عادي! أول مَنْ يحاول عمل شيء ضده، سيضع الطلقات الست في رأسه. شعر بنفسه همجياً قاسي القلب، مثل أحد هؤلاء الفيرر أسود البحر، الذين يقفزون على شواطئ العدو، ويقتلون لكي لا يموتوا.

مشى على المنحدر، بين مجموعات الأثل، التي تُحرك كتلها المتموجة في العتمة، وضع إحدى يديه في الحزام وداعب مؤخرة مسدسه. لا أحد! عند وصوله إلى شرفة بيت المايوركي، وجده مليئاً بالفتيان المنتظرين واقفين أو جالسين على المقاعد الحجرية حتى تنتهي العائلة من عشاءها في المطبخ. خمنهم فيرر في الظلام برائحة القنب الخاصة بالنعال الكتانية الجديدة ورائحة الصوف الخشن لشلاتهم والحوائك. وتدل شرارات السجائر الحمراء في الجزء الخلفي من الشرفة إلى مجموعات أخرى منتظرة.

قال فيرر عند وصوله:

- طاب مساؤكم!

أجابوه فقط بهمهمة بسيطة. توقفت المحادثات التي تجري بأصواتٍ خافتة، وبدأ أصمت معادٍ وصعب يُثقل على كل هؤلاء الرجال. استند خايمي على عمود الشرفة المربع، وجهته مرتفعة، وإيماءته متعجرفة، وتبرز هيئته على خلفية الأفق، كأنه خمن الأعين المثبتة عليه في الظلام.

يشعر ببعض الانفعال، لكن ليس الخوف. كاد ينسى الأعداء المحيطة. يفكر بقلق في مارجاليدا. شعر بقشعريرة الحبيب يخمن قرب المرأة التي يعشقها ويشك في حظه، يخاف ويرغب في ظهورها في الوقت نفسه. عادت إليه بعض ذكريات من الماضي، جعلته يتسم. ماذا ستقول الآنسة ماري إذا رأتَه محاطًا بهؤلاء الريفيين، يرتجف ويتردد عندما يفكر في قرب فتاة فلاحية؟ كم ستضحك صديقائه السابقات من مدريد ومن باريس عندما يقابلنه في شرفة الريفية هذه، وهو مستعد للقتل من أجل غزو امرأة تكاد تكون مساوية لخدماته!

فُتح باب بيت المزرعة -الذي كان مواربًا- مُظهرًا صورة بيب الظلية في مستطيله ذي الضوء الأحمر.

قال مثل البطريق الذي يفهم أشواق الشباب ويضحك عليهم بلطف:

- هيا أيها الرجال!

ودخل الرجال واحدًا تلو الآخر، يحيون السيد بيب وعائلته،

ويشغلون مقاعد وكراسي المطبخ كالأطفال الذين يصلون إلى المدرسة.
ذهل فلاح بيت المايوركي عند التعرف على السيد. ينتظر هناك مع الآخرين، مثل طالب الزواج البسيط، دون أن يجروء على دخول منزل كان له! رد فبرر برفع كتفيه. أراد أن يفعل الشيء نفسه مثل الآخرين. يتخيل أنه بهذه الطريقة سيكون من الأسهل عليه تحقيق رغباته. لا شيء يُذكر بمكانته السابقة كصديق محترم وسيد: متودد لا شيء أكثر من ذلك.

جعله يبب يجلس بجانبه. محاولاً تشتيت انتباهه بمحادثته، لكنه لم يرفع عينيه عن (زهرة اللوز) التي -ملتزمةً بطقوس الاحتفال- تجلس على كرسي في وسط الغرفة، تستقبل -بإيماءات ملكة خجولة- إعجاب خطابها.

ذهبوا واحداً تلو الآخر ليجلسوا جميعهم بجوار مارجاليدا، التي ترد بصوت هادئ على كلماتهم. وتظاهر بعدم رؤية دون خايمي؛ تقريباً كانت تدير ظهرها له. كان الخاطبون الذين ينتظرون دورهم صامتين، دون الشرقة المرحية التي يستمتعون بها في أثناء انتظارهم في الليالي الأخرى. بدا أن شيئاً حزيناً يثقل كاهلهم، مما أجبرهم على التزام الصمت، بأعين حزينة وشفاه مزمومة، كأن هناك شخصاً ميتاً في الغرفة المجاورة. كان وجود الأجنبي الدخيل الغريب عن طبقتهم وعاداتهم. المايوركي اللعين!

عندما مر جميع الشباب على الكرسي المجاور لمارجاليدا، نهض السيد. كان آخر متودد متواجد، وقد جاء دوره بعدل. وقف ببب -الذي

تحدث إليه باستمرار لإلهائه - فجأةً وفمه مفتوح عندما رأى كيف ابتعد دون أن يستمع إليه أكثر.

جلس بجانب مارجاليدا - التي تبدي أنها لا تراه - ورأسها منحني، وعيناها مثبتتان على ركبتيها. بقي جميع الفتيان صامتين؛ لأن في الجو الهادئ ستدوي أتفه كلمات الغريب؛ لكن بيب - مخمناً هذه النية - بدأ في التحدث بصوت عالٍ مع زوجته وابنه حول الأعمال التي عليهم القيام بها في اليوم التالي.

- مارجاليدا! يا (زهرة اللوز)!

كان صوت فيرر مثل الهمس يداعب أذني الصبية. كان هناك؛ ليقنعها أنه حب، حب حقيقي، ذاك الذي تعتبره هي نزوة. بالتأكيد لم يعرف فيرر بعد كيف حدث ذلك. يشعر بعدم الراحة في وحدته، وبشوق غامض لأشياء أفضل، والتي ربما تكون في متناول يده، لكنه في عماء لم يستطع التعرف عليها، حتى رأى فجأةً وبوضوح مكان السعادة... هي.. مارجاليدا! (زهرة اللوز)! لم يكن شاباً، كان فقيراً؛ لكنه كان يحبها كثيراً! مجرد كلمة واحدة.. شيء لتبديد التردد الذي يعيش فيه.

وعندما شعرت بضم فيرر أقرب، عندما أحست بأنفاسه المحترقة، حركت رأسها قليلاً: «لا، لا. اذهب بعيداً! أنا خائفة»، ارتفعت عيناه لينظر سريعاً إلى كل هؤلاء الشباب السمر، ذوي التعابير المأساوية، الذين بدا أنهم يحرقونهما بجذوة أحداقهم.

الخوف! كانت هذه الكلمة كافية ليخرج فيرر من خجله وينظر بغطرسة إلى المنافسين الجالسين أمامه. خوف على من؟ شعر أنه قادر

على قتال كل هؤلاء الريفين وأقاربهم الذين لا حصر لهم. «لا تخافي، يا مارجاليدا!»، لا يجب الخوف ولا عليه ولا عليها. كان خايمي يتوسل إليها لتجيب على سؤاله. هل يمكن أن ينتظر؟ ماذا كانت ستجيبه؟

لكن مارجاليدا بقيت صامته، وشفتاها ممتعتان، ووجنتاها شاحبتان مع بياض مُصْفَر، تُحرك جفניה لتُخبئ خلف رموشها عينيها الرطبتين الدامعتين. كانت ستبكي. يخمنون جهودها لاحتواء دموعها. تتنفس بضيق. يمكن أن تكون دموعها -التي تنشق فجأة في هذه البيئة المعادية- إشارة للقتال. سيحدثون انفجارًا لكل الغضب العظيم الذي تخمنه من حولها. لا.. لا! ولن يؤدي جهدها إلا زيادة ضيقها، مما يجبرها على خفض وجهها مثل البهائم الوديدة والخجولة، التي تعتقد أنها يمكن أن تنقذ نفسها من الخطر بإخفاء رؤوسها. شعرت الأم -التي تضفر السلال في الزاوية- بالقلق بغريزتها كأمراة. أدركت روحها البسيطة حالة مارجاليدا. تدخل الأب، عندما رأى القلق في عيني الحيوان الحزين والمستسلم، في وقتٍ مناسب.

«التاسعة والنصف...» كانت هناك حركة مفاجأة واحتجاج في مجموعة الفتیان. لا يزال الوقت مبكرًا، وهناك عدة دقائق متبقية.. ما تم التعامل به هو قانون. لكن بيب -بعناذه الفلاحي- تصام، مرددًا الكلمات نفسه وهو يقف ويذهب إلى الباب، ويفتحه كاملاً: «التاسعة والنصف». كل واحد سيد في منزله، وقد فعل ما يراه أفضل في منزله. كان عليه أن يستيقظ باكراً في اليوم التالي: «طاب مساؤكم».

وسلم على المتوددين عند خروجهم من المنزل. عندما مر خايمي

أمامه مكفهرًا ومغتاظًا، حاول أن يستوقفه بذراعه. لا بد له من الانتظار؛ سيرافقه هو إلى البرج. ينظر بقلق إلى الحداد، الذي بقي وراءه، مؤخرًا رحيله من المنزل طوعًا.

لكن الرجل لم يجبه، وتحرر من ذراعه بحركة وقحة. شعر بالغضب من صمت مارجاليدا الذي يعتبره فشلًا، ومن موقف الشباب العدائي، ومن الطريقة غير المألوفة التي انتهت بها السهرة.

انتشر الفتیان في الظل دون صراخ أو صهيل أو غناء، كأنهم عائدون من جنازة. كان شيء مأساوي يطفو في عتمة الليل.

استمر فيبرر في طريقه دون النظر إلى الورا، راغبًا في أن يسمع شخصًا يسير خلف خطاه، وظن أن الحفيف الخفيف لأغصان الأثل تحت نسيم الليل زحفًا غامضًا للمطاردين.

عندما وصل إلى سفح التل حيث الشجيرات أكثر كثافة، استدار ووقف بلا حراك. ظهرت صورته الظلية على بياض الطريق في ضوء النجوم غير الواضح. كان المسدس في يده اليمنى، يضغط على مؤخرته بعصبية، وإصبع محمومة تداعب الزناد، حريصًا على إطلاق النار. آه! ألن يتبعه أحد؟ ألن يظهر الوغد أو أي من الأعداء الآخرين؟

مر الوقت دون أن يظهر أحد. بدت النباتات البرية -الضخمة بسبب الظل والغموض- من حوله ضاحكةً بشكلٍ ساخر من غضبه بهمهمات شديدة. أخيرًا، بدا أن الهدوء البارد للأرض الخاملة أثر فيه. انتهى به الأمر برفع كتفيه بإشارة ازدراء، حاملاً المسدس أمامه، واستمر في طريقه حتى حبس نفسه في البرج.

قضى اليوم التالي كاملاً في البحر مع العم يتولرو. عند العودة إلى مسكنه، وجد العشاء الذي أحضره القسيس بارداً على الطاولة. كشفت له بعض الصلبان واسم فيرر المحفورين على الحائط بطرف فولاذ عن زيارة الفتى. لم يستطع الإكليريكي أن يبقى هادئاً بسكين في متناول يده. في اليوم التالي ظهر صبي بيت المايوركي في البرج بهيئة غامضة. كان عليه أن يخبر دون خايمي بأمور مهمة. في مساء اليوم السابق، وهو يتجول ملاحقاً طائراً معيناً عبر غابة الصنوبر بجوار كُور الحداد، رأى من بعيد -تحت سقيفة دكان الحدادة- الوغد يتحدث إلى المغني.

سأل فيرر، مستغرباً من أن الصبي صمت:

- وماذا بعد؟

لا شيء آخر. هل يبدو الأمر قليلاً بالنسبة له؟ لم يكن المغني مولعاً بالمرتفعات؛ لأن المنحدرات تجعله يسعل. يسير دائماً في الوديان، ويجلس تحت أشجار اللوز والتين ليتكرر أطروحاته. إذا كان قد صعد إلى دكان الحدادة، فذلك بلا شك لأن الحداد قد استدعاه. كانا كلاهما يتحدث بحماس كبير. ويبدو أن الوغد قدم إليه النصيحة، وكان المسكين يجيبه بإيماءات إيجابية.

وعاد فيرر للسؤال:

- وماذا؟

يبدو أن القسيس يشعر بالشفقة من بساطة الرجل النبيل. «احترس يا دون خايمي!». هو لا يعرف الناس على الجزيرة. ألهمة هذه المحادثة

في كُور الحداد الحرص. كانوا يوم السبت: كانت تلك الليلة احتفالية.
من المؤكد أنهما يستعدان لشيءٍ ما ضد السيد، حين يظهر في بيت
المايور كي.

استقبل فيبرر هذه الكلمات بإيماءة ازدراء. سينزل، على الرغم من
كل شيء... هل يظنان أنهما أخافاه؟! ما يؤسفه هو أن الأمر استغرق
وقتًا طويلًا لمهاجمته.

أمضى بقية اليوم في حالة من التوتر العدواني، متطلعًا إلى حلول
الظلام سريعًا. تجنب الاقتراب من بيت المايور كي في نزهاته، يتأمله من
بعيد؛ على أمل أن يرى للحظات هيئة مارجاليدا الرشيقة تحت الشرفة.
ليس لهذا السبب لا يتجرأ على الاقتراب، كأن خجلًا لا يقاوم يسد
الطريق إلى المزرعة، بينما الشمس مشرقة. منذ أن طلب يدها للزواج
لم يستطع الحضور كصديق. قد يكون وصوله محرّجًا لعائلة بيب. كان
يخشى أن تختبئ الفتاة عندما تراه.

حالما زال ضوء الشمس وبدأت النجوم تتألق في سماء شتوية
صافية، نزل فيبرر من البرج.

خلال الطريق القصير إلى بيت المزرعة، عادت ذكريات الماضي
إلى الظهور في ذاكرته، بدقة ساخرة، تمامًا كما حدث في الليلة السابقة
من الخطوبة.

إذا كان بإمكان الأنسة ماري رؤيتي! -فكر- ربما تقارني بسيفريد
الريفي وهو ذاهب لقتل التنين الذي يحرس كنز إيزا.. إذا رأني نساء
آخرات ممن عرفتهن، سيجدن كل شيء سخيفًا!

لكن حبه تغلب فورًا على مثل هذه الذكريات. لو رأوه! ماذا إذن؟ كانت قيمة مارجاليدا أكثر من قيمة الإناث اللاتي كان يعرفهن من قبل: كانت الأولى والوحيدة. بدا له كل شيء في تاريخه الماضي زائفًا ومصطنعًا، مثل الحياة التي تظهر على خشبة المسرح، مصبوغة ومبهرجة في ضوء خادع. لن يعود أبدًا إلى ذلك العالم الخيالي. كان الواقع هو الحاضر.

عند وصوله إلى الشرفة، وجد الخاطبين مجتمعين، وبدأ أنهم يتجادلون بصوتٍ مكتوم. وعند رؤيته، صمتوا فورًا.

- طاب مساؤكم!

لم يجب أحد. لم يستقبلوه حتى بهمة الليلة الماضية.

وعندما سمح لهم بيب -وهو يفتح الباب- بالدخول إلى المطبخ، رأى فيرر أن المغني يحمل الطبلية الصغيرة معلقة في إحدى ذراعيه، وفي يده اليمنى عصا يضرب بها جلد الطبلية.

كانت ليلة الموسيقى. ابتسم بعض الفتيان وهم يشغلون أماكنهم بتعبيرٍ خبيث، كأنهم يفرحون مقدمًا بشيءٍ غير عادي. ظهر آخرون، أكثر جدية في إيماءاتهم الاشمئزازية النبيلة لأولئك الذين يخشون مشاهدة فعل سيئ لا مفر منه. ظل الحداد هادئًا في واحدة من أكثر الزوايا النائية، محاولاً أن يجعل نفسه أصغر حجمًا، ليمر بين رفاقه دون أن يلاحظه أحد.

تحدث عدد قليل من الفتيان مع مارجاليدا، ولكن فجأة -عندما

رأى الكرسي فارغاً- تقدم المغني ليجلس عليه، وهو يمسك الطبله بين ركبته وكوعه ويسند جبهته على يده اليسرى. ضربت العصا جلد الطبل ببطء، بينما رن صفير طويل يدعو إلى الصمت. لقد كان شعراً جديداً: كل يوم سبت كان المغني يجلب الأبيات تكريراً لفتاة بيت المزرعة. سحر الموسيقى البربرية والرتيبة -التي تحظى بالإعجاب منذ الصغر- أجبرت الجميع على الصمت. لقد جعلت مشاعر الشعر المقدسة هذه النفوس البسيطة ترتجف مقدماً.

بدأ المسلول المسكين الغناء، ليصاحب كل بيت بقرقرة أخيرة تهز صدره وتلون خديه باللون الأحمر. ولكن المغني يظهر هذه الليلة قوة أكبر من أي وقت مضى: كانت عيناه تتألقان بشكل غير عادي.

في الأبيات الأولى، رنت قهقهة عامة في المطبخ من جديد، احتفالاً بأملوحة الشاعر الريفي الساخرة.

لم يفهم فيرر كثيراً. عندما يستمع إلى هذه الموسيقى الرتيبة والصهيل، والتي تذكره بالأغاني الأولى للبحارة السامين المنتشرين في البحر المتوسط، كان يغوص في أفكار أخرى ليجعل الانتظار قصيراً ويعاني أقل من الطول غير العادي للقصيدة الغرامية.

جذبت قهقهات الفتيان انتباهه، مخمناً بشكلٍ مربك شيئاً معادياً لشخصه. ماذا يقول ذلك الحمل المسعور؟ صوت المغني -نطقه الفلاحي والقرقرة المستمرة التي تقطع الأبيات- كان بالكاد مفهوماً لخايمي؛ لكنه أدرك ببطء أن القصيدة الغرامية كانت موجهة إلى الفتيات اللاتي يرغبن في مغادرة الريف والزواج من السادة، لارتداء

زينة سيدات المدينة. وكان المغني يصف أزياء النساء بعبارات غريبة جعلت الفلاحين يضحكون.

كان بيب البسيط يضحك أيضًا على هذه النكات التي تثير فخره الفلاحي وغروره كرجل يميل إلى رؤية الأنثى ليست أكثر من رفيقة في المشقة. «حقيقي! حقيقي!»، وانضمت قهقهته إلى قهقهة الشباب. يا له من غناء مضحك!

لكن بعد بضعة أبيات لم يعد يتحدث المرتجل عن الفتيات بشكل عام، بل عن فتاة واحدة، طموحة وبلا قلب. نظر فيبر بشكل غريزي إلى مارجاليدا، التي بقيت بلا حراك، وعيناها حزيتان، ووجنتاها شاحبتان، كأنها خائفة، ليس مما تسمعه، ولكن مما سيحدث لاحقًا بلا شك.

تملأ خايمي في مقعده. يزعجها ذلك الريني بهذه الطريقة في وجوده! قهقهة أكثر صخبًا ووقاحة من هؤلاء الشباب لفتت انتباهه مرة أخرى إلى الأبيات. كان المغني يسخر من الفتاة التي تريد الزواج من رجل فقير مفلس بدون منزل وبدون أسرة؛ دخيل ليس لديه أرض يزرعها، من أجل أن تكون سيدة.

كان تأثير هذه الأبيات فوريًا. رأى بيب -في كثافة أفكاره الكثيرة- شيئًا يطفو مثل شرارة نار، تكهن واضح، ومد يديه بشكل أمر وهو يستوي في جلسته:

- يكفي! يكفي!

لكن كان من غير المجدي أن يصرخ «كفى!». وقف شبح بينه وبين ضوء الشمعة؛ جسد فيبر الذي انتصب بقفزة.

بجرة واحدة فقط قام بانتزاع الطبلّة الصغيرة من بين ركبتيّ المغني، وألقى بها فوراً على رأسه. وهذا العنف -الذي أدى إلى كسر الرقعة- ترك الصندوق مثل قبة عوجاء على جبين الصبي الملطخ بالدماء.

قفز الفتيان من مقاعدهم دون أن يعرفوا بالضبط ما يفعلون، لكنهم جميعاً وضعوا أيديهم على الحزام. احتمت مارجاليدا إلى جانب والدتها، واعتقد القسيس أن الوقت قد حان لإخراج سكينه. تغلب الأب -بحكم السن- على الجميع: « اخرجوا! اخرجوا! ».

أطاع الجميع، وغادروا خارج بيت المزرعة للتوقف في وسط الحقل. خرج فبرر أيضاً على الرغم من مقاومة بيب.

بدا الفتيان منقسمين، يتجادلون بحرارة. احتج بعضهم: «ضرب المغني المسكين، البائس المريض الذي لا يستطع الدفاع عن نفسه!»، فهز آخرون رؤوسهم. كانوا يتوقعون ذلك؛ فلا يمكنك إهانة رجل بلا عقاب دون حدوث شيء. لقد عارضوا الأغنية؛ كانوا مؤيدون؛ لأن الرجال عندما يتعين عليهم قول شيء ما لبعضهم، يقولونه وجهاً لوجه. كادوا أن يتشاجروا، مع غضب آرائهم المتضاربة وتنافسهم في الحب، عندما صرف المغني انتباههم. لقد تخلص من الطبلّة المغروسة في رأسه، وكان ينظف الدم عن جبهته. كان يبكي من غضب الضعيف الساخط، القادر على الانتقام الأعظم، لكنه في الوقت نفسه يشعر بأنه عبد لعجزه.

- أنا! أنا!

تأوه بدهشة من هذا الهجوم. وفجأة انحنى يبحث عن حجارة في الظلام؛ ليلقيها على فيبرر، ومع كل حجر كان يتلوى بضع خطوات، كأنه يدافع عن نفسه ضد هجوم جديد. فقد الحصى الذي ألقاه ذراعاه الضعيفتان، في الظل أو ارتد على الشرفة.

ثم لم يعد للحجارة صوت. بعض أصدقاء المغني سحبوه بعيداً في الظلام. سُمعت صيحاته من بعيد، مطلقاً تهديدات، مُقسماً على الانتقام... «سأقتل الغريب! سيقضي هو فقط على المايوركي!».

بقي بلا حراك، بيدٍ على حزامه، بين عدد من الأعداء. شعر بالخجل من ثورته. ضرب المسكين المسلول! لخنق ندمه، نطق بإهانات متعجرفة بصوتٍ منخفض. كان يتمنى لو غنى شخص آخر! وبحشت عيناه عن الحداد، لكن الوغد المخيف اختفى.

عندما كان فيبرر يعود إلى برجه بعد نصف ساعة بعد أن هدأت الاضطرابات، توقف عدة مرات في الطريق، ومسدسه في يده اليمنى، كأنه يتوقع شخصاً ما.

لا أحد!



بمجرد أن أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، ركض القسيس بحثاً عن دون خايمي، وملامحه تكشف عند دخوله البرج عن أهمية الأخبار التي يحملها.

قضوا جميعاً ليلة سيئة في بيت المايوركي. كانت مارجاليدا تبكي؛ والأم تندب بلا انقطاع على ما حدث. يا إلهي! ما الذي سيظنه أهل المنطقة فيهم عندما يكتشفون أن الرجال يضربون بعضهم في منزلهم كأنهم في حانة؟! ماذا ستقول الفتيات عن ابنتها؟! لكن مارجاليدا لم تهتم إلا قليلاً برأي صديقاتها. يبدو أن شيئاً آخر يثير اهتمامها؛ شيئاً لم تستطع قوله، لكنه جعلها تذرف الدموع. قال السيد بيب بعد أن أغلق باب المنزل، متجولاً في المطبخ أكثر من ساعة مغمغماً بكلمات مغلقاً قبضتيه: «ذلك الدون خايمي! مُصر على الحصول على ما هو مستحيل! عنيد مثل كل عائلته!». «

لم ينم القسيس أيضاً، وشعر أن قليلاً من الوحشية والمكر والريبة قد وُلدت في أفكاره، وشك أخذ الحقيقة شيئاً فشيئاً من اليقين.

عند دخوله البرج نقل أفكاره فوراً إلى دون خايمي. مَنْ كان يعتقد أنه مؤلف الأغنية المهيبة؟ المغني؟ «حسنًا. لا يا سيدي. لقد كان الحداد.

ابتدع الآخر الأبيات، لكن كانت الفكرة من الوغد الخبيث». كان الأخير قد أوحى بفكرة أن يهين دون خايمي في وسط حفل التودد، معتمدًا بثقة على أن الإهانة لن تُترك دون عقاب. الآن رأى الصبي بوضوح السبب الحقيقي لاجتماع الخاطبين حيث فاجأهما في الجبل.

تلقى فبرر هذا الخبر -الذي أعطاه القسيس أهمية كبيرة- بإيماءة من اللا مبالاة. وماذا في ذلك؟! لقد عُوقب فعلاً المغني الوقح؛ أما بالنسبة للوغد، فقد هرب من تحديه عند بوابة المزرعة. كان جباناً.

هز بيت رأسه بشك. «احترس يا دون خايمي!». لقد كان يجهل عادات بواصل الأرض، والمكر الذي يستخدمه لضمان الإفلات من العقاب عند انتقامهم. لا بد أن يظل مستعداً الآن أكثر من أي وقت مضى. يعرف الحداد ماهية السجن ولن يرغب في العودة إليه. ما انتهى لفعله كان قد فعله قبله أوغاد آخرون.

نفد صبر خايمي أمام هيئة الصبي الغامضة وكلماته المرتبكة.

- لماذا التكنم؟! تكلم!

كشف القسيس أخيراً شكوكه. الآن يستطيع الحداد أن يفعل ما يريده ضد دون خايمي: يمكن أن يتربص به في الأثل عند سفح البرج ويقتله برصاصة. ستتوجه الشكوك على الفور ضد المغني، ويُذكر الأمر الذي حدث في المزرعة وكلماته الانتقامية. مع هذا ومع تحضير الوغد لادعاء الغيبة، منتقلاً بأقصى سرعة عبر طرق مختصرة إلى نقطة بعيدة حيث يمكن للجميع رؤيته، سيكون من السهل عليه تنفيذ انتقامه من دون خطر.

صاح فيرر -متجهماً- كأنه أدرك فجأة أهمية هذه الكلمات كاملة:
- آه!

استمر الصبي -راضياً عن تفوقه- في تقديم النصائح. كان على دون خايمي أن يعيش بقليل من الحذر من الآن فصاعداً، وأن يغلق باب برجه، وألا ينتبه إلى الصرخات في الخارج بمجرد حلول الليل. من المؤكد أن الوغد سيحاول حثه على الخروج في الظلام بصرخات إهانة مع صيحات التحدي.

«حتى لو صاحوا عليك في أثناء الليل، ابق ساكناً يا دون خايمي. أنا أعلم ذلك»، تابع القسيس مع خطورة وغد شجاع: «سيصرخ عليك من الخارج، مختبئاً في الشجيرات، مع سلاح جاهز. وإذا خرجت، سيقنلك برصاصة مسدس قبل أن تتمكن من رؤيته. ابق في البرج».

كانت هذه النصائح من أجل الليل. أما خلال النهار فيمكن للرجل أن يخرج دون خوف. كان هو هناك لمرافقته في كل مكان. وقد انتصب بغرور عدواني، ووضع يده على حزامه للتأكد من أن السكين لم تختف، لكن خيبة أمله كانت فورية عندما رأى إيماءة امتنان ساخرة من فيرر.

- اضحك يا دون خايمي، اسخر مني، لكن يمكنني أن أكون ذا فائدة.. انظر كيف أحذرك الآن من الخطر. عليك أن تعيش على أهبة الاستعداد. ببعض الأفكار السيئة أعد الحداد الأغنية.

وكان ينظر حوله، مثل قائد يستعد لصد حصار طويل. وجدت عيناه البندقية معلقة على الجدار بين زخارف من الأصداف. جيد جداً! كان

عليه أن يُحمّل المدفعين بالرصاص، وفوق ذلك حفنة جيدة من الخرادق أو الرصاص الغليظ. هذا ليس كثيرًا أبدًا. هكذا فعل جده المجيد. ثم عبس عندما رأى المسدس متروكًا على الطاولة. سيئ جدًا! الأسلحة القصيرة من أجل أن تُحمل في جميع الأوقات. كان ينام والسكين على بطنه. وإذا دخل العدو فجأة دون أن يترك له الوقت للبحث عن السلاح؟! جذب البرج -الذي شهد عمليات إعدام ومعارك قراصنة في قرون أخرى، الذي كان قشرة من الحجارة ذات فراغ مأساوي مستتر بسبب بياض الجدران الواضح - انتباه الصبي فيما بعد.

نزل إلى الباب بحذر بطيء، كأن عدوًا ينتظره في أسفل الدرج، ويخبئ جسده في حافة الجدار، ولم تتقدم سوى عين واحدة وجزء من جبهته. ثم هز رأسه بإحباط. عندما أطل في الليل، حتى مع هذه الحيل، يمكن للعدو المتربص في الأسفل أن يراه، مصوبًا عليه بكل راحة وهو يسند مرفقيه على غصنٍ أو حجرٍ، دون خوف من ضياع تسديده. الأسوأ من ذلك هو إلقاء جسده خارج الباب ومحاولة النزول. عبر ظلام الليل، يمكن للعدو أن يختار نقطة للرؤية، بقعة من أوراق الشجر، نجمة في الأفق، شيئًا بارزًا في الظلام يظهر بجانب السلم. وعندما تخترق الرصاصة السوداء من ينزل، يخبئ في لحظة الشيء المصوب... ضرب نار وفترة آمنة! كانت تعاليم سمعها من رجال خطيرين أمضوا شهرًا كاملة خلف المنحدر أو في ملجأ من جذوع الأشجار، ومؤخرة السلاح بجانب خدودهم وأعينهم في طرف الماسورة، من غروب الشمس إلى الفجر، في انتظار صديق سابق.

لا؛ لم يعجب القسيسَ هذا البابُ بسُلمه الذي في الهواء الطلق. كان عليه أن يجد مخرجًا آخر، وذهبت عيناه إلى النافذة، ثم فتحها ليُطل منها.

بخفة قرد -ضاحكًا على اكتشافه- قفز على حافة النافذة وبدأ في النزول على الجدار، ويداه وقدماه تبحث عن التفاوت في البناء غير المصقول، والنقر العميقة التي تشبه درجات السلم التي خلفتها الصخور وهي تتدحرج منفصلة من الملاط. أطل فبرر من النافذة، ورآه عند أسفل البرج يلتقط قبعته التي سقطت ويلوح بها عاليًا بتعبير منتصر. ثم ركض الصبي حول قاعدة البرج، وخطواته ترن ثانيةً بعد فترة وجيزة مع هرولة صاحبة على درجات السلم الخشبية قريبًا من الباب.

صرخ وهو يدخل الغرفة، وجهه أحمر من الانفعال بسبب اكتشافه:

- إنه أسهل شيء يمكن القيام به! إنه سُلّم السادة!

قام بلفتة جادة غامضة مدرّكًا أهمية اكتشافه. يبقى هذا بين الاثنين.. ولا كلمة لأحد. لقد كان خروجًا ثمينًا، ولا بد من الحفاظ على سره.

حسد القسيس دون خايمي. لم يكن لديه عدو يأتي ليصيح هناك في أثناء الليل! بينما الحداد يعوي متربصًا، وعيناه مثبتتان على الدرج، سينزل هو عبر النافذة، وخلف البرج -وهو يلف بصمت- سيصطاد الصياد. يا لها من ضربة! ضحك بتهاون وحشي، وعلى شفثيه الحمر اوين الداكتين استيقظت مرتجفة شراسة الأجداد المجيدة، الذين اعتبروا صيد الإنسان من أرقى التدريبات.

شعر فبرر بالعدوى بسبب فرحة الصبي الهمجية. لو أنه يحاول النزول عبر النافذة! ألقى ساقه من فوق عتبة النافذة، وبيطء -أعاقته بدانة كهولته- تحسس عدم استواء السور بأطراف قدمه، حتى وجد الثقوب التي كانت بمثابة درجات السلم. نزل شيئاً فشيئاً، وهو يدحرج بعض الحجارة المفكوكة تحت قدميه، حتى وضع قدميه في النهاية على الأرض مع تهيدة ارتياح. جيد جداً! كان النزول سهلاً؛ بعد بضع تجارب، سينزل بسهولة مثل القسيس. كان الأخير -الذي تبعه برشاقة- معلقاً فوق رأسه تقريباً، يتسم مثل مدرس راضٍ عن درسه، ويكرر نصائحه مرةً أخرى. «دون خايمي لا تنسه!»، بمجرد رؤيته في الخارج، عليه أن يُلقي نفسه من النافذة إلى الأسفل، ويمسك بالخصم من الخلف.

عندما بقي فبرر بمفرده في منتصف الظهيرة، شعر برغبة قتالية تتملكه، وبعُدوانية جعلته ينظر فترة طويلة إلى قطعة الجدار التي تتدلى منها البندقية.

عند سفح الرعن -على الشاطئ حيث قارب العم يتولرا- رن صوته وهو يغني القداس. أطل فبرر من الباب، ووضع كلتا يديه على فمه بشكل بوق ليصرخ عليه.

أنزل البحار -بمساعدة صبي- قاربه في الماء. كان الشراع الملموم يهتز أعلى الصاري. لم يقبل خايمي الدعوة. «شكراً جزيلاً لك يا عم يتولرا!». أصر الأخير بصوته الضعيف الذي جاء في الهواء مثل استهلال طفل بعيد. كان المساء جيداً: تغيرت الرياح؛ كانا في طريقهما

لاصطياد الأسماك بكثرة قريباً من يدرا. هز فيرر كتفيه: «لا. شكرًا جزيلاً لك؛ عليّ أن أعمل».

انتهى بالكاد من الكلام، عندما ظهر القسيس مرة ثانية في البرج، حاملاً إليه الطعام. بدا الصبي متجهماً وحزيناً. كان والده -الغاضب من مشهد الليلة السابقة- اختاره ضحية للتنفيس عن غضبه. «ظلم يا دون خايمي!» يصرخ وهو يسير في المطبخ، بينما كانت السيدتان بأعينٍ دامعة وهيئة منكمشة تهربان من نظرتة. وأرجع كل ما حدث إلى رقة شخصيته ولطفه؛ لكنه كان سيصلح هذا فوراً. تم تعليق الخطوبة: لن يسمح بالمغازلة أو الزيارات. أما القسيس! هذا الابن الشرير، العاصي والمتمرد، كان مسؤولاً عن كل شيء.

لم يعرف بيب -على وجه اليقين- كيف كان لوجود ابنه دور في فضيحة الليلة الماضية، لكنه تذكر إحجامه عن أن يصبح رجل دين وهروبه من المدرسة الإكليريكية، وأثارت ذكرى هذه الاضطرابات غضبه، مما جعله يركز على الصبي. انتهت الاعتبارات واللفظ! يوم الاثنين القادم سيأخذه إلى المدرسة الإكليريكية. إذا قاوم وهرب مرة ثانية، فسيكون من الأفضل له أن يشرع في العمل كصبي بحار وينسى أن لديه أباً؛ لأنه عندما يراه يعود إلى المزرعة، كان بيب قادراً على كسر كلا ساقيه بمتراس الباب. ولكي يرتاح تماماً، ويعتاد على يده وكعلامة لغضبه في المستقبل، صفعه وركله عدة مرات، وبهذه الطريقة استعاد الانزعاج الذي عانى منه سابقاً عندما رآه يصل هارباً من إبيزا.

لجأ القسيس -منكمشاً وصبوراً كالعادة- إلى زاوية خلف جدار

من التناير التحتية والجونلات، حيث تعترض الأم الباكية على غضب بيب. لكن عندما رأى نفسه الآن في البرج متذكراً الإهانة، أصرّ على أسنانه، وعيناه زائفتان، ووجتاه شاحبتان، وقبضتاه مغلقتان.

«يا له من ظلم! هل هذه الطريقة التي يُضرب بها الرجال -دون سبب- فقط للتنفيس عن المزاج السيئ؟ هو الذي يضع سكيناً في حزامه ولا يخاف أحداً في الجزيرة! كل هذا لأنه كان أباه!». آه! كانت هذه الأبوة والاحترام البَنوي بالنسبة للقسيس في ذلك الوقت من اختراعات الجبناء، مخترعة فقط لإزعاج وتحقير الرجال الطيبين. وفوق الضربات المهينة لكرامة الشجاع، يقين الحبس في المدرسة الإكليريكية؛ والسربال الأسود المشابه لتناير النساء، وشعره المحلوق، ويفقد إلى الأبد تلك الخصلات التي تطل بغطرسة من تحت حواف قبعته؛ وجزّ شعره الذي سيجعل الفتيان يضحكون أو يغرس احتراماً بارداً فيهم، وداعاً لحفلات الرقص والمغازلات! وداعاً للسكين!

سيتوقف دون خايمي عن رؤيته قريباً. في غضون أسبوع سيأخذونه إلى إيزا. سيُحضر الآخرون الطعام إلى البرج. قام فبرر بإيماءة تكشف عن أمله. ربما مارجاليدا.. كما في أوقاتٍ أخرى! لكن القسيس -على الرغم من حزنه- ابتسم بخبث. لا.. ليست مارجاليدا؛ الجميع ما عداها. حسناً، كان السيد بيب موجوداً لتدليله! عندما كانت الأم المسكينة تتحدث بخجل للدفاع عن ابنها، وعن مدى ضرورة وجود الصبي في المنزل لخدمة السيد، انفجر بيب في صياح جديد. سيكون هو نفسه مسؤولاً عن إحضار طعام دون خايمي إلى البرج كل يوم، وإذا لم يكن

هو فستكون زوجته، وإذا لم تكن هي، فسيبحثان عن فتاة تعمل خادمة لذلك السيد، حيث يُصر على العيش قريباً منهم.

لم يقل القسيس أكثر من ذلك، لكن فبرر حَمْن الكلمات التي لا بد أن يكون المزارع الطيب ألقى بها عليه. نسي -بدافع الغضب- احترامه السابق؛ كان غاضباً من الاضطرابات التي أحدثها وجوده للعائلة.

عاد الولد إلى المزرعة مغمماً بنوايا انتقامية، مقسماً ألا يذهب إلى المدرسة الإكليريكية، على الرغم من أنه يجهل كيفية تحقيق ذلك. اتخذت مقاومته فجأة نبرة حماية نبيلة. يتخلى عن صديقه دون خايمي وقد كان يراه محاطاً بالمخاطر! سينحس في بيت الحزن الكبير هذا، بين السادة الذين يرتدون التنانير السوداء ويتحدثون لغة غريبة، الآن في وسط الريف، في نور الشمس أو في غموض الليالي، كان الرجال يتقاتلون! تحدث مثل هذه الأحداث غير العادية ولن يراها هو!

عندما بقي فبرر بمفرده، أنزل البندقية ووقف فترة طويلة بجانب الباب يتفحصه بذهول. كانت أفكاره تذهب بعيداً، بعيداً جداً عن نهايات مواسير البندقية التي تشير إلى الجبل... «ذلك الحداد! هذا المتبجح الذي لا يُطاق!». منذ اليوم الأول الذي رآه فيه تحرك شيء ما بداخله، نهض بدافع الكراهية التي لا تُقاوم. لن يضرب أحد في الجزيرة هذا الشبح الكئيب إلا هو.

أعاده الإحساس بفولاذ البندقية البارد في راحة يديه إلى الواقع. كان مصمماً على الذهاب للصيد في الجبال... لكن يا له من صيد! استخرج الخرطوشتين اللتين احتلتا الماسورتين، خرطوشتين محمليتين بخُردق

صغيرة لأسراب الطيور التي تعبر الجزيرة قادمة من إفريقيا. بحث في كيس عن خراطيش أخرى وأدخل خرطوشتين في الماسورة المزدوجة، ووضع الباقي في جيوبه. كانوا برصاص. مطاردة كبرى!

علق البندقية على كتف، ونزل سلم البرج مصفراً وماشياً متعجرفاً، كأنه سعيد بقراره.

عندما مر قريباً من بيت المايوركي، خرج الكلب ليلتقي به وهو ينبع بفرح. لم يطل أحد من الباب مثل الأوقات الأخرى. بالتأكيد رآوه دون أن يتحركوا من عمق المطبخ. قفز الكلب خلفه مسافة طويلة، ثم تراجع عندما رآه يسلك الطريق إلى الجبل.

سار فيرر بين الحوائط الحجرية الجافة التي تحتوي على مصاطب متدرجة، وفي أوقاتٍ أخرى عبر دروب مرصوفة بالحصى الأزرق، حيث تتحول الأمطار الشتوية إلى هُوات ضيقة. ثم توقف عن رؤية الأرض مقلوبة ومشقوقة من المحراث: كانت التربة السميقة مغطاة بالنباتات البرية والشائكة. أشجار الفاكهة، وشجرة اللوز الطويلة، وشجرة التين القصيرة ذات التاج العريض، تلتها أشجار الأبهل وأشجار الصنوبر الملتوية بفعل الرياح القادمة من الساحل. عندما توقف فيرر للحظة ونظر إلى الورا، رأى بيت المايوركي عند قدميه مثل بعض المكعبات البيضاء التي أفلتت من قمة صخرة قريباً من البحر. في أعلى هذه الصخرة وقف برج القرصان مثل الشرطي. كان صعوده سريعاً بأقصى سرعة، كأنه يخشى أن يتأخر عن مكان اجتماع لا يعرفه على وجه اليقين. استأنف السير فوراً. خرجت حمامتان برّيتان من الشجيرات

لهما ريش مروحة صاحب يتمدد، لكن بدا أن الصياد لم يرهما. بعض الخيالات البشرية -السوداء والمنحنية في الأدغال- جعلته يرفع يده اليمنى إلى مؤخرة البندقية ليُنزلها من على كتفه. كانوا رجال فحم يكسدون الحطب. عندما مر فبرر بهم، نظروا إليه بأعين ثابتة، حيث اعتقد أنه لاحظ فيهم شيئاً غير عادي، مزيجاً من الدهشة والفضول.

- طاب مساؤكم.

بالكاد أجاب الرجال السود، لكنهم تبعوه فترة طويلة بأعينهم، التي لها لمعان وشفافية الماء على وجوههم المكسوة بالسخام. من المؤكد أن المنعزلين في الجبل يعرفون الآن ما حدث في الليلة السابقة في بيت المايوركي، وقد اندهشوا لرؤية سيد البرج يسير بمفرده، كأنه يتحدى أعداءه، معتقداً أنه غير معرض للخطر.

لم يعد يجد مزيداً من الناس في طريقه. وفجأة سمع -إضافةً إلى ضجيج الحرجة الجافة الذي تداعبه الرياح- صليلاً بعيداً لحديد مطروق. ويرتفع -من بين الفروع- عمود خفيف من الدخان.. إنه كور الحداد.

خرج خايمي -حاملًا البندقية المنحدرة إلى حدٍّ ما من كتفه، كأن السلاح سيسقط من تلقاء نفسه- إلى مساحة في الغابة تُشكل ساحة عريضة أمام الكور، الذي كان كوخاً مبنياً من الطوب اللبن، أسود من الدخان ومغطى بسقفٍ أحذب متنفخ في بعض نقاطه كأنه على وشك الانهيار. تحت سقيفة كانت تتوهج عين النار الملتهبة، وبجانبتها كان الحداد واقفاً أمام السندان، يضرب قضيباً من الحديد الناري بمطرقة.

كان فيرر راضيًا عن دخوله المسرحي إلى الساحة. رفع الوغد نظره عندما سمع صوت خطى في الفترة الفاصلة بين ضربتين من ضرباته، وبقي ساكنًا - والمطرقة في الأعلى - عندما تعرف على سيد البرج. لكن عيناه الباردتان لم تقدرا على نقل أي انطباع.

تقدم خايمي أمام الكوة بنظرة مثبتة على الحداد، وهي نظرة تحدّ بدا أن الآخر لم يفهمها. لا كلمة ولا تحية. تقدم السيد إلى الأمام؛ ولكن عند مغادرته الساحة توقف بجوار إحدى الأشجار الأولى، وانتهى به الأمر جالسًا على جذورها البارزة، محتفظًا بالبندقية بين ساقيه.

غزت كبرياء الغطرسة الرجولية روح فيرر. كان مسرورًا بعجرفته. إما أنه كان بإمكانه رؤية ذلك البلطجي الذي جاء لبحث عنه في عزلة الجبل في مسكنه الخاص؛ وإما بإمكانه إقناع نفسه بأنه لم يكن خائفًا منه.

ولإظهار سكينته بشكل أفضل، أخرج كيس التبغ من حزامه ولف سيجارة.

استأنفت المطرقة قرعها على المعدن. رأى خايمي - من مقعده - الحداد وقد أدار ظهره له بثقة غير مبالية، كأنه لا يعلم بوجوده، وكان مهتمًا فقط بفحص عمله. هذا الهدوء أربك فيرر قليلًا. حسنًا! ألم يخمن نواياه؟ أغضبه برود الحداد، وفي الوقت نفسه كان ممتنًا بشكل غامض لبقائه وظهره له، بهدوء واثقًا من أن سيد البرج غير قادر على الاستفادة من هذا الموقف لإطلاق رصاصة غادرة عليه. توقف صوت المطرقة. عندما نظر فيرر مرة أخرى إلى السقيفة، لم يجد الحداد. هذا الغياب

جعله يمسك بالبندقية مداعباً مفاتيحها. لا شك أنه كان سيخرج بسلاح، متعباً من تحمل هذا الاستفزاز الصامت الذي جاء يبحث عنه في بيته الخاص. ربما سيطلق النار من خلال إحدى النوافذ الصغيرة التي تُضيء المسكن المعتم. عليه أن يحتاط من مكيدة المسجون السابق، ووقف محاولاً إخفاء جسده خلف جذع شجرة، تاركاً عيناً واحدة فقط ظاهرة. شخص ما تحرك داخل الكوخ؛ ظهر شيء أسود بتردد على بابه. كان العدو سيخرج: انتبه! امسك البندقية لإطلاق النار بمجرد ظهور طرف سلاح العدو؛ لكنه ظل ساكناً ومرتبكاً عندما رأى أنها كانت تنورة سوداء تنتهي بأقدام مكشوفة داخل حذائين قماشيين قديمين، وفوق ذلك نصف جسد علوي بئس، منحني وشديد النحافة، ورأس نحاسي متجعد، بعين واحدة فقط، وشعر رمادي متفرق يلمع من بين خصلاته ورنيش الصلع.

تعرف فبرر على المرأة. كانت عمة الحداد، المرأة العوراء التي أخبره عنها القسيس، رفيقة الحداد الوحيدة في عزلته الشرسة. وقفت المرأة العجوز في السقيفة وذراعاها على خصرها، وتلقي أمامها بطنها المترهل المنتفخ بسبب التناير، مثبتة حذقتها الوحيدة، المشتعلة من الغضب، على ذلك الدخيل الذي جاء لاستفزاز رجل صالح في وسط عمله. نظرت إلى خايمي بعدوانية امرأة شرسة، متأكدة من الاحترام الذي يوحى به جنسها أكثر جرأة واندفاعاً من الرجل. تمتمت بالتهديدات والشتائم التي لم يستطع السيد سماعها، غاضبة لأن شخصاً تجرأ على ابن أخيها، الجرو المحبوب الذي وضع عقمها فيه كل حماسة الأم الخائبة.

أدرك خايمي فجأة مدى كراهية تصرفاته. رجل مثله يأتي ليستفز آخر في وضوح النهار في بيته! كانت المرأة العجوز محقة في إهائته. لم يكن الحداد البلطجي.. لقد كان هو، سيد البرج، سليل الرجال العظماء الفخور بأصله!

جعله العار يخجل، وأغرقه في ارتباك محرج. لم يعرف كيف يغادر ولا أين يهرب. أخيرًا وضع البندقية على كتفه، وعيناه مرفوعتان، كأنه يطارد طائرًا يقفز من فرع إلى فرع، وبدأ مسيرته بين الأشجار والأجمة، متجنبًا المرور مرة أخرى من أمام الكور.

سار الآن إلى أسفل التل باتجاه الوادي، هاربًا من ذلك الجبل الذي جر إليه نزوة قاتلة، خجلًا من رغباته السابقة. وجد الرجال السود الذين يصنعون الفحم مرة أخرى.

- طاب مساؤكم!

أجابوا على تحيته، ولكن اعتقد فيرر أنه لاحظ في أعينهم - التي لها بياض غير عادي على وجه ملطخ - شيئًا من الاستهزاء العدائي، ومن الغرابة الكريه، كأنه من جنسٍ آخر، كأنه ارتكب فعلًا لم يُسمع به من قبل وضعه خارج المجتمع البشري على الجزيرة إلى الأبد.

بقت أشجار الصنوبر والأبهل في الخلف على منحدرات الجبل. يسير الآن بين مصاطب من الأرض المحروثة. رأى الفلاحين يعملون في بعض الحقول؛ ووجد على أحد المنحدرات عدة فتيات يجمعن الأعشاب، وينحنين على الأرض؛ على أحد الطرق صادف ثلاثة رجال مسنين يسرون ببطء بجوار حميرهم.

يُحيي فيرر -بتواضع من يشعر بالأسف لسوء فعلته- الجميع بلطف.

- طاب مساؤكم!

أجابه الفلاحون بهمهمة مكتومة؛ ولوت الفتيات وجوههن في انزعاج حتى لا يرينه، وأجاب المسنون الثلاثة على تحيته بحزن، وهم ينظرون إليه بأعينٍ فاحصة، كأنهم وجدوا شيئاً غير عادي في شخصه.

تحت شجرة تين -مظلة سوداء ذات أغصان ملتوية- رأى بعض الفلاحين منشغلين بالاستماع إلى شخص كان في وسط الدائرة. عندما اقترب فيرر كان هناك بعض الحركة في المجموعة. خرج رجل منها باندفاع غاضب، وأوقفه الآخرون، وأمسكوا ذراعيه، وهم يكافحون لاحتوائه. تعرف عليه خايمي بسبب القماش الأبيض المعقود تحت قبعته. كان المغني. كان الفلاحون الأقوياء يمسكون بسهولة الفتى المريض بيدٍ واحدة، لكن الأخير -غير قادر على الحركة- نفث عن غضبه وهو يمد قبضته نحو الطريق، بينما تخرج التهديدات والإهانات سريعة من فمه.

كان بلا شك يحكي لأصدقائه ما حدث في الليلة السابقة عندما ظهر فيرر. وخمن الأخير في الأصوات الحادة تهديدات المغني. كانت الكلمات نفسها التي تلفظ بها في بيت المايور كي. يُقسم أن يقتله، ويتوعد بالذهاب إلى برج القراصنة ليلاً؛ ليضرم النار فيه ويمزق صاحبه إرباً.

«تَبّاً!!»، هز خايمي كتفيه وواصل سيره، لكنه حزين يائس من أجواء الكراهية والعداء التي تكون أكثر حساسية كل مرة من حوله. ماذا

فعل؟ فيم أقحم نفسه؟ ضرب واحدًا من الجزيرة! وهو أجنبي.. وأيضًا مايوركي!

اعتقد -في حزنه- أن الجزيرة بأكملها -بكل ما فيها من أشياء جامدة- مرتبطة باحتجاج الناس هذا. قبل مروره تخلوا المزارع من سكّانها؛ ويختبئ سكّانها لئلا يحيوه؛ وتخرج الكلاب إلى الطريق نابحةً بوحشية كأنها لم تره من قبل.

بدت له الجبال أكثر قساوة وكآبة في قممها الصخرية العارية، والغابات أكثر عتمة وسوادًا، وأشجار الوديان أكثر حزنًا ووضوحًا، وتندرج الحجارة على الطريق تحت قدميه كأنها تهرب من لمسه، وكان في السماء شيءٌ منفّر، وحتى هواء الجزيرة سيهرب في النهاية من فمه. رأى فيبرر نفسه وحيدًا في يأسه. كل شيء ضده؛ كان يبب يقيه مع عائلته فقط، لكنهم سيبتعدون في النهاية على أي حال، تدفعهم الحاجة إلى العيش بشكلٍ جيد مع جيرانهم.

لم يحاول الغريب التمرد على مصيره. لقد شعر بالندم والخجل من اندفاع الليلة السابقة ورحلته الأخيرة إلى الجبل. لم يكن هناك مكان له في الجزيرة. كان أجنبيًا غريبًا، وكان وجوده يزعج الحياة التقليدية لهؤلاء الناس. استقبله ببب باحترام خادم عجوز، وكافأ هذه الضيافة بإزعاج منزله وسلام عائلته. استقبلته الناس بلطفٍ باردٍ إلى حدٍّ ما لكنه هادئ وثابت مثل سيد أجنبي عظيم، وقد رد على هذا الاحترام بضرب أكثرهم تعاسة الذي يحترمه الفلاحون في المقاطعة بسبب ضعفه برفق أبوي. جيد جدًّا، الابن البكر لفِبرر! منذ بعض الوقت كان يتجول

كالمجنون، لا يفكر سوى في الحماقات. وكل هذا من أجل ماذا؟ من أجل حب عبثي لفتاة يمكن أن تكون ابنته؛ بسبب نزوة شيخوخة تقريباً، على الرغم من شبابه النسبي، كان يرى نفسه عجوزاً حزيناً بائساً أمام مارجاليدا والفتيان الريفيين المثارين بجمالها. آه! البيئة! البيئة اللعينة!

في الأزمنة المزدهرة، عندما يعيش في قصره في بالما، لو كانت مارجاليدا خادمة لأمه، لشعر ناحيتها فقط بالشهوة التي تُلهمها نضارة الشباب، دون أي شيء يشبه الحب. كانت نساء أخريات تسيطر عليه حينها بإغواء حيلهن وتكلفهن. ولكن هنا، في عزلة تامة، مع أكثر الغرائز تعجرفاً يغضبها الحرمان، ورؤية مارجاليدا وسط جمال رفيقاتها الأسمر والفظ، وهي جميلة كإلهة بيضاء من الإلهات اللاتي يلهمن التبجيل الديني في الشعوب ذات اللون النحاسي. شعر بجنون الشهوة، وأن أفعاله كانت عبثية، كأنه فقد عقله إلى الأبد.

كان عليه الفرار؛ فلم يعد له مكان في الجزيرة. يمكن أن يكون تشاؤمه قد خدعه في تقدير أهمية العاطفة التي تجذبه نحو مارجاليدا. ربما لم تكن الرغبة، بل الحب، الحب الحقيقي الأول في حياته: كان شبه متأكد من ذلك. ولكن حتى لو كان الأمر كذلك، كان عليه النسيان والهروب؛ الهروب في أسرع وقت ممكن.

لماذا تستمر على هذه الأرض؟ ما الأمل الذي يستبقه؟ مارجاليدا.. كأن المفاجأة التي مرت بها عندما علمت بحبه تفوق قوتها، فكانت تهرب منه، وتختبئ صامتة، تعرف فقط كيف تبكي، ولم تكن الدموع إجابة. كان يبب -لبقايا احترام تقليدي- يتحمل صامتاً نزوة الرجل

العظيم، لكنه سينفجر في أي لحظة ضد الرجل الذي يزعج حياته. كانت الجزيرة -التي قبلته بلطف- تبدو الآن كأنها تتور ضد الغريب الذي جاء من بعيد لإزعاج هدوئها الجليل وحياتها المترابطة وكبرياتها كبلة منفصلة، بالشراسة نفسها التي كانت عليها في قرون مضت ضد النورمان أو العرب أو البربر الذين نزلوا على شواطئها.

من المستحيل مواجهة الجميع.. سيهرب. كانت عيناه تداعبان شريطاً ضخماً من البحر يمتد بين تلين، مثل ستارة زرقاء تخفي شقاً في الأرض. كانت تلك القطعة من البحر هي طريق الإنقاذ والأمل والمجهول الذي يفتح لنا ذراعي الغموض في أصعب لحظات الحياة. ربما سيعود إلى مايوركا؛ ليعيش حياة شحاذ محترم إلى جانب الأصدقاء الذين لا يزالون يتذكرونه؛ ربما سيعبر إلى شبه الجزيرة ويذهب إلى مدريد بحثاً عن عمل؛ ربما سيتهي به المطاف بالإبحار إلى أمريكا. كل شيء كان أفضل من البقاء هناك. لم يكن خائفاً؛ لم يخفه عداء الجزيرة وسكانها.. ما يشعر به هو الندم والعار على الاضطرابات التي تسبب فيها.

بشكلٍ غريزي حملته قدماه نحو البحر، الذي أصبح الآن حبه وأمله. لقد تجنب المرور عبر بيت المايوركي، وعندما وصل إلى الشاطئ سار على طول الحافة، حيث يضيق آخر خفقان للأمواج، مثل لوح رقيق من الزجاج، بين الحصى الصغيرة الممزوجة بقطع من الطين المخبوز.

عندما كان عند سفح رعن برجه، تسلق الصخور المنفلتة، وذهب ليجلس على الصخرة التي أكلتها الأمواج وكادت تنفصل عن الساحل. فكر في ليلة عاصفة.. الليلة نفسها التي ظهر فيها متقدماً للزواج في منزل مارجاليدا.

كانت فترة المساء هادئة، وكان للبحر لونٌ كثيف من الشفافية غير العادية والعميقة. تنعكس القيعان الرملية مثل بقع حلبيّة؛ وتبدو الصخور التي تحت الماء ونباتاتها المظلمة ترتجف مع فوضى الحياة الغامضة. وتطفو الغيوم البيضاء في الأفق في أثناء مرورها أمام الشمس، وتخط مساحات كبيرة من الظل على البحر. بقيت قطعة من الامتداد الأزرق مظلمة وغير لامعة، بينما خلف هذه العباءة المتحركة، تبدو المياه المضيئة كأنها تغلي بفقااعات من الذهب. أحياناً يُطلق النجم -المختبئ خلف ستائر السحب- سلسلة مرئية من الضوء من أسفل حدوده، فيضاً من فانوس، مثلثاً كبيراً من الهالة البيضاء، مثل هالة المناظر الطبيعية الهولندية.

لا شيء في هذا الجانب من البحر يُذكر فيبرر بتلك الليلة العاصفة؛ ومع ذلك -نظراً للارتباط الذي تشكّله الأفكار المنسية في ذاكرتنا مع الأماكن التي زرناها في الماضي عندما نعود إليها- بدأ فيبرر يشعر بالأفكار نفسها، الآن فقط، بدلاً من المضي قدماً، تتابع في الاتجاه المعاكس، مع ارتباك من الانكسار.

يضحك بمرارة من تفاؤله في تلك المناسبة، ومن الثقة التي جعلته يحتقر كل أفكاره عن الماضي. الموتى يحكمون: سلطتهم وقوتهم لا جدال فيها. كيف يمكن أن يكون -مدفوعاً بحماسة الحب- غير مدرك لهذه الحقيقة الهائلة والمفجعة؟ جعلته الأشواق الكثيرة في حياتنا يشعر بالثقل الهائل لقوتهم. ماذا فعل حتى ينظروا إليه في هذه الزاوية من الأرض -ملجأ الأخير- على أنه غريب؟ لقد تركت أجيال لا حصر

لها من الرجال الذين اختلط ترابهم وأرواحهم بأرض الجزيرة كميراث لأولئك الحاليين كراهية الأجنيبي، وخوفًا واشمئزازًا من الغريب، الذي عاشوا معه دائمًا في حالة حرب. هو الذي قدم من بلدان أخرى استُقبل بعزلة طاردة، مأمورين من أولئك الموتى.

عندما حاول -مستهينًا بتحيزاته القديمة- الاقتراب من امرأة، كانت هذه المرأة تنسحب غامضة فِرْعَة من مثل هذا الاقتراب. كان عملاً مجنوناً خاصاً بها: اقتران الديك وطير النورس الذي حلم به راهب غريب الأطوار، ما جعل الفلاحين يضحكون كثيرًا. هكذا أراد الناس في الماضي عند تأسيس المجتمع وتقسيمه إلى طبقات، وهكذا يجب أن يستمر. لا فائدة من التمرد على الأمور الراسخة. كانت حياة الإنسان قصيرة، ولم تكن كافية للقتال مع مئات الآلاف من الحيوانات الموجودة قبلها، وتبدو أنها تتجسس عليها بشكلٍ غير مرئي، وتُضَيِّق عليها بين المخلوقات الملموسة التي كانت ذكرى من عبورها على الأرض، فتُثْقَل عليها بأفكارها، التي كانت تملأ البيئة، واستغلها كل مَنْ وُلد بلا قوة لابتكار شيء جديد.

يحكم الموتى، ومن غير المُجدي أن يقاوم الأحياء الطاعة. كل التمردات للخروج من هذه العبودية ولكسر سلسلة القرون.. كلها أكاذيب. يتذكر فِبرر عجلة الهنود المقدسة، وهي رمز بوذي رآه في باريس في أثناء مشاهدته احتفالاً دينياً شرقياً في متحف.

العجلة هي رمز حياتنا. نعتقد أننا نتقدم لأننا نتحرك؛ نعتقد أننا نسير لأننا نتحرك للأمام، وعندما تدور العجلة كاملة، نجد أنفسنا في

المكان نفسه. كانت الحياة البشرية والتاريخ وكل شيء لا نهاية له «إعادة بدء الأشياء». تولد الشعوب وتنمو وتتقدم؛ وتتحول المقصورة إلى قلعة ثم إلى مصنع؛ تشكلت مدن ضخمة من ملايين البشر، بقوا أحياء بعد الكوارث، الحروب على الخبز الذي نُدّر بالنسبة لكثير من الناس، واحتجاجات المحرومين من ممتلكاتهم، ومذابح كبيرة، وقد خلت المدن من السكان وسقطت في الانقراض. يغزو العشب الصروح العظيمة؛ وتغرق المدن الكبرى تدريجيًا في الأرض وتنام لقرون وقرون تحت التلال. تغطي الغابة البرية العاصمة من الأزمنة البعيدة؛ يمر الصياد البري حيث كان في أوقاتٍ أخرى يُستقبل القادة المنتصرون بأبهة أنصاف الآلهة؛ ترعى الأغنام وينفخ الراعي غليونه فوق الانقراض التي كانت منبر القوانين الميتة؛ يجتمع الناس مرة أخرى ويظهر الكوخ والقرية والقلعة والمصنع والمدينة الضخمة، ويتكرر الأمر نفسه، دائمًا الأمر نفسه، مع فارق مئات القرون، كما يتكرر بعض الأناس في آخرين يشبهونهم في الملامح والأفكار والمخاوف على مدار بضع سنوات. العجلة! إعادة بدء الأشياء الأبدي! وكل مخلوقات القطيع الإنساني يغيرون حظائرهم، ولكن ليس الراعي مطلقًا! وكان الرعاة دائمًا هم ذاتهم - الأموات - أول من يفكرون، وكان فكرهم البدائي مثل حفنة من الثلج تتدحرج وتتدحرج على المنحدرات، وهي تكبر، وتحمل كل ما تجده في طريقها ملتصقًا بلزوجتها! ويعتقد الأناس -الفخورون بتقدمهم المادي وبالألعاب الميكانيكية المُخترعة من أجل رفاهيتهم- أنهم أحرار، ومتفوقون على الماضي، ومتحررون من

العبودية المتأصلة، وكل ما يقولونه قيل قبل مئات القرون بمختلف الكلمات! كانت اهتماماتهم واحدة؛ كانت أفكارهم التي يعتبرونها أفكارهم الخاصة، ومضات وانعكاسات لأفكار أخرى بعيدة؛ وجميع الأفعال التي اعتبروها جيدة أو سيئة تستحق هذا التصنيف الثابت؛ لأن هذه هي الطريقة التي قررها الموتى، الموتى المستبدون، الذين يجب أن يقتلهم الإنسان مرةً أخرى إذا كان يريد حقاً أن يكون حرّاً.. من سيدرك هذا العمل التحريري العظيم؟! أي بطل لديه القوة الكافية لقتل الوحش الذي يثقل كاهل البشرية الضخم والساحق مثل تنانين الأساطير التي تحتفظ بكنوز عديمة الفائدة تحت أجسادهم الكبيرة؟

ظل فيرر ساكناً على الصخرة فترة طويلة، ومرفقاه على ركبتيه، وفكه على يديه، غارقاً في أفكاره، وعيناه مفتونتان بصعود وهبوط المياه الخافقة الوديعة.

وعندما انطلق في هذا التأمل، بدأ المساء يهبط.. سيتبع مصيره! لم يكن بإمكانه أن يعيش إلا في الأعالي، حتى لو كان ذلك بتواضع متسول. يرى كل طرق النزول مغلقة، وداعاً، السعادة التي تسعى إلى الارتداد إلى الحياة الطبيعية والبدائية! الآن الموتى لا يريدون أن يكون رجلاً، فسيكون طفيلياً.

تُمعن عيناه -الشاردتان في الأفق- النظر في الأبخرة البيضاء التي تتراكم على حافة البحر. عندما كان صغيراً وكانت ترافقه مادو أنطونيا في نزهاته على ساحل سوليير، كانا يتسليان مراتٍ عديدة بإعطاء جسد واسم -بجهد من الخيال- إلى الغيوم التي تتجمع أو تنتشر في أشكال

متنوعة باستمرار، ويريان فيها سريعاً وحشاً ضارباً إلى السواد بحلاقيم
مشتعلة كعذراء بين بهاء سماوي.

لفتت انتباهه كومة من السحب الكثيفة الواضحة مثل الندف
البيضاء. كان هذا البياض المضيء هو عظام الجماجم المصقول. طفت
خصلات فضفاضة من البخار الداكن فوق هذه السحابة. بدأ خيال فيرر
في رؤية فتحتين سوداوين مخيفتين فيها، ومثلثاً قاتمًا مشابهاً لذلك الذي
تركه أنف اختفى على وجه الموتى، وفي الأسفل مزق هائل ومأساوي
يشبه ضحكة صامتة لفم بلا شفاه وبدون أسنان.

كان الموت -السيدة العظيمة^(٥٩) إمبراطورة العالم- هي التي
ظهرت له بجلالها البيضاء والكامدة في وضوح النهار، متحدية سطوع
الشمس وزرقة السماء وخُضرة البحر المضيئة. وضع انعكاس النجم
المحتضر شرارة الحياة الخبيثة في الوجه العظمي الشاحب للمضيف،
في ظلمة محجري عينيه السوداوين، في ابتسامته التي تبث الرعب..
أجل؛ كانت هي! بدت الغيوم المتناثرة عند مستوى سطح البحر كأنها
طيأت وثنيات ثوب يخفي هيكلها العظمي الضخم. وغيوم أخرى تطفو
أعلاها، وهي عبارة عن كُوم واسع، تنطلق منه أبخرة أكثر رقة وغموضاً
مُشكّلة ذراعاً عظمية تنتهي بسبابة جافة منحنية مثل مخلب فريسة، يشير
بعيداً -بعيداً جداً- إلى الوجهة الغامضة.

سرعان ما تلاشت الرؤية مع حركة الغيوم. مُحيت معالمها
المخيفة، واتخذت أشكالاً متقلبة أخرى؛ لكن فيرر -عندما ضاعت من
أمام نظره- لم يخرج بسبب هذا من هלוسته.

(٥٩) يتحدث المؤلف عن الموت بصيغة مؤنثة؛ لأنه في اللغة الإسبانية مؤنث.

تقبل الأمر دون تمرد.. سيغادر. يحكم الموتى، وكان هو خادمهم العاجز. يمنح ضوء هبوط المساء للأشياء ارتياحاً غريباً. في منحنيات الساحل تظهر ظلال قوية كأنها تضيف حياة وأشكال حيوانات على الحجارة. من بعيد، كان الرعن يشبه أسداً قابلاً قريباً من الأمواج، يحدق في خايمي بعداءٍ صامت. كانت الصخور الموجودة على سطح الماء تظهر وتخبئ رؤوسها السوداء التي توجتها أعشاب خضراء، مثل برمائيات عملاقة لإنسانية متوحشة. رأى المنعزل على جانب فورميترا تينياً هائلاً يتقدم شيئاً فشيئاً في خط الأفق، مع ذيل طويل من السحب؛ ليلتهم الشمس المحتضرة غدراً.

عندما غطست الكرة الحمراء، هاربة من هذا الخطر، في المياه، واتسعت بسبب تشنج من الرعب، أيقظ حزن الشفق الرمادي فبرر من هلوسته.

وقف، والتقط البندقية المتروكة بجانبه، وانطلق في طريقه إلى البرج. أعد في ذهنه برنامج رحيله. لم ينو أن يقول كلمة واحدة لأي شخص. سينتظر رسو سفينة البريد البخارية في ميناء إبيزا من مايوركا، وفي اللحظة الأخيرة فقط سيبلغ ييب بقراره.

جعله التأكد من مغادرة هذه العزلة قريباً جداً ينظر باهتمام إلى داخل البرج في وهج شمعة أشعلها للتو. كان ظله -المتضخم بشكل كبير والتمايل بفعل اهتزازات الضوء- يتحرك من جانب إلى آخر على الحوائط البيضاء، ويطغى على الأشياء التي تزينها، أو يجعل لؤلؤة القذائف ومعدن البندقية المتدلية يلمع.

جذبت بعض خشونة الحلق المألوفة انتباه فيرر، وجعلته يطل من أعلى الدرج. كان رجل ملفوفاً في شال على الدرجات الأولى. كان ييب.

قال بإيجاز وهو يسلمه سلة:

- العشاء!

أخذها خايمي. لاحظ أن لدى المزارع رغبة في عدم الكلام، وشعر هو - من جانبه - ببعض الخوف من أنه قد يكسر اقتضابه.

- طاب مساؤك!

انطلق ييب في طريق عودته إلى مزرعته بعد هذه التحية القصيرة، مثل خادم محترم وغاضب لا يسمح لنفسه إلا بالكلمات الضرورية مع سيده.

عاد خايمي إلى داخل البرج، وأغلق الباب، تاركاً السلة على الطاولة. لم تكن لديه شهية: سيتناول عشاءه لاحقاً. أخذ غليوناً ريفياً، نحته مزارع من غصن كرز، وملأه بالتبغ ودخن، متابعاً بعينين شاردتين حومان دوامات الدخان، التي اكتسبت رقتها الزرقاء شفافية قزحية أمام الشمعة.

ثم بحث عن كتاب وأراد أن يقرأ، لكن كل الجهود المبذولة لتركيز انتباهه على القراءة كانت عديمة الجدوى.

خارج تلك القشرة الحجرية اسود الليل، ليلة قاتمة من الغموض العميق. من خلال الجدران بدا كأن ذلك الصمت المهيب الذي يهبط

من عَلٍ -والذي تكتسب فيه أدنى ضوءاً أبعاداً مرعبة كأن الضوء
تُصغي إلى نفسها- يتسلل.

ظن فبرر أنه أدرك خفقان الدورة الدموية في هذا الهدوء العميق. من
وقتٍ لآخر كان يسمع صرخة طائر النورس أو اضطراباً وقتياً لأشجار
الأثل في هبات الريح، وهي مهمة تشبه تلك التي تصدر عن الحشود
المسرحية الوهمية المختبئة خلف الكواليس. على سقف الغرفة، رن
من حينٍ لآخر صوت سوسة الخشب الرتيب وهي تقضم العوارض
بعمل متواصل، دون أن ينتبه لها خلال النهار. كان البحر يشق الظلام
بهديرٍ هادئ، وتتكسر تموجاته على جميع نتوءات ومنحنيات الساحل.

لأول مرة انتبه تماماً إلى العزلة التي يعيش فيها. هل كان من
الممكن الاستمرار في حياة الناسك هذه؟ ومتى فاجأه المرض؟ ومتى
أصابته الشيوخة؟ في ذلك الوقت كانت المدن تبدأ حياة جديدة
تحت الوهج الأبيض لإضاءتها الكهربائية؛ ويُقطع التجوال في الشوارع
بسبب حشد السيارات؛ وتُضيء واجهات المتاجر، وتُفتح المسارح،
وترن الأرصفة تحت خطى النساء الجميلات. وكان هو مثل رجل
بدائي داخل برج بربري، دون أي علامة أخرى على الحضارة غير ذلك
الضوء الباهت الذي عمل فقط على جعل الظلام أكثر وضوحاً، محاطاً
بصمتٍ مأساوي، كأن العالم قد نام إلى الأبد. يمكن تخمين الظل
الزاخر بالألغاز والمخاطر على الجانب الآخر من الجدار الحجري.
لم يعد يأوي الوحش كما كان في عصور ما قبل التاريخ، لكنه يمكن
أن يكون بمثابة مخبأ للإنسان.

فجأة ارتجف فيرر -الذي كان ساكناً- في مقعده، وهو يستمع إلى نفسه، في سكون مشابه لما يحدث عند الأطفال الخائفين الذين يخشون القلب في الفراش؛ لكي لا يزيد الغموض الذي يحيط بهم. شيء غير عادي يخترق الهواء، ويسيطر على ضوضاء الليل المرتبكة. كانت صرخة أو عواء أو صهيلاً؛ أحد تلك الأصوات العدائية والساخرة التي ينادي بها أتباع الانتقام بعضهم في الظل.

شعر خايمي بدافع للنهوض، وللكرض إلى الباب، لكنه ظل ساكناً بعد ذلك. رنت الصيحات التقليدية من مسافة ما. لا بد أنهم كانوا فتیاناً من المنطقة اختاروا الأماكن المجاورة لبرج القراصنة ليتلاقوا والسلاح في أيديهم. لم يعرف ماذا يحدث؛ في صباح اليوم التالي سيكتشف ما حدث.

فتح الكتاب مرة أخرى؛ محاولاً تشتيت انتباهه بالقراءة؛ ولكن بعد بضعة أسطر قفز، وألقى المجلد والغليون على المنضدة.

أوووه! كان لصهيل التحدي والصيحات العدائية الساخرة صدى قريباً من سلالم البرج تقريباً، طالت مع نفخة قوية من رئين شبيهة بالمنفاخ. في الوقت نفسه تقريباً، دوى ضجيج حاد من المراوح المفتوحة في الظلام: كانت الطيور البحرية، التي تفاجأت في نومها، انطلقت من بين الصخور لتغير أوكارها.

كان من أجله! جاؤوا ليتحدوه عند باب منزله! حذق في بندقيته؛ وضع يده اليمنى على حزامه، متحسباً معدن المسدس، كان دافئاً من ملاسته لجسده؛ خطى خطوتين نحو الباب، لكنه توقف وهز كتفيه

بابتسامة استسلام. لم يكن من الجزيرة؛ فلم يفهم لغة الصباح هذه، وكان يعتقد أنه محمي من مثل هذه الاستفزات.

عاد إلى كرسيه والتقط الكتاب، مبتسمًا بسرورٍ شديد.

- اصرخ أيها الرجل الصالح! صُحْ هنا! أشعر بالأسف من أجلك، حيث يمكن أن تصاب بالزكام في الهواء المنعش، بينما أكون هادئًا في منزلي.

لكن فقط كان هذا الإذعان الساخر متصنعًا. بدأ الزعيق مرةً أخرى، ليس قريبًا من الدرج، ولكن بعيدًا قليلًا، ربما بين الأثل الذي يحيط بالبرج. بدا أن المتحدي يتخذ موقعًا منتظرًا خروج فيرر.

من سيكون؟ ربما الوغد البائس الذي يبحث عنه في المساء! ربما المغني الذي يُقسِم علانيّةً على قتله. فالليل والدهاء - اللذان يعادلان قوى الأعداء - يحمسان هذا الرجل المريض على أن يأتي إليه. كان من الممكن أيضًا أن يكون هناك اثنان أو أكثر في انتظاره.

كان هناك زعيق آخر، لكن خايمي رفع كتفيه مرةً أخرى. يمكنه أن يصرخ مثلما يريد منافسه المجهول.. ولكن للأسف! القراءة مستحيلة، ولا جدوى من محاولة التظاهر بالهدوء!

تكررت الصيحات الآن بشراسة، مثل صياح الديك الغاضب. تصور خايمي أنه رأى رقبة ذلك الرجل متنفخة، حمراء وأوتارها تهتز من الغضب. بدا أن الصرخة الحلقومية تكتسب شيئًا فشيئًا - عندما

تكرر- معالم ومعاني لغة. كانت ساخرة ومستهزئة ومهينة؛ أطلق في وجه الأجنبي حصافته؛ فيبدو أنه وصفه بالجبان.

حاول عبثاً ألا يستمع. كانت رؤيته غير واضحة، وبدلاً من أن الشمعة لم تعد تضيء؛ في فترات الصمت، طن الدم في أذنيه. يعتقد أن بيت المايوركي كان قريباً جداً، وربما كانت مارجاليدا -مرتجفة ومتشبثة بنافذة صغيرة- تستمع إلى هذه الصيحات أمام البرج، حيث يسمعها أيضاً رجل خائف، لكنه محبوس كأنه أصم.

لا.. لا أكثر. هذه المرة ألقى الكتاب بشكلٍ نهائي على الطاولة، وبعد ذلك -غريزياً- دون أن يعرف بالضبط ما الذي سيفعله، أطفأ شعلة الشمعة. وعندما أصبح في الظلام، سار بضع خطوات ويداها ممدودتان، متناسياً تماماً خطط الهجوم التي تصورها قبل لحظات في تفكيره المتسارع. الغضب يُزعج أفكاره. العمى المفاجئ لروحه لا يحمل سوى فكرة واحدة، مثل آخر وميض ضوء انطفأ. كان الآن يلمس البندقية بيدين متحسنتين، عندما توقف عن إمساكها. كان بحاجة إلى سلاح أقل إحراجاً؛ ربما عليه النزول والزحف عبر الأدغال.

سحبه من داخل حزامه، فانزلق المسدس خارج مخبئه بهدوء وحش ناعم ودافئ. تلمس طريقه إلى الباب وفتحه ببطء، مساحة صغيرة فقط كافية لإخراج رأسه، ومفصلات الغليظة تصر قليلاً.

عندما انتقل فبرر من ظلام غرفته إلى جلاء الضوء النجمي المنتشر، رأى بقعة الشجيرات حول البرج، وخلفها البياض المشوش لمنزل المزرعة، وأمامه سنام الجبال الأسود الذي يقطع سماء محملة

بخفقان النجوم. استمرت هذه الرؤية للحظة فقط: لم يستطع رؤية مزيد. ومضتان صغيرتان من البرق، متعرجتان من النار ظهرتا واحدة تلو الأخرى في ظلام الأدغال، تبعتهما فرقعتان تكادان تكونان مختلطتين.

عانى خايمي من إحساس لاذع في أنفه بسبب البارود المحروق، والذي ربما لم يكن أكثر من ظاهرة خيالية. في الوقت نفسه، شعر باصطدام صامت وعنيف فوق قمة جمجمته، شيء غير طبيعي بدا كأنه يلمسه دون أن يلمسه، إحساس الاحتكاك بحجر. سقط شيء على وجهه مثل المطر غير المحسوس. دم؟! تراب؟!

استمرت مفاجآت لحظة واحدة فقط. أطلقوا النار عليه من الأدغال، بالقرب من الدرج. كان العدو هناك... هناك! رأى في الظلام النقطة التي أتت منها الومضات، وهو يتقدم بيده اليمنى خارج الباب، وأطلق النار من مسدسه.. مرة.. مرتين... خمس مرات.. كل الكبسولات التي احتوتها الأسطوانة.

أطلق بشكلٍ أعمى تقريباً، متردداً بسبب الظلام واضطراب الغضب. جعلته ضجة طفيفة من فروع متكسرة وتموج غير محسوس تقريباً للشجيرات يشعر بانبساط شديد. لقد أصاب العدو بلا شك، ولإرضاء نفسه وضع يده على رأسه للتأكد من أنه لم يُصَب بأذى.

عندما مررها لاحقاً على وجهه سقط شيء دقيق ومُحبب من خديه وحاجبيه. لم يكن دمًا؛ كان ترابًا وغبار الملاط. تعثرت أصابعه -وهي تنزلق فوق فروة رأسه المنتفضة أيضًا من اللمسة القاتلة- بفتحتين في الجدار، مشابھتين لقمعين صغيرين، كانتا تحتفظان بإحساس الحرارة.

خدشته الرصاصتان، وتثبتت في الجدار على مسافة غير محسوسة تقريباً
من رأسه.

شعر فيرر بالسعادة لحظه الجيد. كان سليماً، لم يُصب بأذى،
وكان عدوه... أين سيكون في تلك اللحظة؟ هل ينزل لبحث عنه بين
نباتات الأثل ويتعرف عليه وهو يحتضر؟ وفجأة تكرر الصراخ والصياح
الجامح، بعيداً، بعيداً جداً، قريباً من بيت المزرعة.. صيحات منتصرة..
ساخر، فسرّها خايمي على أنها إعلان عن العودة القريبة.

نبح كلب بيت المايوركي -متحمساً بسبب الطلقات النارية-
حزيناً. من بعيد ترد عليه كلابٌ أخرى. ابتعد صياح الرجل، بتكرار
متواصل، في كل مرة أكثر بُعداً.. أكثر خفوتاً.. غارقاً في غموض الليل
الأزرق.



بمجرد بزوغ الفجر، ظهر القسيس في البرج.

لقد سمع كل شيء. ربما لم يعلم والده -الذي كان نائمًا بعمق- بما حدث في ذلك الوقت. يستطيع الكلب فعلاً أن ينبح وأن تدوي عدة طلقات نارية بجوار بيت المزرعة كما هو الحال في الحرب؛ ويبب الصالح -عندما يذهب إلى الفراش متعباً من عمله اليومي- يصبح فاقد الإحساس كرجل ميت. قضى باقي المنزل ليلة من الكرب. كانت الأم -التي بعد عدة محاولات لإيقاظ زوجها لم تحصل إلا على كلمات غير مترابطة أعقبها شخير جديد- تصلي حتى الفجر من أجل روح سيد البرج، معتقدة أنه ميت. نادى مارجاليدا -التي كانت نائمة قريباً من شقيقها- بصوتٍ خفيضٍ وحزين عندما سمعت الطلقات الأولى. «هل تسمع يا بيت؟!».

استوت الفتاة المسكينة على سريرها، وهي تضيء المصباح؛ رآها الفتى في نوره، بوجهٍ شاحبٍ وعينين زائغتين. أظهرت -متصنعة الحياء الشديد والخجل- في اضطرابها أعظم أسرارها، متناسية كل شيء، وهي تشني ذراعيها، وتضع يديها على رأسها. «قتلوا دون خايمي».. أخبرها قلبها بذلك. وكانت ترتجف مع صدى الطلقات الجديدة البعيد. «سلسلة حقيقية من الطلقات» -وفقاً لما كان يقوله القسيس- ترد على الدوي الأول.

تابع الصبي:

-تلك كانت منك، أليس كذلك يا دون خايمي؟ عرفتكما فوراً
وأخبرت مارجاليدا بذلك. أتذكر مساء اليوم الذي أطلقت من مسدسك
النار على الشاطئ. لديّ حاسة سمع قوية في هذه الأمور.

ثم حكى عن يأس أخته، وهي تبحث في صمت عن ثيابها، وترغب
في ارتداء ملابسها للركض إلى البرج. سيرافقها بيت. ولكن بعد ذلك،
خافت فجأة، ولم ترغب في الذهاب. تعرف فقط أن تبكي، وتعارض أن
ينفذ الصبي هدفه في الهروب عبر أسوار الحظيرة.

سمعا صيحات قريباً من المزرعة بعد فترة طويلة من إطلاق
الرصاص؛ ابتسم الصبي بشكلٍ خبيث عندما تحدث عن هذه الصرخة.
ثم اطمأنت مارجاليدا فجأةً من كلمات أخيها، وسكتت، وظلت بلا
حراك على الفراش؛ لكن طوال الليل سمع القسيس تنهدات الألم
وهمهمة طفيفة، كأنّ صوتاً منخفضاً من تحت طيات الملاءة يتمم
بكلمات وكلمات برتابة لا تعرف الكلل. كانت الشابة أيضاً تصلي.

لاحقاً، مع انتشار ضوء الفجر، نهض الجميع ما عدا الأب الذي
لا يزال في نومه الهادئ. عندما ظهرت السيدتان في الشرفة، تهيمن
عليهما الأفكار الأكثر كآبة، كانتا تنتظران أن يشاهدا مشهداً مروّعاً..
البرج مدمر وجثة السيد معلقة فوق أنقاضه. لكن القسيس ضحك عندما
رأى الباب مفتوحاً، وبجانبه -كما هو الحال في الصباحات الأخرى-
دون خايمي، نصفه العلوي عارٍ، يغطس نفسه في دلو أحضره بنفسه من
الساحل المليء بمياه البحر.

لم يكن مخطئاً في الضحك على رعب النساء. «لم يكن هناك من يقتل دون خايمي خاصته. هذا ما كان يقوله، هو الذي يفهم في الرجال».

بعد ذلك، بعد الرواية الموجزة التي حكاها له السيد عن كل ما حدث في الليل، فحص -مضيئاً عينيه بتعبيرٍ ذكي- الفتحتين اللتين فتحتهما الرصاصتان في الحائط.

- وكانت رأسك هنا، حيث رأسي؟ تباً!

عكست نظراته الإعجاب والتبجيل الورع لذلك الرجل المدهش الذي تم خلاصه للتو بمعجزة حقيقية.

سأل فبرر الصبي عن المعتدي المفترض، واثقاً في معرفته بأهل البلد، وابتسم القسيس بهيئة شخص مهم. لقد سمع الصياح. كانت طريقة صيحة المغني نفسها.. تصور الكثيرون أنه هو. الصياح نفسه في القصائد الغنائية، في أمسيات الرقص وعند الخروج إلى المغازلات.

- لكنه ليس هو يا دون خايمي. أنا متأكد. إذا سألوا المغني، سيقول أجل ليمنح لنفسه أهمية. لكنه كان الآخر.. الحداد، أعرف صوته، ومارجاليدا تعتقد الشيء نفسه.

واستمر يتحدث -بإيماءة جادة- عن خوف السيدتين الأبله، اللتين كاتتا تصران على ضرورة إخطار الحرس المدني لسان خوسيه.

- لن تفعل ذلك. أليس هذا صحيح يا دون خايمي.. هذا هراء؟ المدنيون يصلحون فقط للجبناء.

أعادت ابتسامة فيرر التحقيرية وهزة كتفيه إلى الصبي مظهره المبهج.

- لقد تصورت ذلك فعلاً.. هذا لا يُستخدم في الجزيرة. ولكن بما أنك غريب، فأنت تقوم بعمل جيد: يجب على كل رجل أن يدافع عن نفسه؛ لهذا السبب يكون رجلاً؛ وفي وقت الأزمات، يبحث عن أصدقاء.

وعندما قال هذا كان يتبخر، ولخص في شخصه كل المساعدة القوية التي يمكن أن يعتمد عليها دون خايمي في لحظات الخطر.

أراد القسيس الاستفادة من هذا الحدث، وهو ينصح السيد بالفائدة من اصطحابه للعيش في البرج. لو أنه طلب من السيد بيب، فلن يكون الأخير قادراً على رفض هذه الخدمة. كان من الملائم لدون خايمي أن يكون بجانبه، سيكون هناك دائماً اثنان للدفاع عن أنفسهما. ولدعم استعجال الطلب، تذكر غضب السيد بيب، واليقين من أنه سيصطحبه إلى إبيزا في بدايات الأسبوع المقبل، لحبسه في المدرسة الإكليريكية. ماذا سيفعل السيد عندما يرى نفسه محروماً من أصدقائه الأكثر إخلاصاً؟

رغب في إظهار فائدة وجوده، عاب على فيرر نسيانه الليلة السابقة. من كان يفكر في أن يطل برأسه من الباب وهم يصيحون من الخارج مع أسلحتهم الجاهزة؟ لم يقتلوه بسبب معجزة. وما الدرس الذي أعطاهم إياه؟ ألم يتذكر نصيحته بالنزول عبر النافذة -خلف البرج- لمفاجأة العدو؟

قال خايمي وهو يشعر حقيقةً بالخجل من نسيانه:

- هذا صحيح.

انتفض القسيس -الذي كان يستمتع بفخر بنجاح هذه النصائح-
ناظرًا من خلال الفتحة الموجودة في الباب.

- أبي!

كان يبب يصعد المنحدر ببطء، وذراعه خلف ظهره مستغرقًا في
التفكير. انزعج الصبي لرؤيته. لا شك أنه كان في مزاج سيئ بسبب
الأخبار الأخيرة.. لم يكن من المناسب له مقابله. وألقى بساقيه خارج
النافذة، وهو يكرر لفبرر مرةً أخرى فائدة إبقائه رقيقًا، وأسند بطنه على
عتبة النافذة، وانزلق على الجدار.

تحدث الفلاح -عند دخوله إلى البرج- دون أي عاطفة عن حادثة
الليلة السابقة، كأن حدثًا عاديًا لم يغير إلا قليلًا من رتابة الحياة الريفية.
أخبرته السيدتان.. كان نائمًا نومًا ثقيلًا للغاية.. إذن لم يكن هناك شيء؟
استمع -بعينين منخفضتين وإبهامين متصلين- إلى رواية السيد
المختصرة. ثم ذهب إلى الباب؛ ليتأمل آثار المقدوفات.

- معجزة يا دون خايمي، معجزة حقيقية.

عاد إلى كرسيه، وبقي ساكنًا فترة طويلة، كأن ذلك كلفه جهدًا
داخليًا كبيرًا؛ ليقوم تفكيره البطيء بعمله.

- الشيطان يسير بحرية يا سيدي.. كان متوقعًا؛ لقد قلت ذلك
فعلًا.. عندما تُراد أشياء مستحيلة، يتشابك كل شيء وينتهي السلام.

ثم ثبت عينيه الباردين والمتفحصتين -رافعاً رأسه- على دون خايمي. يجب إخطار العمدة؛ كل هذا يجب أن يُقال للحرس المدني. قام فبرر بعمل إيماءة رفض. لا؛ كان شأن الرجال، يجب عليه أن يحل الأمر بنفسه.

ظل يبب يحدق في السيد بطريقة غامضة، كأن أفكاراً متضاربة تتصارع في تفكيره.

قال بعد فترة قليلة للفلاح العنيد:

- أنت بخير؟!

يفكر الأجنب بشكل مختلف، لكنه كان سعيداً؛ لأن الرجل قال قول والده المسكين رحمه الله نفسه. في الجزيرة يعتقد الجميع على حدٍّ سواء: أن ما هو قديم كان صحيحاً.

ثم عرض ببب -دون استشارة السيد- نيته في مساعدته في دفاعه. كان واجب الصداقة. لديه بندقيته في المنزل. لم يستخدمها منذ فترة طويلة، ولكن في شبابه -عندما كان والده الشهير رحمه الله على قيد الحياة- كان يُطلق النار بشكلٍ منتظم. وكان يأتي ليقضي الليالي في البرج، بجانب دون خايمي؛ لكي لا يعيش الأخير بمفرده، ويتعرض لمفاجأة في أثناء نومه.

لم يتفاجأ الفلاح برفض السيد الصارخ المُهان بعض الشيء بسبب الاقتراح. كان رجلاً، لا فتى صغيراً يحتاج إلى رفقة. كل واحد في منزله، ويمكن أن يأتي أي مصير يريد.

وافق بيب أيضًا بحركات رأسه على هذه الكلمات. هذا ما كان يقوله والده، ومثله كل الصالحين الذين يتبعون العادات القديمة. بدا فبرر كأنه ابن حقيقي للجزيرة.. ثم، بعد أن رق قلبه بسبب إعجابه الذي ألهمته طاقة دون خايمي، اقترح ترتيبًا آخر. نظرًا لأن السيد لا يريد رفقة في برجه، فيمكنه النزول للنوم في بيت المايوركي. سيكون السرير في أي مكان.

شعر فبرر بإغراء الاقتراح. رؤية مارجاليدا! لكن ميوعة النبرة التي يدعوه بها الأب والإشارة المضطربة التي انتظر بها إجابته جعلته يستسلم. لا؛ شكرًا جزيلًا، يا بيب، كان يقيم في البرج. من الممكن أن يعتقدوا أنه قد غير منزله بدافع الخوف.

أومأ الفلاح برأسه مرةً أخرى بعلامات الموافقة. يتفهم هذا الموقف؛ سيفعل الشيء نفسه في حالته. لكن هذا لم يكن عقبة أمام بيب تجعله ينام أقل في الليل، وإذا سمع صراخًا أو طلقات قريبًا من البرج، فسيخرج إلى الحقل ببندقته القديمة.

كأن هذا التزام يفرض عليه النوم بقلق، مستعدًا للمخاطرة بنفسه؛ دفاعًا عن سيده السابق، وكسر الهدوء الذي يحافظ عليه حتى ذلك الحين، رفع الفلاح عينيه وشبك يديه:

– آه، يا إلهي! يا إلهي!

كان الشيطان طليقًا؛ كررها مرةً أخرى، لم يعد هناك راحة بال. كل ذلك لعدم تصديقه؛ للسير ضد تيار العادات القديمة، التي جعلت الناس أكثر حكمةً ممن هم في الوقت الحاضر.. متى سيقف كل هذا؟

حاول فيبر طمأنة الفلاح، وأفلتت منه فكرة كان يرغب في إخفائها.
يبب يمكن أن يهدأ. كان سيغادر إلى الأبد، لا يريد أن يزعج سلامه
وسلام عائلته.

آه! هل حقًا سيغادر السيد؟ كانت فرحة المزارع كبيرة جدًا وتفاجئه
شديدًا جدًا، حتى إن خايمي ظل مترددًا. بدا له أنه رأى بعض الحقد في
عينَي الريفي الصغيرتين المتقديتين بسبب بهجة الخبر غير المتوقع. هل
سيعتقد ذلك الساكن في الجزيرة أن رحلته المفاجئة كانت للهروب من
الأعداء؟

قال ناظرًا إلى ببب بعدائية:

- سأرحل، لكن لا أعرف متى. لاحقًا.. عندما أراه مناسبًا. من قبل
اضطرت أن أعيش هنا، حتى أجد ما أبحث عنه.

ارتسمت على وجه ببب ملامح استسلام: تبددت فرحته؛ لكنه
كان على وشك الموافقة على هذه الكلمات أيضًا، مضيفًا أن والده كان
سيفعل الشيء نفسه وكان يؤمن بالشيء نفسه.

عندما نهض الفلاح ليغادر، ميّز فيبر -الذي كان بجانب الباب-
القسيس قريبًا من بيت المزرعة، وهذا ما جعله يتذكر رغبة الصبي. إذا
لم يكن يضايق ببب طلبه، يمكنه ترك الفتى لمرافقته في البرج.

لكن الأب استقبل طلبه بفضاظة. «لا يا دون خايمي». إذا كنت
تحتاج إلى رفقة، كان هو هناك، كان رجلًا. الفتى للدراسة. كان الشيطان
طليقًا، وahan الوقت الآن لفرض سلطته، ولعدم استمرار الأسرة في

حالة من الفوضى. في الأسبوع التالي، كان يفكر في أخذه إلى المدرسة الإكليريكية. كانت كلمته الأخيرة.

نزل فيبر - عندما بقي وحيداً - إلى شاطئ البحر. كان العم ينتولرا يصلح وصلات قاربه بالمُشاق والقطران، وهو يضعه على اليابسة. تمدد كأنه نعش هائل، باحثاً بعينه الضعيفتين عن الفجوات، وعندما وجد واحدةً تحتاج إلى الترميم، جعلته الفرحة ينفجر في غناء الأناشيد اللاتينية بأعلى صوته.

عندما لاحظ أن القارب يتحرك، ورأى السيد يتكى على حافته، ابتسم الرجل العجوز ابتسامة خبيثة، وقاطع أناشيده.

- مرحبا دون تشاوم!

كان يعرف كل شيء. أخبرته سيدتنا بيت المايوركي الخبر، وفي تلك الساعة ذاع في أرجاء المنطقة، لكن من أذن إلى أذن، كأنهم لا بد أن يتحدثوا عن هذه الأمور، دون أن يَطَّلِع على الخبر أهل العدل، الأمر الذي يؤدي إلى تعقد كل شيء. عماذا كانوا يبحثون في الليلة السابقة، وهم يصيحون له للخروج من البرج؟ هه! بالنسبة له هو أيضاً.. بالنسبة له هو أيضاً، في الماضي، عندما كان يمارس الحب مع المرحومة بين رحلتين، استفزه أحد رفاقه والذي كان خصمه. لكنه حمل الفتاة بعيداً؛ لأن يده كانت الأكثر استعداداً؛ باختصار، طعنة للصديق في وسط صدره، مما أبقاه بين الحياة والموت فترة طويلة. ثم أصبح يعيش في حذر دائماً كلما نزل إلى اليابسة هرباً من انتقام عدوه؛ لكن السنوات مرت، وكل شيء قد نُسي، وانتهى الأمر بالصديقين الحميمين بالتهريب معاً، وهما يبحران من الجزائر إلى إبيزا أو سواحل إسبانيا.

يضحك العم بتولرا ضحكة طفولية، مسرورًا بهذه الذكريات من أيام شبابه التي تعود إلى الظهور في ذاكرته كلما سمع حديثًا عن طلاقات نارية، طعنات واستفزازات في الليل. آه! لن يستفزه بعد الآن! ترك هذا للشباب. وكانت لهجته حزينة حيث لا يرى نفسه مختلطًا في مغامرات الحب والحرب، التي يعتبرها ضرورية لحياة سعيدة.

تركه فيرر يغني القداس بينما ينهي ترميمه. وجد في البرج سلة طعامه على المائدة. لقد تركها القسيس دون انتظار، وهو يطيع بلا شك بعض نداءات والده معكر المزاج العاجلة. بعد تناول الطعام، عاد خايمي ليتأمل الفتحتين اللتين فتحتهما المقذوفات في الجدار. بعد أن انقضت إثارة الخطر، وقيم خطورته ببرود، شعر بغضب انتقامي، أكثر حدة من الغضب التي دفعته نحو الباب في الليلة السابقة. أسفل بضعة مليترات عند التصويب، وكان سيتدحرج في الظلام عند أسفل الباب مثل بهيمة تم اصطيادها. يا إلهي! وبهذه الطريقة يمكن أن يموت رجل من طبقته، ضحية الخيانة والمطاردة من قبل واحد من هؤلاء الريفيين! أخذ غضبه منعطفًا انتقاميًا. شعر بالحاجة إلى الاستفزاز والغطرسة وأن يظهر هادئًا ومتوعدًا أمام هؤلاء الرجال، الذين يخبتون خصومه بينهم.

أنزل بندقيته، وفحص تعبئتها، وحملها على كتفه، ونزل من البرج، وسلك المسار نفسه الذي سلكه مساء اليوم السابق. عندما مر بجانب بيت المايوركي، دفع نباح الكلب مارجاليدا وأمها للخروج إلى الباب. كان الرجلان في حقلٍ بعيد يزرعه ييب. ولم تعرف الأم -وهي تنبأكي

بكلامٍ متقطع من الانفعال - غير أن تُمسك يدي السيد.

- دون تشاوم! دون تشاوم!

كان عليه توخي الحذر الشديد، والخروج قليلاً من البرج، والحذر من الأعداء. وكانت مارجاليدا - صامته، بعينين مفتوحتين بشدة - تتأمل فيبر، كاشفة عن الإعجاب والقلق. لم تعرف ماذا تقول؛ بدت روحها البسيطة مستغرقة في التأمل بشكلٍ مستكين، ولم تجد الكلمات للتعبير عن أفكارها.

واصل خايمي طريقه. استدار عدة مرات؛ ليرى مارجاليدا واقفة تحت الشرفة، تتبعه بقلقٍ واضح. كان السيد يذهب للصيد فيما مضى، ولكن للأسف.. لقد سلك الطريق الجبلي، وذهب نحو غابة الصنوبر، في واحدة من أراضيها الجرداء كان كور الحداد.

على طول الطريق، كان فيبر يفكر في خطط الهجوم. كان مصممًا على العمل الفوري. حالما يخرج الوغد عند باب منزله، سيطلق رصاصتين من البندقية. كان يُهوِّي أعماله في ضوء الشمس، وسيكون أكثر حظًا؛ فرصاصته لن تصطدم بالجدار.

ولكن عندما وصل إلى كور الحداد، وجده مغلقًا. لا أحد! اختفى الحداد؛ ولم تكن المرأة العجوز التي ترتدي ثيابًا سوداء هناك لتستقبله غاضبة بنظرة عينها الوحيدة المعادية.

جلس عند سفح شجرة مثل المرة السابقة، وبندقية جاهزة، محتميًا خلف الجذع، في حال أخفت هذه العزلة فجأة. مر وقت

طويل؛ كان الحمام البري يرفرف، هائجاً بسبب هدوء وعزلة الكور، في الساحة دون أن يلاحظها الصياد، الساكن والناسي لها. تقدمت قطة ببطء عبر السقف المتهدم، متمددة كنمر، محاولة إمساك العصافير التي لا تهدأ.

مر مزيد من الوقت. هدأ الانتظار والسكون فيبر. ما الذي يفعله هناك، بعيداً عن منزله، في وسط الجبل، والغسق يقترب الآن، وهو ينتظر عدواً ذنبه فقط الأدلة الغامضة؟ ربما كان الحداد في منزله. كان سينزوي حتى يراه يصل، فليس من المفيد انتظاره. يمكن أن يكون قد ذهب بعيداً مع المرأة العجوز، ولن يعود إلا في وقت متأخر من الليل. كان عليه الرحيل.

عاد إلى الوادي، وبيده البندقية، ليكون أول من يطلق النار إذا قابل العدو.

مرة أخرى قابل في الطريق فلاحين وفتيات نظروا إليه بفضولٍ عنيد، وبالكاد ردوا على تحيته. ومرة أخرى رأى المغني ورأسه معصوبة بخرقه، في المكان نفسه، محاطاً بأصدقاء، كان يتحدث إليهم بإيماءات عنيفة. عندما تعرف على سيد البرج، قبل أن يتمكن رفاقه من الإمساك به، انحنى، وأمسك حجرتين من الأخاديد الصلبة وألقاهما عليه. لم تتمكن المقدوفات الريفية -تدفعها ذراع ضعيفة- من الوصول إلى نصف طريقها. ثم -منزعجاً من هدوء فيبر المزدري، الذي واصل تقدمه- انفجر الفتى في تهديداته. سأقتل المايوركي! أعلن ذلك بصوت عالٍ. ليعلم الجميع أنه أقسم على هلاك هذا الرجل!

ابتسم خايمي بحزنٍ لهذه التهديدات. لا؛ لم يكن الحمل المسعور هو الشخص الذي جاء إلى برج القراصنة ليقتله. كان زعيقه الفاضح كافيًا لإثبات ذلك.

قضى السيد الجزء الأول من الليل بهدوء. بعد العشاء -عندما غادر شقيق مارجاليدا وهو على يقين حزين من أن والده لن يتخلى عن اصطحابه إلى المدرسة الإكليريكية- أغلق خايمي الباب، ووضع الطاولة والكراسي خلفه. يخشى أن يُفاجأ في أثناء نومه. أطفالاً النور ودخنٌ في الظلام، مستمتعًا بخفقان جمرة السيجار الصغيرة التي تكبر مع امتصاصه. كان بقربه البندقية وفي وشاحه المسدس، على استعداد لاستخدامهما عند أدنى حركة في الباب. اعتادت أذنه على ضوضاء الليل ونفثات البحر، يبحث خلالهما عن لمسة أو إشارة إلى أنه في تلك العزلة كانت هناك كائنات بشرية أخرى غيره.

لقد مر وقتٌ طويل. في ضوء السيجار نظر إلى ساعته. إنها العاشرة. بدا صوت النباح من بعيد، واعتقد خايمي أنه تعرف على كلب بيت المايوركي. ربما يشي بمرور شخص يقترب من البرج. كان العدو قريباً الآن: كان من الممكن أن يتسلل بحذر، بعيداً عن الطريق، بين أغصان نباتات الأثل.

استوى في جلسته، فحص البندقية وبحث عن المسدس في حزامه. بمجرد أن يسمع صرخة تحدُّ أو اهتزازاً عند الباب، سيلقي بنفسه من النافذة، ويلتف حول البرج، ويقبض على العدو من الخلف.

مر مزيد من الوقت.. لا شيء! أراد فيبر أن ينظر إلى الساعة، لكن يده لم تطع إرادته. لم يعد طرف السيجار المحمر يلعب في الظل. سقط رأسه أخيراً على الوسادة؛ وعينه تغمضان: سمع صراخ تحدّ وطلقات نارية وشتائم، لكن كان ذلك في حالة غير طبيعية، كأنه يعيش في عالم آخر، حيث الشتائم والاعتداءات لا تثير حساسيته. ثم.. لا شيء: ظل كثيف، ليلة عميقة لا نهاية لها، بدون أدنى بصيص من الرؤية.. أيقظه شعاع من ضوء الشمس الذي سقط على عينيه وهو يمر عبر شق في النافذة. وُلد من جديد مع ضوء النهار بياض تلك الجدران، والتي تبدو أنها تعرف الظل والغموض الهمجي لقرونٍ أخرى في الليل.

نهض خايمي سعيداً، وعندما فكّ حواجز الأثاث التي تسد الباب، ضحك بعض الشيء من حذره، معتبر إياه جُبناً بعض الشيء. لقد أزعجته سيدتا بيت المايوركي بخوفهن. مَنْ يمكنه أن يأتي باحثاً عنه في البرج، وهو يعلم أنه كان يقظاً وسيتلقى طلقات! غياب الحداد عندما ذهب هو إلى كور الحداد وهدوء الليلة السابقة جعل خايمي يفكر. هل أُصيب الوغد؟ هل أصابته إحدى رصاصاته؟

أمضى الصباح في البحر. أخذ العم بنتولرا إلى بدر، مشيداً بخفة قاربه ومزايا أخرى. كان يصلحه عامًا بعد عام، ولم يبقَ فيه شظية منذ بنائه الأول. اصطادا عند مأوى الصخور حتى منتصف النهار. بعدها عاد إلى البرج، رأى فيبر القسيس يجري على طول الشاطئ وهو يلوح بشيء أبيض عاليًا.

قبل أن يقفز إلى الشاطئ، عندما أغرق القارب مقدمته في الحصى، صرخ الصبي في وجهه بنفاد صبر شخص يحمل أخباراً رائعة:

- رسالة يا دون تشاوم!

رسالة! في تلك الزاوية من العالم، كان وصول الرسالة هو أكثر الأحداث غير العادية التي يمكن أن تزعج الحياة العادية. قلبها فبرر بين يديه، وتفحصها كأنها شيء غريب وبعيد. نظر إلى الختم؛ ثم نظر إلى الحروف على الظرف... كان يعرفها؛ أثارت في ذاكرته الانطباع نفسه لوجه ودود لا يمكننا ربطه باسم. ممن كانت؟

في غضون ذلك، قدم القسيس توضيحات حول هذا الحدث العظيم. أحضر ساعي البريد الرسالة في منتصف الصباح. كانت من باخرة البريد الخاصة ببالما، التي وصلت إلى إبيزا في الليلة السابقة. إذا كان سيرد عليها، فعليه أن يفعل ذلك دون إضاعة الوقت. ستعود السفينة إلى مايوركا في اليوم التالي.

عندما ذهب خايمي إلى البرج، مزق الظرف وبحث عن التوقيع، تقريباً في الوقت نفسه الذي كانت تتضح فيه الذكري ويلوح اسم: پابلو باييس! يكتب الكابتن پابلو إليه بعد نصف عام من الصمت، وكانت رسالته طويلة: عدة أوراق عمل مغطاة بكتابة ضيقة.

في السطور الأولى، ابتسم المايوركي. كان القبطان هناك - في تلك السطور - بشخصيته الفظة والمفعمة بالحماس والفاضة والودودة والعدوانية. ظن فبرر أنه رأى في الورقة أنفه الضخم الثقيل، وسوالفه الشائبة، وعينيه اللتين لهما لون الزيت مع نقط من التبغ، وقبعته المنبجعة موضوعة بالعرض.

تبدأ الرسالة بطريقة فظيعة: «عزيزي الوقح» وبالأسلوب نفسه كانت الفقرات الأولى.

غمغم مبتسمًا:

- هذا يستحق العناء. هذا يجب أن يُقرأ ببطء.

محافظًا على الرسالة -بلذة الذي يحتفظ ببهجة كبيرة لنفسه- صعد خايمي إلى البرج بعد أن ودع الصبي.

بدأ القراءة، وهو يجلس بجانب النافذة، ونصفه العلوي مُلقى إلى الوراء وظهره متكئ على الطاولة. كان يملأ الصفحات الأولى انفجار من الاندفاع الهزلي، والإهانات الودودة، والسخط على أمور منسية. استرسل پابلو بايس في كلام غير مترابط مضحك، مثل ثرثار حُكم عليه بالصمت فترة طويلة ويعاني من عذاب الكلام المكبوت. ألقى باللوم على فيرر في أصوله وكبريائه، مما دفعه إلى الفرار دون أن يودع أصدقائه. «في النهاية، من عرق قضاة تحقيقات». أحرق أجداده أجداد بايس: لا ينسى ذلك! ولكن كان يجب تمييز الخيرين عن الأشرار في شيء. وهو، المنبوذ، التشويتا، الهَرطقي المكروه من بعضهم وبعضهم الآخر، قد قابل افتقاد الصداقة هذا برعاية شؤون خايمي. بالتأكيد كتب إليه عدة مرات عن هذا الموضوع صديقه توني كلايس، الذي تسيّر أعماله على ما يرام، كما هو الحال دائمًا، على الرغم من تعرضه لبعض النكسات. أمسك قاربان له محملين بالتبغ.

«ولكن دعنا لا نشرد، فلندخل في صلب الموضوع. أنت تعلم أنني رجل عملي، إنكليزي حقيقي، عدو تضييع الوقت».

والرجل العملي، الإنجليزي، حتى لا يشرد، غطى صفحتين آخرين بانفجارات سخطه على كل ما كان يحيط به: ضد إخوانه في العرق الخجولين والمتواضعين، الذين يقبلون يد العدو؛ ضد أحفاد المضطهدين السابقين؛ ضد الأب الشرس جاروا، الذي لم يبق منه حتى الغبار؛ ضد الجزيرة بأكملها، روكنا الشهيرة، التي يعيش فيها شعبه خاضعاً بسبب حب الأرض، ويدفع ثمنه دائماً بالعزلة والإهانات.

«لكن دعنا لا نشرد: الترتيب والأسلوب والوضوح. قبل كل شيء، دعنا نكتب بشكلٍ عملي. ما ينقصنا هو افتقاد الطبيعة العملية».

ثم تحدث عن لا بايسا خوانا، سيدة مرعبة كان پابلو باييس يراها دائماً من بعيد، فبالنسبة لها هو تجسيد لكل المعاصي الثورية وكل خطايا عرقه. «لا تأمل في هذا الجانب». تذكرته عمة فيرر لتندب على نهايته السيئة وتثني على عدل الرب، الذي يعاقب الذين يسلكون الطرق الخاطئة وينحرفون عن التقاليد المقدسة للعائلة. أحياناً كانت تعتقد السيدة الطيبة أنه في إبيزا؛ مراتٍ أخرى تؤكد بكل يقين أنهم رأوا ابن أخيها في أمريكا، وهو منخرط في أدنى المهن. «على أي حال، ابن قاضي ديوان التفتيش، عمك المقدسة لا تتذكرك ولا يجب أن تتوقع منها أدنى مساعدة». الآن كانت النيمة في المدينة أنها تخلت بشكلٍ نهائي عن فخامة العالم، وربما الوردة الذهبية البابوية، التي لم تصل أبداً، وستسلم ممتلكاتها إلى كهنة بلاطها، وتحبس نفسها في الدير مع جميع وسائل الراحة لسيدة ذات امتياز. ابتعدت لا بايسا إلى الأبد؛ من المستحيل توقع أي شيء منها. «وهنا أنا أتيت يا جاروا الصغير؛ أنا

المنبوذ، التشويتا، طويل الذنب، الذي يرغب في أن تعشقه وتوقره كما لو كنت العناية الإلهية».

في النهاية، كان الرجل العملي -عدو الشرود- ينفذ وعده، وأصبح أسلوب الخطاب موجزًا، له جدية تجارية. أولاً، حساب طويل للأملاك التي لا يزال خايمي يمتلكها قبل مغادرة مايوركا، مُثقلة بجميع أنواع الضرائب والرهون العقارية؛ ثم قائمة بدائنيه، والتي كانت أكبر من قائمة ممتلكاته، متبوعة بقائمة الفوائد والالتزامات، شبكة متشابكة ضاعت فيها ذاكرة فيرر، ولكن من خلالها سار بايس بشكلٍ مستقيم، بثقة عرقه الذي يحل أكثر الأعمال إرباكًا.

قضى القبطان پابلو نصف عام دون أن يكتب إلى صديقه، لكنه كان يعتني بشؤونه كل يوم. كان يحارب أشرس المراكبين في الجزيرة، ويهين بعضهم، ويتفوق على بعضهم الآخر بدهاء، مستخدمًا الإقناع أو التبعج، ودفع الأموال لتلبية القروض الأكثر إلحاحًا التي يهدد أصحابها بالمصادرة والبيع. الخلاصة: لقد ترك ثروة صديقه صافية وسليمة، لكنها عادت لتظهر صغيرة وغير ذات أهمية تقريبًا بعد معركة رهيبية. يتبقى لفيرر بضعة آلاف من الدورو: ربما لن تصل إلى خمسة عشر؛ لكن هذا كان أفضل من العيش في بيئته القديمة كسيد عظيم دون أن يأكل ويخضع لمطالب الدائنين. «حان وقت عودتك. ماذا تفعل هناك؟ هل ستقضي حياتك كلها مثل روبنسون في برج القراصنة هذا؟»، يجب أن يعود فورًا ليعيش في اعتدال مُبهج. الحياة في مايوركا رخيصة. بالإضافة إلى ذلك، يمكنه التقدم لوظيفة حكومية. باسمه وعلاقاته لم يكن من الصعب القيام بذلك.

يمكنه أيضًا الانخراط في التجارة، تحت إشراف ومشورة رجل مثله. إذا كان يريد السفر، فلن يكون من الصعب على بآيس أن يبحث عن وظيفة له في الجزائر أو في إنجلترا أو في أمريكا. كان للقبطان أصدقاء في كل مكان. «عُد قريبًا، يا جاراو الصغير، المحقق اللطيف؛ لن أخبرك مزيدًا».

أمضى فيرر بقية المساء وهو يقرأ الرسالة أو يتجول حول البرج، متأثرًا بهذه الأخبار. لاحت الآن ذكريات حياته في الماضي -التي أخدمتها الحياة المنعزلة- بالوضوح نفسه كما لو كانت أحداث اليوم السابق. مقاهي بورن! أصدقاؤه من الكازينو! العودة إلى هناك، قفزًا إلى حياة المدينة، بعد انزاله شبه الوحشي في البرج! سيغادر في أقرب وقت ممكن: كان مصممًا على القيام بذلك. سيغادر في صباح اليوم التالي، مستفيدًا من رحلة العودة على الباخرة نفسها التي أحضرت الرسالة.

ظهرت ذكرى مارجاليدا في ذاكرته، محاولةً إبقائه في الجزيرة. كان يراها بيضاء، باستداراتها الرائعة وعينيها الخجولتين الخفيضتين، واللتان تبدوان كأنهما يخفيان شدة سواد حدقتها مثل خطيئة. اتركها! لا ترها بعد الآن! وكانت ستكون لأحد هؤلاء البرابرة، الذين يدنسون جمالها وهم يشغلونها في أعمال الحقل، ويحولونها شيئًا فشيئًا إلى بهيمة زراعة سوداء صامتة متجعدة!

لكن سرعان ما أخرجه تأكيد متشائم من هذا الشك القاسي. لم تكن مارجاليدا تحبه، ولم تستطع أن تحبه. كان الصمت المقلق والدموع الغامضة هي كل ما استطاع تحقيقه مع تصريحات حبه. لماذا

الإصرار على قهر ما بدا مستحيلًا للجميع؟ لماذا تستمر المعركة الخفية مع الجزيرة بأكملها من أجل امرأة لا يزال يجهل - بالتأكيد - هل تحبه؟ فرحة الأخبار الأخيرة جعلت فيرر متشككًا مرةً أخرى. «لا أحد يموت من الحب». مغادرة هذه الأرض في اليوم التالي ستكلفه مجهودًا كبيرًا؛ سيشعر بحزنٍ عميق عندما يغيب عن البياض الإفريقي لبيت المايوركي. لكن عندما شعر بالتححرر من بيئة الجزيرة وعاد إلى حياته القديمة، ربما لن تكون مارجاليدا أكثر من ذكرى شاحبة، وكان سيضحك أول شخص على هذا الشغف بفتاة ابنة أحد المستأجرين السابقين من عائلته.

لم يتردد أكثر. الليلة سيقضيها في عزلة البرج، كرجل بدائي من الذين يعيشون مترقيي الخطر، مستعدين للقتل. وفي الليلة التالية سيجلس على طاولة في مقهى، تحت وهج الأضواء الكهربائية، ويرى عربات على طول الأرصفة، وتمر في وسط بورن نساء أجمل من مارجاليدا. «إلى مايوركا!» لن يعيش في قصر: فقد قصر عائلة فيرر إلى الأبد في الإصلاح الثوري والمُنقذ الذي ابتكره صديقه بايس؛ لكنه لن يفتقد منزلًا صغيرًا نظيفًا في إلترنو أو أي حي آخر قريبًا من البحر، وفيه ضُحبة ورعاية مادو أنطونيا الأمومية. لا حزن، لا خجل كان ينتظره هناك. حتى أنه سيكون حرًا من ناحية دون بنيتو بايس وابنته، اللذين تخلى عنهما بطريقة خاطئة، دون أي عذر. كان التشويتا الثري - كما أعلن شقيقه في الرسالة - يعيش الآن في برشلونة للعناية بصحته بشكل أفضل. مما لا شك فيه - كما يعتقد القبطان پابلو - أن هذه الرحلة كانت

للعثور على صهر بعيداً عن المخاوف التي تطارد عرقه على الجزيرة.
في ختام الليل وصل القسيس حاملاً سلة العشاء. بينما كان فيرر يأكل بنهم وبشهية الفرح الطيبة، كان الصبي يتجول في الغرفة، وهو يراقب بعينين قلقتين، في حال وجد تلك الرسالة التي أثارت فضوله. «لا شيء». أصابته فرحة السيد بالعدوى في النهاية، وضحك أيضاً، دون أن يعرف السبب، معتقداً أنه مضطر لإظهار روح الدعابة؛ لأن دون خايمي كان سعيداً.

وقال فيرر مازحاً عن ذهابه قريباً إلى المدرسة الإكليريكية. كان يفكر في منحه هدية، لكنها هدية غير عادية، لم يستطع تخيلها، والتي ستكون السكن بجانبها بلا قيمة. كانت عيناه تحدقان -عندما قال هذا- في البندقية المعلقة على الجدار.

عندما غادر الصبي، أغلق الباب وتسلى على ضوء الشموع وقام بجرد وتوزيع الأشياء التي تملأ منزله. في صندوق خشبي كبير وقديم، منحوت بسكين بشكل خشن، كانت ثيابه التي أتى بها من مايوركا، والتي كانت مطوية، بين الأعشاب العطرية، بفضل اعتناء مارجاليدا. سيرتيديا في صباح اليوم التالي. فكر ببعض الرعب في تعذيب الأحذية وعذاب ياقة القميص، بعد فترة طويلة من الحرية الريفية؛ لكنه أراد مغادرة الجزيرة كما جاء إليها. أهدى الباقي لبيب والبندقية لابنه، ضاحكاً على لفنة الإكليريكي الصغير أمام هذه الهدية، التي تأخرت قليلاً.. سيصطاد بها عندما يصبح راهباً في إحدى مناطق الجزيرة.

أخرج رسالة بائس من جيبه مرة أخرى، مسرورًا بقراءتها ببطء، كأنه يجد في نصها أخبارًا جديدة في كل مرة. وبينما يقرأ هذه الفقرات التي كانت مألوفة له الآن، كانت أفكاره تعمل متباعدة يدفعها الفرح. أيها الصديق الجيد پابلو! كيف وصلت نصيحته في الوقت المناسب! أخرجه من إيبزا في أنسب لحظة، عندما رأى نفسه في حرب مفتوحة مع كل هؤلاء الأشخاص الفظين، الذين أرادوا الموت للغريب. القبطان لم يكن مخطئًا. ماذا يفعل هناك - مثل روبنسون الذي لم يستطع حتى الاستمتاع بهدوء العزلة؟ بائس - ذكي كما هو الحال دائمًا - حرره من الخطر.

بدأت له حياته قبل ساعات - عندما لم يكن قد تلقى الرسالة بعد - مثيرة للسخرية وسخيفة... الآن أصبح رجلًا مختلفًا. كان يتسم بشفقة وبخجل ذلك الرجل المجنون الذي كان في اليوم السابق يحمل بندقية على كتفه، وينطلق على طريق الجبل للبحث عن مسجون سابق، متحدثًا إياه إلى قتال بربري في عزلة الغابة. كأن كل أشكال الحياة على الكوكب كانت مركزة في الجزيرة الصغيرة، وكان على المرء أن يقتل ليعيش فيها! كأن لم تكن هناك حياة أو حضارة خارج الملائة الزرقاء التي تحيط بهذه القطعة من الأرض، مع مجموعتها البشرية من الأرواح البدائية المتحجرة في عادات القرون الماضية! كانت هذه الليلة الأخيرة من حياته الجامحة. في اليوم التالي، كل ما حدث لن يكون أكثر من كومة من الذكريات الممتعة، ومع قصته يمكنه الترفيه عن أصدقائه في بورن.

قطع فيرر أفكاره فجأة، وهو يبعد عينيه عن الورقة. عندما رأى نصف الغرفة في الظل والنصف الآخر في ضوء ضارب إلى الحمرة جعل الأشياء ترتجف، بدا كأنه عاد من الرحلة البعيدة التي كان خياله يجره إليها. كان لا يزال يعيش في برج القراصنة؛ كان لا يزال في وسط كآبة، في عزلة تسكنها ضجة الطبيعة، داخل مكعب حجري كان يبدو كأن جدرانه تعرق لغزاً قاتمًا.

رن صوت شيء ما خارج البرج: صراخ، صياح، مختلف عن تلك الليلة، أكثر اختناقاً، وأكثر بُعداً. كان لدى خايمي شعور أن هذه الصرخة قادمة من قريب جداً، وربما كان يُطلقها شخص مختبئ في مجموعات من نباتات الأثل.

ركز انتباهه، وبعد فترة عاد الصياح مرة أخرى. كان صياح الليلة الماضية نفسه، لكنه مكتوم وهادئ وأجش، كما لو أن الشخص الذي يطلقه خائف من أن تنتشر الصرخة بعيداً، ووضع يديه حول فمه ليرسلها بهذا البوق الطبيعي نحو البرج فقط.

مرت المفاجأة الأولى، ضحك بهدوء هازاً كتفيه. لم يكن يخطط للتحرك. في ماذا كانت تهمه هذه العادات البدائية وتحديات الفلاحين هذه؟ «صُحَّ أيها الرجل الطيب؛ اصرخ حتى تتعب.. أنا أصم».

ولتشيت انتباهه، قرأ الرسالة مرة أخرى، مسروراً بالتلذذ بقائمة الدائنين الطويلة، التي يثير عدد من أسمائهم رؤى غاضبة أو ذكريات بشعة. استمر الصياح على فتراتٍ طويلة، وفي كل مرة كان يقطع صوته الحاد الأجش الصمت، يرتعد فيرر من نفاد صبره وغضبه. «يا إلهي! هل سأقضي الليلة هكذا، مستيقظاً بسبب هذا الغناء المتوعد؟».

كان يعتقد أن العدو -المختبئ في الشجيرات- يرى شقوق الباب مضاءة مما جعله يصبر على استنزائه. أطفأ الشمعة ومدد على السرير، وهو يشعر بإحساس الراحة لوجوده في الظلام، وظهره يغوص في صرير النضيدة الناعم. يمكن لهذا البربري أن يصيح ساعات وساعات حتى يفقد صوته. لم يرد أن يتحرك. في ماذا كانت تهمة إهانته؟ وضحك بفرح حيوان مرتاح في نعومة فراشه، بينما الآخر مختبئ وراء الشجيرات، وسلاحه جاهز وعينه منتبهة. يا لها من خيبة أمل للعدو!

كاد فيرر أن ينام هادئاً بسبب هذه الصرخات المهددة. لقد وضع الحاجز نفسه خلف الباب كما في الليلة السابقة. بينما ترن الصراخات، كان متأكدًا من عدم وجود خطر يهدده. فجأةً، استوى في جلسته، وهو يطرد ذلك الرقاد الذي يسبق النوم. لم يعد هناك صياح. ما أبقاه مستيقظاً هو غموض الصمت، الذي كان أكثر تهديدًا وقلقًا من صيحات العداء. تقدم برأسه، واعتقد أنه أدرك احتكاكًا خفيفًا بين الضوضاء المشوشة والمندمجة في تنفس الليل، صريرًا طفيفًا من الخشب، شيئًا مشابهًا لوزن قط خفيف يتسلق من درجة إلى درجة على سلم البرج، مع فترات تمهل طويلة بلا حراك.

بحث خايمي عن المسدس وأمسكه بيده اليمنى. كان السلاح يرتعش بين أصابعه. بدأ يشعر بغضب رجل قوي يخمن تجول عدو قريبًا من بابه.

توقف الصعود البطيء، ربما في منتصف السلم، وبعد صمتٍ طويل، سمع المنعزل صوتًا هادئًا، صوتًا كان يرن فقط من أجله. كان

صوت الحداد: لقد تعرف عليه. طلب منه الخروج؛ ووصفه بالجبن، مضيفاً إلى هذه الإهانة سباً آخر للجزيرة المكروهة التي وُلد فيها.

بدفعة طائشة، نهض خايمي من السرير، فظهر صوت الفراش بشكلٍ صاخب تحت هبوط ركبتيه. وعندما وقف في الظلام، والمسدس في يده، شعر مرةً أخرى بالأسف لهذه الحركة واحتقر منافسه. لماذا يكثرث به؟ كان عليه أن يعود ليستلقي.. كان هناك صمت طويل، كما لو أن العدو -عندما سمع خشخشة الفراش- توقع أن يخرج ساكن البرج في أي لحظة. لكن مر بعض الوقت، وعاد الصوت الأجش المهين يرن في هدوء الليل. كان يصفه بالجبان مرةً أخرى؛ ويدعو المايوركي للخروج. «اخرج يا ابن...».

ارتجف فيرر أمام هذه الإهانة، ووضع المسدس في وشاحه. والدته.. والدته المسكينة.. شاحبة.. مريضة.. حلوة كقديسة، تُبعث من جديد مع أبشع الإهانات من فم ذلك السجين!

سار بشكلٍ غريزي نحو الباب، وتعثّر بالطاولة والكراسي المكدسة بعد بضعة خطوات. لا؛ ليس الباب... كان على الجدار الكئيب مستطيل من الضوء الضبابي والأزرق. فتح خايمي النافذة للتو. أضواء التوهج النجمي بخفوت تقلص وجهه، وهو ردة باردة يائسة وقاسية، مما جعله يشبه إلى حدٍّ كبير القائد دون بريامو وملاحِي الحرب والدمار الآخرين، الذين كانت صورهم مُغطاة بالغبار في قصر مايوركا.

جلس على عتبة الشرفة، وألقى بساقيه للخارج، وبدأ ينزل ببطء، وهو يتحسس بقدميه التجاويف في الجدار لمنع الحجارة السائبة من التدحرج، وهي تشي عنه بضوضائها.

عندما لمس الأرض أخرج المسدس من حزامه، وهو ينحني، تقريباً على ركبتيه، بيدٍ واحدة على الأرض، بدأ في اتباع محيط قاعدة البرج. تشابكت قدماه مع جذور نباتات الأثل التي كشفتها الرياح، وتغوص في الرمال مثل أجمة من الثعابين السوداء. في كل مرة كانت تجعله إحدى هذه العثرات يتردد، مما أجبره على القيام بدفعها بقسوة ليوصل تقدمه، في كل مرة يتدحرج فيها حجر أو يقطع، يتوقف حابساً أنفاسه. كان يرتجف، ليس من الخوف، ولكن من الجزع والقلق، من اضطراب الصياد الذي يخشى أن يتأخر. آه، إذا سقط على العدو، إذا أمسك به قريباً من البوابة، وهو يُطلق إهاناته القاتلة بصوتٍ خفيض!

يزحف مثل حيوان، على سطح الأرض تقريباً، جاء ليرى الطرف السفلي من سلمه، ثم الدرجات العلوية، وأخيراً الباب الأسود في منتصف مكعب البرج، الذي يبدو أبيض تحت وهج النجوم. لا أحد! هرب العدو.

جعلته المفاجأة يجلس، محدقاً بقلق في الرقعة السوداء المتموجة من الشجيرات التي تمتد إلى الأسفل على المنحدر. استغرق هذا الاختبار مدة قصيرة. خرج من بين نباتات الأثل، على مسافة قصيرة منه تعرج أحمر، تموج مشتعل وقصير، تبعه سحابة صغيرة ورعد. ظن خايمي أنه تلقى حجراً في صدره، حصاة ساخنة ربما تكون قد أحدثت ضجيج الدويّ.

فكر: «لا شيء!».

لكنه في الوقت نفسه رأى نفسه ملقى على ظهره على الأرض، دون أن يعرف كيف.

«لا شيء!»، فكر مرة أخرى.

تقلب بشكلٍ غريزي، واستدار وصدره على الأرض، وهو يتكأ على إحدى يديه ويمد اليد الأخرى التي تمسك المسدس. كان يشعر بالقوة، ويكرر لنفسه أن ذلك لم يكن شيئاً، لكن الجسد رفض ببلادة فجائية إطاعة إرادته. وبدأ أنه ملتصق بالأرض بتعاطف مؤلم.

رأى الشجيرات تهتز كأن وحشاً مظلماً حذرًا خبيثاً يحركها. هناك كان العدو. أولاً تقدم برأسه، ثم نصفه العلوي، وأخيراً سحب ساقيه من بين الأغصان التي تخشخش.

فكر فيرر -بالرؤية السريعة التي تصاحب الغارق والمحتضر في لحظاته الأخيرة، رؤية تتركز فيها الذكريات الهاربة من كل الحياة السابقة- في شبابه، عندما كان يطلق النار بمسدس في حديقة بالما ممدداً على الأرض ومتظاهراً بالإصابة، مثل تجربة لمواجهات وهمية. لأول مرة كان يخدمه هذا الحذر الغريب.

من الواضح أنه رأى الجسم الأسود للعدو ثابتاً في مرمى نيران مسدسه. رآه في كل مرة أكثر إبهاماً وتحيراً، كأن الليل يزداد ظلاماً بمرور الوقت. يتقدم بحذر، وبسلاح في يده أيضاً، لا شك لأجل القضاء عليه. حينها ضغط الزناد مرة وأخرى ومرةً أخرى، معتقداً أن السلاح لم يكن يعمل، دون أن يسمع فعلاً دويّه، ليقول لنفسه في يأسه أن العدو سيسقط عليه، ويمنعه من الدفاع. لم يعد يراه الآن. انتشر ضباب أبيض

أمام عينيه؛ طنت أذناه.. ولكن عندما اعتقد أنه شعر أن غريمه قريب منه، تبدد الضباب، ورأى مرةً أخرى ضوء الليل الأزرق الهادئ، وعلى بعد خطوات قليلة، تمدد أيضًا على الأرض جسد يتقلب ويتقوس ويخدش الأرض ويطلق شخيرًا مؤلمًا.. فواق الموت.

لم يستطع خايمي فهم هذه المعجزة. هل كان حقًا هو الذي أطلق النار؟

أراد أن ينهض، وتبللت يده من وحل كثيف ساخن، عندما أحس الأرض. لمس صدره، فوجده مبتلًا أيضًا بشيءٍ دافئٍ وسميك كان يتساقط في قطرات رقيقة ومتواصلة. حاول أن يشد ساقيه على ركبتيه، ولم تطعه رجلاه. عندها فقط اقتنع بأنه أُصيب.

فقدت عيناه وضوح الرؤية. تأمل البرج مرتين، ثم ثلاثة مرات، ثم الستار الكامل من المكعبات الحجرية التي تمتد على طول الساحل وتغرق داخل البحر. ينتشر طعم لاذع على حنكه وشفتيه. بدا له أنه يشرب شيئًا ساخنًا ولزجًا، لكنه كان يشربه بالعكس، بسبب هذيان حركة حياته الآلية، مشروب غريب يأتي إلى حلقه من أعماق أمعائه. كانت الكتلة السوداء التي تتقلب بين الشخير على بعد خطوات قليلة منه تكبر في كل مرة حيث كانت في التواءاتها تلمس الأرض. لقد كان فعالًا حيوانًا مروعًا، وحش الليل عندما يتقوس كان يصل إلى النجوم. نباح كلب وأصوات الناس أذاب أوهام الوحدة هذه. انبثقت أنوار من الظلال.

- دون تشاوم! دون تشاوم!

لمن كان هذا الصوت الأنثوي؟ أين سمعه؟

رأى الأجسام السوداء تتحرك، وتنحني، ممسكةً نجوماً حمراء
في أيديهم. رأى رجلاً يحمل واحدة أخرى أصغر، وفي يد الأخير برق
أبيض، ربما سكين، كان ينوي بها القضاء على الوحش الذي يركل.
لم يرَ أكثر. شعر أن أذرعاً ناعمة - ذات بشرة رقيقة ودفع لطيف -
تمسك رأسه. بدا صوت - الصوت السابق نفسه - مرتعشاً وباكياً، في
أذنيه:

- دون تشاوم! آه، دون تشاوم!

شعر بلمسة حلوة على فمه، شيء ناعم كان يداعبه بشكلٍ حريري،
وشياً فشيئاً زاد من اتصاله حتى أصبح قبلة محمومة يائسة غاضبة من
الآلم.

ابتسم الرجل الجريح - قبل أن يفقد بصره - بضعف عندما لاحظ
عينين دامعتين من الحب والحزن بالقرب من عينيه.. عينا مارجاليدا.



عندما رأى فِبرر نفسه في غرفة في بيت المايوركي ممدداً على سرير مرتفع -ربما سرير مارجاليدا-، بدأ يدرك ما حدث قبل ذلك بوقتٍ قصير.

لقد وصل إلى منزل المزرعة على قدميه، متكئاً على بيب وابنه، وهو يشعر خلف ظهره بأيادٍ لها لمسة لطيفة بدت كأنها ترتجف. كانت ذكريات غامضة وغير دقيقة، محاطة بهالة من الضباب الأبيض؛ شيء مشابه للذاكرة المشوشة للأفعال والكلمات بعد يوم من السكر.

تذكر أن رأسه قد بحث بكسلٍ قاتل عن الدعم على كتف بيب؛ وأن قوته كانت تتركه، كأن الحياة تهرب مع التيار الجاري الساخن والزلج الذي يتدغدغ على طول صدره وظهره. تذكر أيضاً أن خلف خطواته كانت تُسمع آهات مكتومة، كلمات متقطعة تطلب مساعدة كل القوى السماوية. وهو -وسط ضعفه، وخفقان صدغيه بسبب طنين الدماغ المصاحب للإغماء- يبذل جهوداً لتركيز طاقاته على ساقيه، متقدماً خطوة بعد خطوة، خائفاً من أن يبقى على الطريق إلى الأبد. يا له من نزول لا نهاية له إلى بيت المايوركي! لقد استمر ساعات، استمر أياماً.. في ذاكرته الغامضة تبدو هذه المسيرة تقريباً طويلة للغاية مثل حياته السابقة بأكملها.

عندما ساعدته الأذرع الودودة على الصعود إلى الفراش، وعلى ضوء قنديل جردوه من ملابسه، شعر فيرر بإحساس الرفاهية والراحة. لن ينهض ثانيةً من هذه النعومة! سيبقى فيها إلى الأبد!

دم! اللون الأحمر الصاخب للدم في كل مكان: على سترته وقميصه، الذي سقط مثل خرق أسفل السرير؛ في البياض الصارخ للملاءات السميكة؛ في دلو الماء الملون عندما غمس بيب قطعة قماش ليغسل الجزء العلوي من جسد الجريح. نثرت كل قطعة ممزقة من جسده مطراً خفيفاً حوله. انفصلت الملابس الداخلية عن الجسد بنفضة مؤلمة. ينزع ضوء القنديل - في لهيبه المهتز - علامة حمراء أبدية من الظلال.

انفجرت النساء في النحيب. ضمت والددة مارجاليدا - متناسية كل حكمة - يديها ورفعت عينيها بتعبير رعب. «أيتها الملكة المقدسة...»، فوجئ فيرر - الذي أعادت إليه الراحة في الفراش السكينة - بهذا الهتاف. شعر بالرضى: لماذا ذعرت السيدتان بهذه الطريقة؟ كانت مارجاليدا الصامتة - بعينيها الواسعتين من الرعب - تذهب من مكان إلى آخر، تقلب الملابس، وتفتح الخزانات، في عجلة من الخوف، ولكن دون أن تُذهل عندما سمعت صرخات والدها الغاضبة.

يتعامل بيب - الطيب العابس ذو الشحوب الضارب إلى الخضرة في بشرته الداكنة - مع الجريح في الوقت نفسه الذي يُصدر فيه الأوامر: «ضمادات! كثير من الضمادات! اصمتا أيتها السيدتان! لماذا كثير من الصراخ والنحيب؟»، ما كان على زوجته أن تفعله هو البحث عن وعاءٍ

ما يحتوي على مرهم رائع محفوظ للوقاية منذ زمن والده الشجاع، وهو
وغد مخيف معتاد على الجروح.

وعندما أرادت الأم -المتضايقة من الأوامر الغاضبة- الانضمام
إلى مارجاليدا في البحث عن العلاج، طلبها زوجها مرةً أخرى بجانب
السرير. كان عليها أن تسند السيد: لقد قلبه على جانبه لفحص وغسل
صدره وظهره في الوقت نفسه. رأى ييب المسالم أحداثاً مروعة أكثر
من ذلك عندما كان شاباً، وفهم شيئاً عن الجروح. عندما مسح بقع الدم
بقطعة قماش مبللة، كشف عن ثقبين في النصف العلوي لدون خايمي،
أحدهما في الصدر والآخر في الظهر. حسناً: الرصاصة التي اخترقت
جسده ليس ضرورياً استخراجها، وكان هذا ينجح.

تُجاهد بيديها القرويتين -اللتين تحاولان بث بعض الأنوثة الرقيقة-
لتشكيل سدادات من خرق الضمادات، وإدخالها في فتحات اللحم
المقطوع والدموي، والتي استمرت في تقيؤ السائل الأحمر بسكون.
تدخلت مارجاليدا متجهمة وتُبعد نظرها حتى لا تقابل عيني الجريح،
وهي تدفع ييب بعيداً. «توقف يا أبي!»؛ ربما تعرف كيف تفعل ذلك
بشكل أفضل.. وظن خايمي أنه أدرك في جسده -المتيقظ الحساس
المرتج بسبب الخدش القاسي- تأثير الانتعاش والهدوء اللطيف عندما
تغرق فيه السدادات التي تمسكها أصابع الفتاة.

ظل خايمي ساكناً، شاعراً على ظهره وعلى صدره بالخرق التي
كدستها المرأتان في رعب من الدم.

ظهر مرةً ثانية التفاؤل الذي يحمسه عندما ثنى ساقيه وسقط بجانب
البرج. بالتأكيد لم يكن هذا شيئاً: جرح بسيط؛ كان يشعر بتحسن. كانت
لفتة الحزن والصمت ممن حوله تضايقه، كأنها شيء غير مناسب،
وابتسم لتشجيعهم. حاول أن يتكلم، لكن المحاولة الأولى للكلام
أصابته بإرهاقٍ شديد.

قاطعته الفلاح بإيماءة. «اهدأ يا دون خايمي: كان يجب عليك أن
تبقى ساكناً!»، كان الطبيب قادماً. قام ابنه بركوب أفضل حصان في
المنزل؛ ليحضره من سان خوسيه.

وعندما رأى دون خايمي -بعينين مفتوحتين على مصراعيهما-
مستمراً في ابتسامته المشجعة، واصل يبب التحدث للترفيه عن الجريح.
نام مع ثقل حلم ثابت، عندما أيقظته أصوات وهزات زوجته،
صرخات الصبيان اللذين يركضان نحو الباب راغبين في الخروج.
خارج المزرعة، على جانب البرج، تدوي طلقات نارية. هجوم آخر
على السيد، كما حدث قبل ليلتين! بدا بيت -عندما سمع الطلقات
الأخيرة- فرحاً. كانت لدون خايمي.. كان يعرف فرقعات مسدسه.

أشعل يبب الفانوس الذي يخرج به إلى الحقل، وأخذت زوجته
القنديل، وركضوا جميعاً إلى أعلى التل باتجاه البرج، دون التفكير في
الخطر. أول ما وجدوه كان الحداد، يحتضر، ورأسه يقطر دمًا، يطلق
صيححات ويتلوى مثل الشيطان.. لقد انتهى من المعاناة. رحمه الله! كان
على يبب أن يضرب ابنه، المسعور والخبيث مثل قرد، والذي -عند
رؤيته الرجل المحتضر- أخرج سكيناً كبيرة من حزامه، محاولاً القضاء

عليه. من أين سيحصل بيت على هذا السلاح؟ الشيطان هم الأولاد! أداة متميزة لطالب المدرسة الإكليريكية!

وأشار الأب بعينه إلى السكين التي أهداها فيرر للقسيس، والذي كان الآن مُهملاً على كرسي.

ثم وجدوا السيد منبطحاً بالقرب من درَج البرج. «آه يا دون خايمي»، يا له من فزع لبيب وعائلته! لقد اعتقدوا أنه ميت. في هذه اللحظات تعرف المودة التي تكنها تجاه الناس. وبدا أن الفلاح الطيب -بنظرته الدامعة- يقبل الجريح، ويرافقه في هذه المداعبة الصامتة -المرأتان المنكمشتان بجوار السرير، تحاولان استعادة صحته بأعينهما. كانت نظرة الود هذه والقلق المؤلم آخر ما رآه فيرر. أغلقت عيناه، وسقط بلطف في سبات، بلا أحلام، بلا هذيان، في رقة العدم الرمادية، كأن أفكاره تغفو أمام جسده.

عندما فتح عينيه مرة أخرى، لم يعد الضوء الذي يُضيء الغرفة أحمر. رأى القنديل معلقاً في المكان نفسه، والفتيل أسود ومُطفأ. تسلس ضوء جليدي شاحب من كوة غرفة النوم: ضوء الفجر. عانى خايمي من الإحساس بالبرد. كانت تُتنزع أغطية الفراش عن جسده؛ كانت الأيدي الرشيقة تلمس أغلفة جروحه. كان الجسد -الذي كان غير حساس قبل ساعات قليلة- يرتجف الآن عند أدنى لمسة، مع اهتزاز مخيف من الألم، يوقظ رغبة لا تقاوم في التأوه.

رأى الجريح -متبعاً اليدين اللتين كانتا تعذبانه بنظرته الغائمة- أكماماً سوداء، ثم ربطة عنق، وياقة قميص مختلفة عن تلك التي

يرتديها سكان الجزيرة، وفوق كل هذا وجه بشاربٍ رمادي، وجه كان قد رآه مراتٍ سابقة على الطرقات، لكنه لم يستطع الآن استيعاب ذكرى الرجل. شيئاً فشيئاً تعرف عليه. لا بد أنه الطبيب من سان خوسيه، التقاه في عدة مناسبات على ظهر الخيل أو يقود عربة؛ رجل محنك عجوز، يرتدي نعال كتان مثل الفلاحين، ويختلف عنهم فقط بربطة عنق وياقة مكوية، علامات تفوق اجتماعي احتفظ بها بعناية.

كيف كان يعذبه هذا الرجل عند لمس جسده، الذي بدا قاسياً، وأصبح أكثر حساسية، مع إحساس مرضي وخجول، حيث تقلص بمجرد لمسة الهواء! عندما غاب هذا الوجه عن نظره، ولم يعد يشعر بعذاب يديه، غرق مرةً أخرى في سبات الراحة. أغمض عينيه، لكن سمعه بدا أحد في هذا الظلام. كانوا يتحدثون بصوتٍ خافت خارج الغرفة، في المطبخ المجاور، ولم يتمكن الجريح إلا من إدراك بعض جمل هذه المحادثة الخافتة. دوى صوت مجهول، صوت الطبيب، وسط صمت حزين. وهناً نفسه بأن الرصاصة لم تبقَ في الجسد؛ لقد مرت دون شك عبر الرئة في طريقها. هنا جوقة من هتافات دهشة، وتأوهات مكتومة، واحتجاج بالصوت نفسه: «أجل، الرئة؛ لا داعي للفرع. الرئة تلتئم بسهولة. إنها أرق عضو في الجسم». لم يكن هناك خوف سوى من التهاب رئوي جُرحي.

كان الجريح -وهو يستمع إلى هذا- يتمادى في تفاؤله. «ليس بالأمر الجلل.. ليس بالأمر الجلل». ومرةً أخرى يغطس برفق في بحر من السبات ضبابي، بحر هائل، أملس وثقيل، تغرق فيه الرؤى والأحاسيس دون تموج أو آثار.

منذ هذه اللحظة، فقد فُيرِر مفهوم الزمن والواقع. كان لا يزال على قيد الحياة، كان واثقاً من ذلك، لكن كانت حياته غير طبيعية، غريبة، حياة طويلة من الظل وفقدان الوعي، مع فترات قصيرة من الضوء. كان يفتح عينيه وكان الليل. كانت الكوة سوداء وشعلة القنديل الزيتية تلون كل شيء ببقع حمراء لا تهدأ تتراقص متشبثة بالظلال. يفتحها مرةً أخرى بينما يظن أن لحظات قليلة قد مرت، وكان ضوء النهار فعلاً. يدخل شعاع من ضوء الشمس إلى الغرفة، متبّعاً دائرة من الذهب تحت السرير. وبهذه الطريقة يتبع الليل والنهار أحدهما الآخر بسرعة مذهلة، كأن مجرى الزمن ينقلب إلى الأبد. عندما لم يكن الأمر هكذا، كانت الدورة العامة تظل بلا حراك في رتابة يائسة بدلاً من أن تسير بسرعة. عندما يفتح الجريح عينيه كان الليل ليلاً أبدياً، كأن الكرة الأرضية حُكم عليها أن تعيش في ظلام لا نهاية له. في أحيانٍ أخرى، تشرق الشمس دائماً بشكلٍ مستمر، كما هو الحال في بلدان القطب الشمالي التي تتعرض للوهج المزعج لشهور.

في إحدى هذه الصحوات، وجد عيني القسيس. ظن الصبي أنه تحسن فجأةً، وتحدث بهدوء حتى لا يغضب والده الذي أوصى بالهدوء.

لقد دفنوا فعلاً الحداد. كان الفتوة تحلل في الأرض. يا لها من طلاقات دقيقة لدون خايمي! يا لها من يديه! لقد دمر رأسه.

يتذكر الفتى كل ما حدث بعد ذلك، بفخر لمن تمتع بشرف مشاهدة حدث تاريخي. كان القاضي قد وصل من المدينة ومعه عصاه

ذات الشُّرابة وضابط الحرس المدني ورجلان يحملان أوراقاً ومحبرة، وكلهم مع موكب من القبعات ثلاثية الزوايا والبنادق. صعدت هذه الشخصيات القوية -بعد استراحة في بيت المايوركي- إلى البرج، ينظرون إلى كل شيء، ويفحصون كل شيء، يركضون حول التضاريس كأنهم يريدون اتخاذ قياسات، وأجبروه -القسيس!- على الاستلقاء في المكان الذي وجدوا فيه دون خايمي، متخذاً الوضعية نفسها. لاحقاً، حمل بعض الجيران الرحماء -بإذن من القاضي- جثة الحداد إلى مقبرة سان خوسيه، ونزل موكب العدالة المهيّب إلى بيت المزرعة لطرح أسئلة على الجريح. من المستحيل التحدث معه. كان نائماً، وعندما كانوا يوقفونه، ينظر إلى الجميع بعينين غامضتين، ويغلقهما على الفور. هل السيد حقاً لا يتذكر؟ سيسألونه مرةً أخرى عندما يتعافى. لم يكن هناك اهتمام: كل النزهاء، وكذلك العدل، «كانوا في صالحهم». نظراً لأن الحداد لم يكن له أقارب للانتقام له وكان منفراً، لم يكن الجيران مهتمين بالسكوت، وقالوا جميعهم الحقيقة. ذهب الوغد ليلتين للبحث عن السيد في برجه، ودافع السيد عن نفسه. بدون شك لن يفعلوا شيئاً له. كان يؤكد ذلك القسيس، فبسبب ميوله القتالية كان داخله ما يشبه فقيه قانوني. «دفاع عن النفس يا دون خايمي». في الجزيرة، كانوا يتحدثون عن هذا الحدث فقط. في مقاهي المدينة وكازينوهاتها كان الجميع يتفق معه. حتى أنهم كتبوا إلى پالما يسردون الحدث لتشره الصحف. في هذا الوقت سيكون أصدقاؤه في مايوركا على دراية بكل شيء.

كانت الإجراءات القانونية للقضية قصيرة. الشخص الوحيد الذي تم نقله إلى إيزالو وضعه في السجن هو المغني، بسبب تهديداته وأكاذيبه. حاول إقناعهم أنه هو من ذهب لبحث عن المايوركي المكروهة؛ وكان يمدح الوغد باعتباره ضحية بريئة؛ ولكن بين لحظة وأخرى ستحرره العدالة، حيث ستسأم من حيله وأكاذيبه. كان يتحدث عنه الفتى بازدراء. ذلك الجبان لا يستطيع قتل رجل. كل ذلك مسرحية هزلية!

في أوقاتٍ أخرى، عندما يفتح الجريح عينيه، كان يرى هيئة زوجة يبب ساكنة ومتكورة، وهي تنظر إليه بثبات بحدقتها بدون تعبير، وهي تحرك شفثيها كأنها تصلي، وتقطع هذا المقطع الصامت بتنهيدات عميقة. بمجرد أن تجد نفسها أمام نظرة فيرر الزجاجية، تركض إلى طاولة صغيرة مغطاة بالزجاجات والكؤوس. وتظهر عاطفتها في رغبتها المستمرة في جعله يشرب كل السوائل التي طلبها الطبيب.

وعندما يجد خايمي -في يقظته المضطربة- وجه مارجاليدا، يشعر بانطباع لطيف يساعده على إبقاء عينيه مفتوحتين. كانت حدقتا الفتاة لها تعبير محبوب ومخيف. تبدو كأنها تتوسل الرحمة بعينيها الدامعتين المحاطتين بهالة زرقاء فوق البياض الهادئ والرقيق لوجهها. «بسبيي! كل شيء بسبيي!»، كانت تقول بصمتٍ مع لفطة ندم.

كانت تقترب منه خجلة ومتردة، ولكن دون تورد يُغيّر شحوبها، كأن الظروف الاستثنائية تغلبت على خوفها السابق. كانت ترتب غطاء السرير الفوضوي بسبب حركات الجريح، وتعطيه شراباً وترفع رأسه بيديها بشكلٍ أمومي؛ لتنفس الوسادة. وتضع إصبعها على شفثيه لإسكاته عندما يحاول التحدث.

ذات مرة، أمسك الجريح إحدى يديها في أثناء مرورها ووضعها على فمه، وداعبها بقبلة طويلة. لم تجرؤ مارجاليدا على سحبها. أدارت رأسها فقط حتى لا يرى عينيها المملوءتين بالدموع. كانت تنن بقلق عميق، واعتقد المريض أنه سمع عبارات الندم نفسها التي يخمنها في عينيها في مناسبات أخرى. «خطئي... كان خطئي!»، شعر خايمي بالفرح أمام هذه الدموع. آه حلوة يا (زهرة اللوز)!

لم يعد يرى الآن وجهها ذا الشحوب الناعم؛ لم يميز سوى بريق عينيها الملفوفتين بضباب أبيض، مثلما يرى المرء سطوع الشمس في فجر عاصف. يطن صدغاه بقسوة؛ ويغيم بصره. عند السبات اللطيف السابق، الناعم والخالي مثل العدم، توالى حلم تسكنه رؤى غير مترابطة، صور لنيران تهتز على خلفية من السواد الشديد، لعذابات كانت تجعل آهات الخوف وصراخ الألم تنطلق من صدره. في بعض الأحيان -وسط كوابيسه المرعبة- يستيقظ للحظة، مجرد لحظة، بما يكفي ليجد نفسه جالسًا في السرير، وذراعه ممسوكتان بأذرع أخرى تحاول إبقاءه ساكنًا. ومرة أخرى يغرق في عالم الظلال المليء بالمخاوف. في هذه اللحظة العابرة -المشابهة للرؤية المضيئة السريعة لمتنفس في عتمة نفق- يتعرف على الوجوه المنكوبة لعائلة بيت المايوركي بجانب وجهه. في أوقات أخرى، التقت عيناه بعيني الطبيب، وفي إحدى المرات اعتقد أنه رأى السوالف الرمادية والعينين الزيتيتين لصديقه پابلو بايس. «وهم! جنون!»، كان يفكر وهو يغرق عائداً إلى غيبوبته.

بينما عيناه مغمورتان في هذا العالم الكثيب الذي تمزقه مذنبات

الكابوس الحمراء، تهتز أذناه بضعف في بعض اللحظات مع كلمات كانت تبدو كأنها بعيدة، بعيدة جدًا، ومع ذلك كانت تُنطق بجوار سريره. «الالتهاب الرئوي الجُرحي... الهذيان»، كانت هذه الكلمات تتكرر بأصواتٍ مختلفة، لكنه كان يشك في أنها تشير إلى شخصه. يشعر أنه جيد؛ لم يكن ذلك شيئًا: رغبة قوية في الاستمرار في الاستلقاء؛ تخلُّ عن الحياة؛ شهوانية البقاء ساكنًا، والبقاء هناك حتى يأتي الموت، الذي لم يكن يُلقى فيه أي خوف الآن.

تبدو دماغه -المضطربة بسبب الحمى- تدور وتدور في تعاقب جنوني، وكانت تستحضر هذه الحركة الدائرية في ذاكرته المشوشة صورة شغلها مراتٍ عديدة. كان يرى عجلة، عجلة ضخمة، هائلة مثل الكرة الأرضية، يضيع الجزء الأعلى منها في الغيوم، يغرق قوسها السفلي في الغبار الفلكي الذي يُشرق في السواد السماوي.

كان إطار هذه العجلة من لحم متحرك: الملايين والملايين من المخلوقات متلاحمة معًا، معجونة، كثيرة الحركة، بأطرافٍ حرة، تحركها لإقناع نفسها برشاقتها وحريتها، بينما أجسادهم ملتصقة معًا. جذبت أشعة العجلة^(٦٠) انتباه فيرر بأشكالها المختلفة. كان بعضها سيوفًا ذات نصال دامية مغطاة بأكاليل الغار رمز البطولة؛ وبعض الآخر كأنها صولجانات ذهبية تنتهي بتيجان الملوك أو الأباطرة وعِصيان العدالة وقضبان ذهبية مكونة من عملات معدنية متراكبة وعصا مرصعة بالأحجار الكريمة، رموز للرعاية الإلهية منذ أن تجمع الرجال في

(٦٠) شعاع العجلة: ما يمتد من مركز العجلة من خشب أو حديد.

قطعان للشغاء خائفين وأعينهم مرفوعة إلى الأعلى. وكانت حلقة هذه العجلة عبارة عن جمجمة بيضاء نظيفة ولامعة، كأنها مصنوعة من العاج المصقول؛ جمجمة ضخمة، مثل كوكب، بقيت بلا حراك، بينما كان كل شيء يدور حولها؛ جمجمة مضيئة مثل القمر، والتي بدت بتجاويفها السوداء كأنها تلمح بالشر، وهي تسخر صامته من كل هذه الحركة.

كانت العجلة تدور وتدور. وتصيح الملايين من الكائنات الخاضعة لثورتها المستمرة وتلوح بأيديها متحمسة وهائجة بسبب السرعة. وبمجرد أن رآها خايمي تصعد إلى القمة، كأنها تنزل رؤوسها إلى الأسفل؛ لكنها، في وهما، تعتقد أنها تسير بشكلٍ مستقيم، وتعجبون في كل لفة بالمساحات الجديدة، والأشياء الجديدة. كانوا يخمنون النقطة نفسها التي مروا بها من لحظات من قبل كمكان غير معروف ومدّش. وهم يتجاهلون جمود المركز الذي يدورون حوله، ويؤمنون بحسن نية أن الحركة كانت إلى الأمام. «كيف نجري؟! أين سنتوقف؟» كان فيرر يبتسم، مشفقاً على بساطتهم، ورؤيتهم يتفاخرون بسرعة تقدمهم، بينما هم في المكان نفسه، بسرعة الصعود التي يقومون بها لألف مرة، وكان يجب أن يتبعه هبوط رأسي لأسفل.

فجأة، شعر خايمي أنه مدفوع بقوة لا تقاوم. ابتسمت له الجمجمة الكبيرة بسخرية: «أنت أيضاً، لماذا تقاوم مصيرك؟»، ووجد نفسه مستنداً إلى العجلة، مرتبكاً مع تلك الإنسانية الساذجة والطفولية، ولكن دون عزاء لخداعها اللطيف. وكان يهينه رفاقه القدامى، ويصبقون عليه،

ويضربونه غضبًا عندما اكتشفوا أنه يُنكر حركتها، واعتبروه مجنونًا بسبب شكه فيما كان مرئيًا للجميع.

انفجرت العجلة، ملأت الفضاء الأسود بلهب الانفجار، بآلاف الملايين من الصراخات والرعشات، حيث أُلقيت كائنات أخرى كثيرة من خلال لغز الخلود. وكان هو يسقط ويسقط لسنوات وقرون، حتى شعر برق السريبر على ظهره.. حينها فتح عينيه. كانت مارجاليدا هناك، تتأمل به بتعبير مرعب في ضوء القنديل. يجب أن يكون وقتًا متأخرًا من الليل. كانت الفتاة المسكينة تنهد من الخوف وهي تمسك ذراعيه بيديها الصغيرتين المرتعشتين.

- دون تشاوم! آه، دون تشاوم!

يصرخ كالمجنون؛ وينحني خارج السرير بنية واضحة للسقوط على الأرض؛ ويتحدث عن عجلة وجمجمة. ماذا كان ذلك يا دون خايمي؟!

يشعر المريض بالمداعبة المحبة للأيدي اللطيفة التي تسوي ملابسه الفوضوية، وترفع الغطاء وتضغطه حول كتفيه بأوممة، بالعناية نفسها المُدللة كأنه طفل.

قبل أن يغرق فير مرة أخرى في فقدان الوعي، قبل أن يعبر مرة أخرى بوابات الهذيان النارية، رأى قريبًا من عينيه عيني مارجاليدا الرطبة، في كل مرة أكثر حزنًا ودموعًا في دوائرهما الزرقاء؛ شعر بنفسها الدافئ على شفتيه، التي ارتجفتا مع ملامسة حريرية ورطبة، ومداعبة خفيفة وخجولة تشبه ملامسة جناح. «نام يا دون تشاوم.. لا بد أن ينام

السيد. وعلى الرغم من الاحترام الذي تتحدث به مع الجريح، إلا أنه كان لكلماتها همسة حميمة، كأن دون خايمي كان شخصاً آخر بالنسبة لها بعد أن جعلتهما المصيبة أقرب.

كان هذيان الحمى يدفع المريض إلى عوالم غريبة، حيث لم يكن يستمر أدنى شكل من أشكال الواقع. يرى نفسه مرةً أخرى في برجه الانفرادي. لم يعد المكعب الغامض مصنوعاً من الحجر: لقد كان مصنوعاً من جماجم، متماسكة مثل الكتل، بواسطة ملاط مصنوع من غبار العظام. وكان التل وصخور الساحل أيضاً من العظام، وكانت الهياكل العظمية البيضاء عبارة عن خطوط من الرغبة تتوج هاديات البحر. كل شيء على مرمى البصر: الأشجار والجبال، السفن والجزر البعيدة، كان متحجراً، مع بياض مذهل من المناظر الطبيعية الجليدية. كانت الجماجم المجنحة - على غرار الكرويين^(٦١) في اللوحات الدينية - ترفرف في الفضاء، وهي تُطلق ترانيم بصوتٍ أجش من فكيها المتدليتين إلى الإله العظيم الذي يملأ كل شيء بطيات كفنه، وكان رأسه العظيم يضيع في الغيوم. يشعر هو نفسه أن أظافره غير المرئية تجرده من لحمه، وكانت خرق ملطخة بالدماء - بعد أن التصقت به طوال حياته - تجعله يُطلق صرخات من الألم وهي تُنزع عنه. ثم رأى نفسه أملس ومصقولاً في بياض هيكله العظمي، وكان يتمم صوتٌ بعيد بنذر مرعب في أذنيه الغائبتين. «حانت لحظة عظمتة الحقيقية: لم يعد رجلاً ليموت. لقد اجتاز العبد القبول العظيم، وأصبح نصف

(٦١) الكرويين: ملاك يُصور على هيئة طفل جميل مُجنح.

إله». يحكم الموتى! لم يعد هناك أكثر من رؤية أولئك الذين يعيشون في المدن يحيون باحترام خرافي وبخوف ذليل أولئك الذين يغادرون إلى الأبد. يكشف القوي عن نفسه أمام المتسول.

من خلال الرؤية القوية لمحاجرهم السوداء عديمة الأعين، والتي لم يكن يوجد بالنسبة لها مسافة أو عوائق، كانت تغطي كل الأرض. ميتون، ميتون في كل مكان! لقد ملأوا كل شيء. لقد رأى المحاكم مع رجال يرتدون ملابس سوداء، وأعينهم نصف مغلقة وإيماءاتهم مهيبة، يستمعون إلى بؤس وحماقات نظرائهم، وخلفهم عدد من الهياكل العظمية الهائلة، مع عظمة قرون، ملفوفون في حلة رومانية، هم الذين يحركون أيادي القضاة عندما يكتبون والذين ينفخون فوق رؤوسهم، كانوا يملون عليهم أحكامهم. يحكم الموتى! رأى قاعات استقبال كبيرة ذات ضوء سمطي بها مقاعد نصف دائرية، وفيها مئات من الرجال الذين يتحدثون ويصرخون ويشيرون في أثناء العمل الصاخب المتمثل في سن القوانين. وخلفهم كان يختبئ المشرعون الحقيقيون والموتى والنواب ذوو الأكفان، الذين لم يخمن وجودهم هؤلاء الرجال ذوو الزهو البلاغي، معتقدين أنهم يتحدثون دائمًا من إلهامهم الخاص. يُسرّع الموتى! في لحظة شك، كان يكفي لشخص ما أن يتذكر ما يفكر فيه الموتى فيما مضى لاستعادة الهدوء، ويقبل رأيهم الجميع. كان الموتى هم الواقع الأبدي الوحيد الثابت. كان الرجال ذوو الأجساد حادًا عابرًا، فقاعة غير مهمة لن تتأخر في الانفجار بسبب بهرجة عظمتهم الجوفاء.

ورأى هياكل عظمية بيضاء تسهر مثل الملائكة القاتمة على أبواب المدن التي كانت صنيعهم، تراقب القطيع داخل الزريبة، وتصد المجانين غير المحترمين الذين يرفضون الاعتراف بسلطتهم مثل البهائم الملعونة. رأى عند سفح الصروح العظيمة، اللوحات في المتاحف، والأرفف في المكتبات، والابتسامة الصامتة للجماجم، التي تبدو كأنها تقول للرجال: «اعجبوا بنا: هذا صنيعنا، وكل ما تفعلوه لا بد أن يكون شبهنا». كان العالم كله ينتمي للموتى. كانوا يسودون. كان الحيّ -عند فتح فمه للطعام- يمزغ ذرات من سبقوه في طريق الحياة؛ عند إعادة خلق العينين والأذنين بجمال، يعطي الفن أعمالاً وأنماطاً للموتى. حتى الحب يُعاني من هذه العبودية. كانت الأنثى -في حياها أو في نوبات غضبها- تنتحل عن غير قصد جداتها، اللاتي كن، تبعاً للعصور، مُغريات بفضيلة النفاق أو فاسقات بشكلٍ صريح.

بدأ المريض -في حالة هذيانه- يشعر بالإرهاق من كثافة وعدد هذه الكائنات البيضاء والعظمية، ذات التجاويف السوداء والضحكة الشريرة، وهياكل الحياة المتلاشية التي أصرت بشدة على البقاء وشغل كل شيء. كان هناك كثير، وكثير! من المستحيل التحرك. يتعثر فيبر بأضلاعهم المقوسة والنظيفة، مع الزوايا الحادة لأوراكهم، وآذانهم تهتز مع طقطقة ركبهم. يُضيقون عليه ويخنقونه، كانوا ملايين الملايين: ماضي البشرية كله. لم يجدوا مساحة لوضع أقدامهم، فاصطفوا في صفوفٍ بعضها فوق بعض. كانت مثل مد متصاعد من العظام يصعد ويصعد حتى وصل إلى قمة أعالي الجبال ولمس الغيوم. بدأ خايمي

يغرق في هذا الفيضان الأبيض القاسي والمقطق. أثقلوا على صدره بثقل الأشياء الميتة.. كان على وشك الهلاك. في يأسه، تشبث بيدٍ بدت كأنها تأتي من بعيد، تخرج من الظل: يد حية، يد من جسد. سحبها، وشيئًا فشيئًا، في الضباب، أخذت تتشكل المسحة الشاحبة للوجه. بعد حياته في عالم الجماجم الصريحة والعظام المعروقة، تسبب له هذا الوجه البشري في انطباع المفاجأة السارة نفسه الذي يشعر به المستكشف عند لقاء وجه أحد أفراد عرقه بعد إقامة طويلة بين المتوحشين.

استمر في سحب تلك اليد، وبدأ غموض الوجه يزيد، حتى تعرف على پابلو بايس وهو ينحني عليه، ويحرك شفثيه كأنه يغمغم بكلماتٍ حنونة لا يستطع سماعها. «مرة أخرى! دائمًا يظهر القبطان في أوهامه!». غرق المريض مرةً ثانية في فقدان الوعي بعد هذه الرؤية السريعة. الآن كان نومه أهدأ. بدأ العطش، وهو عطش رهيب جعله يمد يده من السرير ويُبعد شفثيه عن الكأس الفارغة مع إيماءة شره لا يشبع، بدأ يهدأ. في هذيانه رأى جداول صافية وأنهارًا صامتة وشاسعة لم يستطع الوصول إليها أبدًا، وانغrust ساقاه في حالة جمود مؤلم. الآن يتأمل في شلال مضيء ومزبد يتقلب في أعماق حلمه، ويمكنه أخيرًا السير والاقتراب منه، ورؤيته أكبر مع كل خطوة، والشعور بمداعبة الرطوبة المنعشة على وجهه.

في وسط صخب هذا السقوط المائع، كانت تصل أصوات بشرية هامدة إلى أذنه. كان شخص ما يتحدث عن الالتهاب الرئوي الجُرحي مرةً أخرى: «لقد هُزم». وصوت أضاف بسعادة: «تهانينا. الآن عاد إلينا

رجلنا». تعرف الرجل المريض على هذا الصوت. دائماً بإبلو بايس يظهر ثانيةً في كابوسه!

واصل مسيرته إلى الأمام، منجذباً إلى نضارة الماء، حتى وضع نفسه تحت السيل الصاخب، مرتجفاً مع قشعريرة شديدة عندما تلقى دفعة كاملة لانهيال مائي على ظهره. كان ينتشر إحساس بالانتعاش في جسده يجعله يتنهد بسرور. تبدو أطرافه ممتدة تحت المداعبة الجليدية. كان صدره يتسع، ويتبدد الضيق الذي يقتله حتى فترة قصيرة، كأن الأرض كلها ثقلت على جذعه. شعر بتلاشي أفكاره الضبابية داخل جمجمته. لا يزال يهذي، لكن هذيانه لم يتطور، قاطعته مشاهد رعب وصرخات قلق. كان الأمر أشبه بحلم هادئ، يتمدد فيه جسده باستطلاات شديدة ويركض خياله عبر آفاق التفاؤل البهيجة. كانت رغبة الشلال بيضاء، وتهتز ألوان قوس قزح على أسطح ماساته السائلة. كانت السماء عبارة عن حجر وردي، مع موسيقى بعيدة وعطور ناعمة. كان شخص يرتجف بشكل غامض وغير مرئي وفي الوقت نفسه يتسم في هذا الجو الرائع: قوة خارقة للطبيعة تبدو كأنها تضيفي جمالاً على كل شيء بلمستها. الصحة التي جاءت.

أيقظت رقة الماء التي تنحني عند سقوطها من الصخور العالية أحلاماً سابقة في ذاكرته. لقد رأى العجلة مرةً أخرى، العجلة الهائلة، صورة الإنسانية، التي تدور وتدور دون تغيير مكانها، تبدأ في صعود تلو الآخر، لأجل أن يعبر دائماً النقاط نفسها.

ظن المريض -المتحمس من هذا الشعور بالانتعاش- أن لديه حواس جديدة لإدراك ما حوله.

رأى مرةً أخرى العجلة تدور وتدور إلى ما لا نهاية؛ ولكن هل كان حقًا ساكنًا؟

الشك - بداية الحقائق الجديدة - جعله ينظر باهتمام أكبر. ألم تكن خدعة عينيه؟ هل يمكن أن يكون هو الذي عاش في الخطأ، وهؤلاء الملايين من البشر الذين يصرخون من أجل الفرح في سجنهم المتدحرج على حق في اعتقادهم أنهم يحققون تقدمًا جديدًا مع كل منعطف؟!

كان من القسوة أن تتطور الحياة مئات ومئات القرون في هذا الاضطراب الزائف الذي يُخفي جمودًا حقيقيًا. لماذا إذن حياة المخلوق؟ ألم يكن للبشرية غرض آخر سوى خداع نفسها، بالتحول بجهدا الخاص إلى الصندوق الدائري الذي سجنها مثل تلك الطيور التي بقفزاتها تحرك قفصًا هو سجنها؟

فجأة لم يعد يرى العجلة. لقد رأى كرة أرضية ضخمة تمر أمامه، ذات لون أزرق، كانت تميز البحار والقارات عليها بملامح مشابهة لتلك التي يتأملها على الخرائط. كانت الأرض. وهو -جزء غير محسوس في ضخامة الفضاء- متفرج ضئيل لتمثيل الطبيعة الهائل، يمكنه أن يحيط بعينه الكرة الزرقاء المحاطة بالغيوم.

كانت أيضًا تلف مثل العجلة القاتلة. كانت تدور وتدور حول نفسها برتابة يائسة؛ لكن هذه الحركة -التي كانت الأكثر إلحاحًا والأكثر وضوحًا والتي يمكن للجميع تقديرها- كانت غير ذات أهمية. حركة أخرى كانت الأرقى. في الدوران الرتيب، دائمًا حول المحور نفسه، كانت حركة انتقالية، تجر الكرة الأرضية عبر مساحات غير محدودة في رحلة أبدية، دون المرور في الأماكن نفسها مطلقًا.

اللعنة على العجلة! لم تكن الحياة منعطفًا أبدًا حول نقاط متطابقة. فقط يمكن لقاصري النظر -عند تأمل هذه الحركة- أن يتخيلوا أنها كانت الوحيدة. كانت صورة الحياة هي الأرض. تدور حول نفسها في فضاءات زمنية محددة: كانت تكرر الأيام والفصول، حيث تكررت العظمة والأطلال في تاريخ البشر؛ ولكن كان هناك شيء آخر فوق كل هذا: الحركة الانتقالية، التي تَجُرُّ نحو اللانهاية، دائمًا إلى الأمام.. دائمًا إلى الأمام!

كانت نظرية (إعادة بدء الأشياء السرمدي) خاطئة. فالرجال والأحداث يعيدون أنفسهم، كما تتكرر الأيام والفصول على الأرض؛ ولكن على الرغم من أن كل شيء بدا كما هو، إلا أنه لم يكن حقيقيًا. يمكن أن يتشابه الشكل الخارجي للأشياء؛ لكن الأرواح مختلفة.

لا؛ تُكسر العجلة! يتلاشى الجمود! لا يستطع الموتى الحكم. العالم -في حركته الانتقالية- يركض بسرعة كبيرة حتى يستطيعوا البقاء على سطحه إلى الأبد. يتشبثون بالقشرة بمخالبهم العظمية، وهم يصارعون من أجل الحفاظ على أرضهم لسنواتٍ عديدة، وربما لقرون، لكن سرعة ركضهم انتهت إلى إبعادهم جميعًا، تاركين وراءهم أثرًا من العظام المكسورة، ثم من الغبار، ثم لا شيء في النهاية.

كان العالم -المليء بالأحياء- يتقدم دائمًا، دون المرور عبر المكان نفسه مرتين. رآه خايمي يظهر في الأفق مثل دمعة زرقاء مضيئة؛ ثم تكبر وتكبر، حتى تملأ المساحة بأكملها، وتمر بجانبه مع دوران العجلة وسرعة المقذوف في الوقت نفسه؛ والآن تنقلص مرةً أخرى، هاربةً

في الطرف المقابل . لقد كانت فعلاً قطرة .. نقطة .. لا شيء .. تضيع في
الظلام، مَنْ يعرف إلى أين ولماذا؟!

لم يكن مجدياً أن أفكّاره قبل وقت قصير -بعد أن هُزمت- تتحرك
في محاولة للاحتجاج الأخير، وهي تصرخ أن هذه الحركة الانتقالية
كانت خاطئة أيضاً، الآن تدور الأرض كعجلة حول الشمس .. لا؛ لم
تكن الشمس ساكنة أيضاً، ومع كل جوفة الكواكب المألوفة تسقط
وتسقط، إذا كان من الممكن السقوط أو الارتفاع إلى ما لا نهاية؛ تسير
وتسير، من يدري إلى أي نقطة ولأي غرض؟!

في النهاية كره العجلة، فحطمها عقلياً، شاعراً بفرحة السجين الذي
يمر من باب الحبس ويستنشق الهواء النقي. تخيل أن القشور تتساقط
من عينيه، مثل عيني الرسول العبري في الطريق إلى دمشق. كان يتأمل
نوراً جديداً. كان الإنسان حرّاً ويمكنه الهروب من هزات الموتى، وهو
ينظم حياته وفقاً لرغباته، ويقطع رباط العبودية الذي يلحمه بهؤلاء
الطغاة غير المرئيين.

توقف عن الحلم؛ لقد غرق في العدم مع المتعة الحميمة والصامتة
للعامل الذي يستريح بعد يوم مثمر.

لقد مر وقت طويل .. طويل! فتح عينيه ووجد عينيّ يابلو بايس
مثبتتين عليه. يمسك يديه وينظر إليه بمودة بعينه الضاربتين إلى الأصفر.
لم يكن من الممكن أن يشك .. كان حقيقة. شعرت حاسة الشم
خاصته برائحة التبغ الإنجليزي المعطر برائحة الأفيون التي تبدو كأنها
تحوم حول فمه وخصلاته. لم يكن من الوهم إذن رؤيته في هذيانه؟ هل
حقاً كان صوته الذي يسمعه وسط كوايسه؟

ضحك القبطان مظهرًا أسنانه الطويلة الصفراء بسبب الغليون.

قال:

- آه أيها الفتى الطيب! الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟ لم يعد هناك حمى، لم يعد هناك أي خطر الآن. الجروح بخير. لا بد أنك تشعر بوخز ألف شيطان فيها؛ شيء هكذا كأن دبابير عالقة تحت ضماداتك. إنه تكوين الأنسجة، اللحم الجديد الذي يلدغ مع نموه.

أدرك خايمي حقيقة هذه الكلمات. كان يشعر بحكة شديدة في جروحه المضغوطة، صلابة تجعل لحمه مشدودًا.
خمن بايس فضولًا متوسطًا في عيني صديقه.

- لا تتكلم، لا تتعب نفسك.. منذ متى أنا في إبيزا؟ حوالي أسبوعين.
قرأت عنك في جرائد بالما، وفورًا أقمت هنا. صديقك التشويتا سيظل دائمًا هو نفسه.. الأوقات السيئة التي سببتها لنا قد مرت! كان التهابًا رئويًا من النوع الخطير يا ولدي. كنت تفتح عينيك ولم تعرفني: كنت تهذي كالمجنون. لكن انتهى هذا. لقد اعتنينا بك كثيرًا... انظر من هنا.
وابتعد عن السرير ليتمكن من رؤية مارجاليدا مختبئة خلف القبطان منكشمة وخجلة الآن، حيث يمكن للسيد أن ينظر إليها بعينين خاليتين من الحمى: «آه يا زهرة اللوز!».. جعلتها نظرة خايمي -الريقة واللطيفة- تحمر خجلًا. خشيت أن يتذكر المريض ما فعلته في أكثر اللحظات حرجًا، عندما كانت على يقين أنه سيموت.

وتابع بايس:

- الآن ابقِ هادئًا. سأبقى هنا حتى نغادر معًا إلى پالما. أنت تعرفني قبل الآن.. أعرف كل شيء؛ أصلح كل شيء.. أليس كذلك؟ هل أشرح؟ غمز التشويتا بعينه وضحك بخبثٍ، واثقًا من قدرته على تخمين رغبات أصدقائه.

القبطان الشهير! منذ أن كان في بيت المايوركي، بدا أن الجميع متعلقين بقراراته، معجبون به كشخصية قوية ومرحة. تخجل مارجاليدا من كلماته وغمزاته، لكنها أحبته عندما رأته مخلصًا جدًّا. تتذكر عينيه المليئتين بالدموع ذات ليلة عندما اعتقد الجميع أن دون خايمي سيموت. كان بايس يبكي وهو يتمتم باللعنات. كما أحب القسيس ذلك الرجل النبيل المايوركي منذ أن رآه يضحك عندما اكتشف أنهم يخططون لجعله راهبًا. وكان يتبعه بيب وزوجته مثل كلابٍ مطيعة وخاضعة. يتحدث پابلو والمريض في مساءات عديدة عن الأحداث السابقة. كان القبطان رجلًا سريعًا في قراراته.

- أنت تعلم أنني لا أتعب عندما يتعلق الأمر بصديق. عندما نزلت إلى إبيزا، رأيت القاضي. سيسوي هذا الأمر؛ أنت على حق والجميع يعترف بذلك: دفاع عن النفس. قليل من المضايقات عندما تكون بصحة جيدة، لكن لا شيء في النهاية.. تم حل مسألة صحتك أيضًا. ماذا بقي؟ آه.. أجل! لا يزال هناك شيء آخر، لكنني أيضًا على وشك تسويته.

ضحك بخبث وهو يتحدث هكذا، وضغط على يد فيرر، الذي من جانبه، لم يرغب في السؤال عن مزيد، خوفًا من المعاناة من إحباط.

ذات مرة، عندما دخلت مارجاليدا غرفة النوم، أخذها بايس من ذراعها، وقادها إلى السرير.

صاح بجديّة ساخرة، مخاطبًا المريض:

- انظر إليها! هل هي نفسها التي تريدها؟ هل غيروها لك؟ أعطها يدك أيها السخيف. ماذا تفعل هنا، تتأملها بعينين خائفتين؟!

صافحت يدا فيرر يد مارجاليدا اليمنى. آه! هل كان صحيحًا ما يقوله القبطان؟ بحثت عيناه عن عيني الفتاة اللتين بقيتا منخفضتين، بينما الانفعال يبيض خديها ويجعل جناحي أنفها يخفقان.

قال بايس وهو يدفع الفتاة برفق تجاه المريض:

- الآن، قبّلا بعضكما.

لكن مارجاليدا - كأنها مهددة بالخطر - حررت نفسها من يديه، وهربت من الغرفة.

قال القبطان:

- حسنًا. ستقبّلان بعضكما حين لا أكون في الجوار.

يوافق بايس على هذا الزواج. هل كان يحبها فيرر؟ حسنًا.. كان هذا أكثر منطقية من حفل زفاف مع ابنة أخيه لملايين والدها. مارجاليدا امرأة عظيمة. يفهم هذه الأشياء. عندما يُخرجها خايمي من الجزيرة، وتعتاد على ممارسات أخرى وأزياء أخرى، مع سهولة الاستيعاب التي تمتلكها الإناث لكل شيء جيد، لن يتعرف أحد على الفلاحة القديمة.

- لقد رتبت مستقبلك أيها المحقق الصغير. أنت تعلم فعلاً أن صديقك اليهودي يحصل دائمًا على ما يخطط للقيام به. لقد غادرت

مايوركاً لتعيش بتواضع. لا تهز رأسك: أعلم أنك تريد العمل، خاصة الآن بعد أن أصبحت عاشقاً وترغب في تكوين أسرة. ستعمل؛ سنؤسس شركة بيننا: أينما يقع الاختيار. دائماً ما يكون رأسي مليئاً بالمشاريع: إنه شيء في العرق.. إذا كنت تفضل مغادرة مايوركاً، فسأجد لك وظيفة في الخارج.. إنها مسألة يجب التفكير فيها.

في كل ما يتعلق بعائلة بيت المايوركي، كان القبطان يتحدث بسلطة السيد. لم يجرؤ ييب وزوجته على عصيانه. كيف تجادل مع سيد يعرف كل شيء! لم يُد الفلاح سوى قليل من المقاومة. نظراً لأن دون بابلو أراد زواج مارجاليدا من السيد وأعطى كلمته أن هذا لن يجلب أي مشكلة للفتاة، فيمكنهما الزواج. لقد كان من المؤسف أن يراها العجوزان تغادر الجزيرة، لكنهما يفضلان هذا الحزن على إبقاء فيرر إلى جانبهما كصهرهما، الذي يوحى لهما باحترام لا يقاوم.

بالنسبة للقسيس كان على وشك الركوع أمام بايس. ولا يزالون يقولون في پالما أن التشويتا سيئون! كان معروفاً أن من يتحدثون هم المايوركيون: أناس غير منصفين ومتغطرسون! كان القبطان قديساً. وبفضله لن يذهب إلى المدرسة الإكليريكية. سيكون فلاحاً؛ وسيظل بيت المايوركي له. حتى أنه استعاد من والده -بسبب شفاعته دون بابلو- السكن التي أهدها إياها فيرر؛ وكان يحكي عن وعد بمسدس حديث هدية من القبطان: أحد تلك الأسلحة المعجزة التي أعجب بها في پالما في واجهات المتاجر الزجاجية في بورن. بمجرد أن يتم زواج مارجاليدا، ستخرج بحثاً عن عروس في المنطقة، مرتدية في وشاحه

هذين الرفيقين النبيلين. لا ينبغي أن ينتهي الأوغاد في الجزيرة. كانت تتحرك في عروقه الدماء البطولية لجده.

ذات صباح مشمس، تقدم فبرر -مستندًا على بايس ومارجاليدا- بخطوات متماثل للشفاء إلى شرفة بيت المزرعة. تأمل بشراة -وهو يجلس على كرسي بذراعين- المناظر الطبيعية الهادئة الممتدة أمامه. على قمة الرعن يرتفع برج القرصان. كم حَلِم وعانى فيه! كيف أحبه وهو يتذكر أنه بداخله -وحيدًا وناسيًا العالم- احتضن هذا الشغف الذي سيملاً بقية حياته بلا هدف حتى ذلك الحين؟!

كان يستنشق -بضعف بسبب إقامته الطويلة في الفراش وفقدان الدم- الجو الدافئ للصباح الساطع، الذي تقطعه العواصف الآتية من الساحل.

عادت مارجاليدا، بعد تأمل خائمي بعينها المحبتين اللتين لا تزالان تحافظان على بعض الخجل، إلى داخل بيت المزرعة لتحضير وجبة الإفطار.

ظل الرجلان في صمتٍ طويل. أخرج بايس غليونته، وملأه بالتبغ الإنجليزي، ثم طرد أنفأاً معطرةً.

تحدث فبرر بصوتٍ منخفض، ونظره مثبت على المناظر الطبيعية، تعانق عيناه المنبهرتان السماء والجبال والحقول والبحر، كأنه يتحدث مع نفسه.

كانت الحياة جميلة. يؤكد ذلك بقناعة الرجل الذي بُعث من الموت، والذي يعود بشكلٍ غير متوقع إلى العالم. يمكن للإنسان أن يتحرك بحرية، مثل الطائر والحشرة في حضن الطبيعة. كان هناك متسع

للجميع. لماذا نبقي جامدين في ظل الروابط التي خلقها آخرون، وهم يهأؤون مستقبل الرجال الذين يجب أن يأتوا من بعدهم؟ الموتى، دائماً الموتى الملعونون، يريدون الاختلاط في كل شيء، مما يعقد حياتنا!

ابتسم بايس ناظرًا إليه بعينين خبيثتين. في مراتٍ عديدة يسمعه في هذيانه يتحدث عن الموتى، وهو يلوح بذراعيه كأنه يتقاتل معهم ويصد كربهم المرعب. عند الاستماع إلى التفسيرات التي قدمها خايمي، عند إدراك احترامه القديم للماضي وذلك الاستسلام لتأثير الموتى الذي يعوق حياته، ويحصره في جزيرة نائية، ظل بايس صامتًا وشارد الفكر.

- هل تعتقد أن الموتى يحكمون يا پابلو؟

هز القبطان كتفيه. بالنسبة له لم يكن هناك شيء مطلق في العالم. ربما كانت إمبراطورية الموتى جزئية وفي حالة انحطاط بالفعل. فيما مضى كانوا يحكمون مثل الطغاة: كان الأمر هكذا بلا شك. الآن يحكمون في أماكن معينة فقط، وخسروا في أماكن أخرى إلى الأبد كل أمل في السلطة. في مايوركا لا يزالون يحكمون بيد قوية: كان يقول ذلك، التشويتا. في بلدانٍ أخرى، ربما لا.

شعر فيرر بسخطٍ شديد عندما تذكر أخطائه وأحزانه. الموتى الملعونون! لن تكون الإنسانية سعيدة وحررة حتى تدمرهم.

- پابلو لنقتل الموتى!

نظر القبطان إلى صديقه للحظة ببعض القلق؛ فلما رأى هدوء عينيه، هداً وقال مبتسمًا:

- بالنسبة لي دعهم يقتلونهم!

ثم استعاد جديته وهو يتكأ على مقعده، بينما يطلق نفثة من الدخان،
أضاف التشويتا:

- أنت على حق. لنقتل الموتى: لندس على العقبات غير المجدية،
والأشياء القديمة التي تعرقل طريقنا وتعقده. نعيش جميعاً وفقاً لما قاله
موسى، ولما قاله بوذا وعيسى ومحمد أو غيرهم من الرسل، بينما سيكون
الشيء الطبيعي والمنطقي هو العيش وفقاً لما نفكر فيه ونشعر به نحن.

نظر خايمي خلفه، كأن عينيه تريدان البحث داخل المنزل عن وجه
مارجاليدا الجميل. ثم لخص كل الآلام والحقائق الجديدة لتفكيره وهو
يكرر التأكيد القوي نفسه: «لنقتل الموتى!».

أخرجه صوت يابلو من تأملاته.

- هل تتزوج ابنة أخي الآن بلا خوف ولا ندم؟

تردد فيرر قبل الإجابة. أجل؛ كان سيتزوج دون أن ينتبه إلى
الوساوس الموروثة والاختلافات العرقية التي جعلته يعاني كثيراً. لكن
كان هناك شيء مفقود؛ شيء كان فوق إرادة الرجال وكان أسمى من
قوتهم؛ شيء لا يمكن شراؤه وكان يحكم العالم؛ شيء كانت تحمله
معها المتواضعة مارجاليدا دون أن تدري.

كانت أحزانه قد انتهت. حياة جديدة!

لا؛ الموتى لا يحكمون.. من يحكم هو الحياة، وفوق الحياة..
الحب.

